

منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي



تهاني عفيف يوسف جابر



المعهد العالمي للفكر الاسلامي

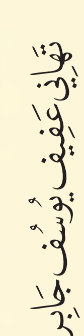


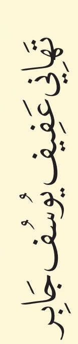


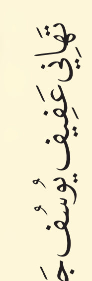






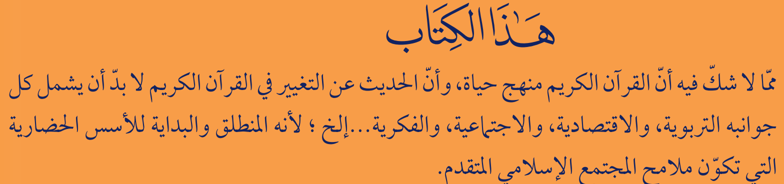












هذا الكتاب

مما لا شكّ فيه أنّ القرآن الكريم منهج حياة، وأنّ الحديث عن التغيير في القرآن الكريم لا بدّ أن يشمل كل جوانبه التربوية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية...إلخ ؛ لأنه المنطلق والبداية للأسس الحضارية التي تكوّن ملامح المجتمع الإسلامي المتقدم.

ومنهج القرآن الكريم في التغيير يكون باتّباع منهج شموليّ متكامل، من خلال تحديد الأسس والمسارات العامة دون الخوض في التفصيلات والجزئيات، ثم يترك المجال أمام حركة الفرد والمجتمع، كي يأخذا دورهما الطبيعي الذي يتمّ في ظل سنن أودعها الله تعالى في الوجود كله.

جاء هذا الكتاب ليبيّن المقصود بـ «التغيير والمنهج والنفس»، والاستعدادات التي تهيء الفرد للتغيير، وتوضح أهداف القرآن من التغيير، وهو الارتقاء بالإنسان في الدرجات التأسيسية في المنهج القرآني إلى أن يصل إلى أعلى درجات الالتزام بهذا المنهج.

كشف الكتاب عن تلازمية بين جانبين: جانب الفرد الذي هو الأساس والجذر لعملية التغيير، وجانب المجتمع الذي يعدُّ السقف العلوي لهذا الأساس؛ لذا كان الموضوع في القرآن متماسكاً من حيث النظر في جميع الأبعاد الإنسانية المتعلقة بالتغيير الفردي، وذلك بما فيه من ثبات في أصول منظومة القيم، ومن تكامل في فروع التشريع، واستيعاب للمسارات كافة، الداعمة لتقدّم الإنسانية في تكوين صياغتها الحضارية .



تهاني عفيف يوسف جابر

- من مواليد حولي، الكويت عام ١٩٨٠م.
- تحضر حالياً الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من قسم أصول الدين في كلية الشريعة/ الجامعة الأردنية.
- حصلت على الماجستير في التفسير من قسم أصول الدين في كلية الشريعة/ الجامعة الأردنية، بتقدير جيد جدا، عام ٢٠١١م.
- حصلت على البكالوريوس في تخصص الشريعة من كلية الشريعة/ جامعة جرش الأهلية، بتقدير ممتاز، عام ٢٠٠٧م.
- حصلت على عدّة إجازات في تجويد القرآن الكريم إحداها من وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية في الأردن، والأخرى من جمعية المحافظة على القرآن الكريم في رواية حفص عن عاصم من طريق الشاطبية.
- تعمل حالياً مساعدة بحث وتدريس في قسم أصول الدين في كلية الشريعة/ الجامعة الأردنية منذ عام ٢٠٠٨م.
- البريد الكتروني : nanisfsf@yahoo.com



المعهد العالمي للفكر الاسلامي



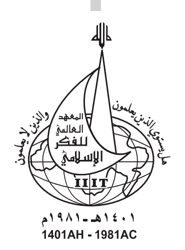
منهج القرآن الكريم
في
التغيير الفردي



تهاني عفيف يوسف جابر







الطبعة الأولى 1436هـ / 2015م

منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي

تأليف: تهاني عفيف يوسف جابر

موضوع الكتاب 1. المنهجية القرآنية 2.المنهاج القرآني في التغيير
3. التغيير الفردي 4.علم النفس الديني
5. النفس الإنسانية 6.دراسات قرآنية

ردمك (ISBN): 978-1-56564-624-7

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المركز الرئيسي - الولايات المتحدة الأمريكية
The International Institute of Islamic Thought
P.O.Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA
Tel: (1-703) 471 1133, Fax: (1-703) 471 3922
www.iiit.org / iiit@iiit.org

مكتب الأردن - عمّان
ص.ب 9489 الرمز البريدي 11191
هاتف: 4611421 6 962+ فاكس: 4611420 6 962+
www.iiitjordan.org



ص.ب 183479 عمان 11118
هاتف: 4646199 6 962+ فاكس: 4646188 6 962+ جوال: 799038058 962+
البريد الإلكتروني: info@daralfath.com
الموقع على الشبكة الإلكترونية: www.daralfath.com



الإهداء

إليك... يا من وصلت كلماتي بين يديك، واستقرّت رسالتي محمولة على كفيك، وأخذتَ بتقليب صفحاتها قارئاً لها بأيّ قصد لديك، أو أية نيّة بين جنبيك، سواء أكنت ناقداً، أم قارئاً، أم هادياً لناظريك، وأملي أن تجد لها مأوىً في نفسك التي هي بين جنبيك.

إنّي أقدمها إليك، عساها أن تجد في نفسك خيراً ولو كان مثقال ذرة لديك، واعْلم أني لا بد أن أرسلها هديّة حبّ إلى كل من كان سبباً وعوناً في أن أقدمها إليك، أبي الحبيب، نبض قلبي، وعطر وجودي، وفرحة عمري. أمي الحبيبة، نسمة حياتي، ولحن مسمعي، ونور عيني. إخوة الرحم... وكذا إخوة الروح... الذين مدّوا الأياديَ يوم واجهتني صعاب الطريق، تتلقّفني أكفهم، وتشدّني سواعدهم، كي أصمد وأسير، فتبقى قواي تشتدّ في مسيرتي بينهم إلى أن وصلتْ كلماتي بين يديك.

واعلم أن هناك منارات أرشدتني فآوتني، وأنارت ظلمات جهلي فعلمتني، وسطّرت بنور أقلامها حروفاً على رسالتي فوجّهتني، وأبت إلا أن يعلو طُهْرَ النفوس فوق خُبْثِها، ونُبْلَ الأخلاق فوق دنيئها، وما كان محمود الخصال فوق ذميمها، أستاذي ومعلّمي، وفي المقام كأبي... الدكتور "محمد نبيل" طاهر العمري رعاه الله، فلن يضيع جميل صنيعك؛ لأنها بذور خير زُرِعَتْ في نفسي ما دُمْتُ حيًّا.

ولم أنسَ صاحب الفضل في قبول الإشراف على ما كَتَبْتُ... لتُقدَّم هذه الرسالة بين يديه هدية تليق بلطفه عليّ فإلى صاحب هذا الفضل الدكتور أحمد إسماعيل نوفل حفظه الله.

ولم أنسَ أحباء القلب، وعشقاء العمر، من تنازعني إليهم نفسي، من ترحّلت إليهم كل يوم روحي، فلسطين الحبيبة بكل شبر فيها، والأقصى الغالي بكل ركعة فيه. ولم أنسكم يا أهل الرفعة والسموّ أهلها، من قلتم ربنا الله ثم اسْتَقَمْتُمْ، يا من تتنسمون نسمات فلسطين الحبيبة، وأنتم صامدون، نازفون، دامعون، ولكن بنصر الله آملون، لكم أقدم رسالتي بكل نبضة نبضت من قلبي وأنا أكتبها، مترقبين وعد الله بعَودة فلسطين، والدعاء يتردد بأن يكون لما خطّت أناملي نصيب من ولادةٍ جديدة، لجيل جديد، بنهج القرآن يستنير.

المحتويات

الفصل الثالث

أساليب القرآن الكريم المنهجية، التنفيذية في التغيير الفردي

الفصل الرابع

خصائص المنهج القرآنيّ في عملية التغيير الفرديّ، وآثاره

الفصل الخامس

موانع التغيير بالمنهج القرآني، النفسيّة الذاتية، والحياتية البيئية

التقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته وتابعيهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإنّ من الأهداف الرئيسة لبعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو تصحيح الانحرافات العقدية والفكرية والنفسية عند شعوبهم، ليتحوّل الإنسان بالمبادئ التي أتى بها الأنبياء من إنسان عابثٍ لاهٍ لا قيمة له في الحياة إلى إنسان ذي قيمة صالحٍ لسيادة الكون وإعماره، بما يُحقق مبدأ الاستخلاف.

والاستخلاف في الأرض غاية إلهية، جعل الله فيها الإنسان هو المستخلف الصالح لها، والمقيم لشؤونها.

ولا صلاح للإنسان إذا لم يكن مستكملاً الشروط التي طلب الله تعالى منه أنْ يمتاز بها عن غيره من المخلوقات، ولذا فقد كان الحرص الإلهي على الإنسان غاية في الكمال والجمال بحيث يرسل سبحانه لهذا النوع الإنساني في كل فترة زمنية ما يصوّب انحرافه ويقوِّم اعوجاجه.

وقد نهج القرآن الكريم منهجاً متميّزاً عن غيره من الكتب السماوية في تصويب انحراف الإنسان وتقويم اعوجاجه، وكان هذا التميّز القرآني دافعاً لأبناء القرآن الكريم أن يستثمروا ما فيه من مبادئ ومناهج للوصول بالإنسان إلى الغاية التي يريدها الله سبحانه.

وقد جاء هذا الكتاب للباحثة "تهاني عفيف جابر "**منهج القرآن الكريم في التغيير الفرديّ**" ليسدّ ثغرة في هذا الباب، ولتفتح آفاقاً واسعة المدى لمن أراد أن يحلق بركب الناهلين من القرآن ما يساعد على استلهام المبادئ والقواعد

والأسس الناهضة بالإنسان ليتغيّر إلى الأحسن في عصر ازدحم بالمبادئ والأسس التي تنادي بالتغيير في صراعٍ على استملاك الكون لا الاستخلاف فيه.

جاء هذا الكتاب ليقول إنّ القرآن وهو منهج حياة يتحدّث عن التغيير الشامل في حياة الإنسان فكريّاً وتربويّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً ليتمّ الاستخلاف الشامل لا الاستملاك القاتل. والتغيير نحو الأفضل في الدنيا والآخرة، فإذا صلح الإنسان صلح المجتمع، وإذا صلح المجتمع ساد الأمن والأمان، وعمّ السلام، وتحققت العبودية لله وحده سبحانه، وقامت خير أمة أخرجت للناس.

هذا الكتاب جدير بالاعتناء والاهتمام، وصالح لأن يكون مقدمة لكتابات مماثلة تدعو إلى التغيير الشامل في حياة الإنسان والأمة.

وفّق الله الباحثة في مبتغاها وأعانها على حمل مسؤولية استثارة الهمم للتغيير نحو الأفضل انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

الدكتور "محمد نبيل" طاهر العمري

الجامعة الأردنية/ كلية الشريعة

قسم أصول الدين

المقدِّمَة

الحمد لله الذي أنزل القرآن للناس كافة، عربيًّا غير ذي عوج لعلهم يتقون، أو يُحْدِث لهم ذكراً، وأنزله هادياً إلى نور الهدى وسبل السلام كما قال: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٦].

وله المنّة؛ إذ قال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فالصلاة والسلام على من امتنّ الله به علينا، محمد ﷺ النبيِّ الأميِّ معلم الأمة الأمين، أرسله الله بالبيّنات والزبر وبالكتاب المنير، وأمره فقال: ﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]، فوقف عليه السلام أمام الناس، وبعد تمام هذا الدين، قبل لقاء الله، ولما ارتقى الناس في الهدْي القويم، يستشهد الناس أبَلَّغَ أمانة الله جل في علاه، فشهدوا له، فردّ مستشهداً الله على أنفسهم: "اللهم فاشهد." فرضاك اللهم على آله وصحبه، ومن شهد له، وسار على نهج القرآن الكريم، واهتدى بهدي النبيِّ ﷺ إلى يوم الدين، وبعد؛

فإن شمولية التغيير وتكامله هي أبرز سمة من سمات القرآن الكريم، ومنهج معالجته يكون باتباع منهج شموليّ متكامل، ولا يُفهم من هذا أن يُنظر إلى موضوع التغيير نظرة مطلقة لا نهاية لها؛ ذلك أن مثل هذا التعميم يؤدي إلى غياب الوضوح في المنهج القرآني لعملية التغيير.

ولا شك أن القرآن الكريم منهج حياة، وأن الحديث عن التغيير في القرآن الكريم لا بُدَّ أن يشمل كل جوانبه التربوية، والاقتصادية، والفكرية، والاجتماعية... وعزل التغيير الفردي تحت عنوان واحد خروج عن المنهج الصحيح في التعامل

مع هذا الموضوع المهم، فالتغيير عملية شاملة ومتكاملة، تبدأ من الفرد وتنتهي بارتقاء الأمة التي وصفها القرآن الكريم بالخيريَّة.

ثم إنِّ القرآن الكريم لا يضع مخططاً لكل جزئيات هذا الموضوع وتفاصيله، وإنما يحدد الأسس والمسارات العامة، ثم يترك المجال لحركة الفرد والمجتمع، كي يأخذا دورهما الطبيعي الذي يتم في ظل قوانين وسنن أودعها الله تعالى في الوجود كله، فالتأصيل ربانيّ، والتفصيل إنسانيّ، والتطبيق ميدانيّ.

لذا اقتضت الدراسة توظيف العلوم الأخرى في تحديد بعض المفاهيم والمقاصد من بعض الآيات، لعدم انشغال المفسرين فيها من جهة، ولاشتغال هذه العلوم بهذه الجوانب من جهة أخرى، ومن هذه العلوم علم النفس للبحث في مجال الآية القرآنية ﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣]، والفلسفة الإسلامية أيضاً لبحثها في دقائق الأمور المتفرّعة عن قضية التغيير الفردي على وجه الخصوص، والتغيير الإنساني عموماً، والمنبثقة عن تساؤلات الإنسان المهمة من أنا؟ ومن أوجدني؟ ولماذا وجدتُ؟ وما هو مصيري؟ وعلم البلاغة العربية الذي نزل القرآن به متحدّياً الناس، مفعّلاً العقل والفكر، مثيراً لمدارك الإحساس، مستشهداً النفس على عجزها عن الإتيان بمثله.

إنَّ التركيز على الجانب الفردي في عملية التغيير بوصفه أساس النشأة الإنسانية، وإغفال أي جانب آخر من جوانب التغيير الإنساني عموماً، يجعل الموضوع متناثر المعاني والأهداف؛ إذ جاء الموضوع في القرآن الكريم متماسكاً من حيث ملازمة كل جانب للآخر، فالفرد هو الأساس والجذر لعملية التغيير الذي يقوم عليه البناء التغييريّ، وما المجتمع إلا السقف العلوي لهذا الأساس، فلا بد لأي باحث في جانب التغيير الفردي من التطرق إلى الجوانب الأخرى، لبيان تكامل المنهج القرآني، لذا فلا بد للبحث في هذا الموضوع -التغيير الفردي- من النظر في جميع الأبعاد الإنسانية، المتعلقة بالتغيير الفردي، بوصفها تفريعات ناتجة عنه، وآثاراً مترتبة عليه.

إنَّ التدرج في عملية التغيير الذي تميّزت به الأسس القويمة التي جاء بها القرآن الكريم ينشئ واقعاً جديداً، ويجعل النقلة من ظلمات الجهل إلى نور الهداية أمراً محققاً، لترتقي الأمة الإسلامية من الحضيض، إلى العلو والرفعة المنشودة التي رسم معالمها المنهج القرآنيّ. والالتزام بهذا المنهج الرباني المنظَّم بمراحله المختلفة يجعل من عملية التغيير في الفرد، وفي الإنسانية حركة ناجحة في نهاية المطاف، لتحقيق التوازن والانسجام النفسي والفكري على جميع المستويات الفردية، والاجتماعية، والإنسانية، والعالمية، وعلى مختلف الصُّعُد الحياتية.

ثم إن هذه الدراسة جاءت لتبين ما المقصود بـ(التغيير، والمنهج، والنفس، والاستعدادات)، وتبين أهمية وجود استعدادات تهيّئ الفرد للتغيّر نحو الصراط المستقيم، وتوضح أهداف القرآن الكريم من التغيير الفرديّ، وتفصّل ارتقاء الإنسان في الدرجات التأسيسية في المنهج القرآني إلى أن يصل إلى أعلى درجات الالتزام بالمنهج القرآني، وتميز المنهج القرآني عن غيره من المناهج عندما قاد عملية التغيير، وتشرح أساليب القرآن الكريم المتبعة في التربية، والارتقاء بالفرد والمجتمع في عملية التغيير، إضافة إلى أنّ فيها محاولة للكشف عن الموانع التي تمنع من الاستجابة للمنهج القرآنيّ، وما يصد النفس عن التأثّر بالقرآن الكريم، وما يؤدي إلى عدم التوجه للالتزام به.

وتتجلى أهمية دراسة هذا الموضوع في أن هذا النوع من الدراسات المنهجية يتفق وروح العصر، ويُظهر إعجاز القرآن الكريم في شتى جوانب الحياة الإنسانية، والاجتماعية على العموم، والفرديّة على وجه الخصوص. كما تربط -أيضاً- بين سنن الله في الأنفس والآفاق بعملية التغيير التي يبدأ بها الإنسان في نفسه من خلال ارتباطها بالقرآن الكريم؛ إذ إن إبراز خصائص المنهج القرآني في التغيير، والكشف عن أساليب القرآن الكريم في تحقيق التغيير على أرض الواقع، لإيجاد الفاعلية العملية للتوجه نحو منهج الله تعالى، المتمثل في كتابه، وصحيح سنّة نبيّه عليه الصلاة والسلام.

إضافة إلى عدم الكتابة في هذا الموضوع من قبل بدراسة علمية تأصيلية، تتناوله بمختلف جوانبه وفق منهجية معتمدة في الدراسات القرآنية، واتصال الموضوع بالإنسان الذي هو مستخلف في الأرض؛ إذ بقيام هذه الوظيفة تصلح الأرض وما عليها ومن عليها، وبصلاح الإنسان يصلح الكون كله، وتعود الحياة من جديد مصبوغة بصبغة الله.

وتهدف هذه الدراسة إلى محاولة تفعيل الفهم، وتحفيز التأمل في القرآن الكريم، من خلال التعرّض لاستخلاص جوانب من منهجيّة القرآن الكريم في التغيير، وربطها بما يقوم عليه الواقع الحاليّ.

كما تشير إلى ملاءمة توجيه المنهج القرآني للنفس الإنسانية من جهة، ولقيام الحياة به على أحسن صورة من جهة أخرى، ومرونة هذا المنهج في أساليبه، وثباته في أسسه، لتحقيق التغيير الفردي بوصفه هدفاً مرحليًّا يقود عملية التغيير، حتى تبلغ الإنسانية أرقى درجات السمو والكمال الإنسانيّ، المتمثل في اتباع المنهج. وملاحظة دور القرآن في التغيير الفردي والاجتماعيّ تاريخيًّا، ومتابعة استمرارية هذا الدور وفاعليته إلى اليوم، وتوجيه الأنظار إلى أهمية توجيهات المسيرة القرآنية في مواجهة التحديات الإنسانية والإشارة إلى بعض الأسرار في آيات القرآن الكريم، والتي لها واضحُ التأثير في النفس الإنسانية عامة وفي النفس الإنسانية المستجيبة لمنهج الله على وجه الخصوص.

إنّ التطبيق الشامل للمنهج القرآني بجميع تفاصيله لا بد أن يؤتي ثماره في صبغ الحياة بالصورة الإسلامية المشرقة، وهذه الصبغة تتمثل بكون العبودية قائمة لله وحده في كل تفاصيل الحياة، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

تمهيد

صورة التغيير بين المنهج القرآني والمنهج المادي

تعددت مناهج التغيير المادية المختلفة، وسعت لإحداث موجة من النقلات النوعيّة المتنوعة، واستعملت الأساليب المادية والمعنوية المتعددة، بل وما زالت تُسْتحدث تلك الأساليب، لتحريك عجلة التغيير نحو هدف واحد، هو إقامة الحياة على عشوائية الحركة، واضطراب النفس -الفردية والجماعية- الناظرة إلى ماديات الحياة، والسعي الحثيث نحو سراب بعيد، وهذا السراب هو السعادة المرجوّة التي يظن الإنسان أنها متحققة بحصوله على ماديات الحياة، إلا أنه يفاجأ، بأنّ هذا السعي الحثيث سيتوقف وراء ذلك السراب دون الحصول عليه، مما يؤدى إلى ضياع العمر دون تحقيق غاية سامية. وقد أشار القرآن إلى هذه القضية في خواتيم سورة الكهف بقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٦].

إن لنفس الإنسان جوانب ثلاثة: معرفية، وتتحقق: بوجود العقل البشري. وسلوكية: وتكون نتاج عمل العقل البشريّ ونزعات النفس. وروحية: تشكّل الرابط بين العقل والسلوك، والباعث للحركة والحياة في الجسد. وإذا وُجدَ أيّ خلل في أيّ جانب من هذه الجوانب الثلاثة ينحرف الإنسان عن الهدف من وجوده، ويتشبث بالعبثية في الحياة، لتصبح لا قيمة لها، ولذا كان لا بد من منهج واضح لتغيير النفس نحو ما أمر الله تعالى، ليضمن سلامة كلّ الجوانب كما يريد الله تعالى لعباده.

وللتغيير -في كلّ زمان- اتجاهان اثنان، الأول: اتجاه قرآني إيمانيّ؛ وهو الذي يرتقي بالفرد، والأسرة، والجماعة، والأمة، تدريجياً إلى أعلى درجات السموّ، وهذا الاتجاه السامي هو ما نهجه القرآن للتغيير من واقع الفرد والمجتمع والأمة، وهو ما غفل عنه كثير من الناس. أما الثاني فهو اتجاه ماديّ مضطرب، يتجه بجوانب الإنسانية نحو الهبوط التدريجيّ إلى هوّة التخلف الفكري، والنفسي، والسلوكيّ. واهتمامه الأول المادة والمظهر، وله وسائله وأساليبه التي تجتمع تحت راية "فرّق تَسُدْ"؛ أي إن إيجاد فجوة بين الإنسان وتطبيق منهج القرآن الكريم هو بعينه أن يسود -أو يحكم أرض الله- أي داعٍ لغير صراط الحق القويم. وهذا المنهج هو منهج أول عاصٍ لله على وجه الأرض -إبليس- الذي سعى لأَنْ يُبعِد الإنسان عن منهج الرحمن وأمره، وبهذا يضمن انسلاخ الإنسان عن أصل فطرته الخيّرة، لينتهي هذا التفريق بين الإنسان ومنهج الله تعالى إلى التفريق بين الإنسان والإنسان، فغابت تعاليم منهج الله عن الحياة الفردية والجماعية، وغابت معها الإنسانية بين الناس، وصارت الحياة قائمة على التفريق بين الناس، إنْ اجتمعوا كانت على مصالح المادة، وإن تنازعوا كانت على مصالح المادة، حتى نسي الناس نهي الله تعالى في كتابه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، فتحيا النفوس البشرية بالشتات أفراداً وجماعات، مبعثرة الخطى، لا تفقه من الحياة سوى كيفية الحصول على المادة.

لقد غيّرت المناهج المادية المضطربة الإنسان سواء أكان فرداً أم جماعة، أسرة أم مجتمع، حتى تحول واقع الناس من ارتقاء أمة إلى انحطاط أميّة، وأقصد بها -الأميّة- الجهل بالحق، وبميزان القسط والعدل، والجهل أيضاً بالتعامل المنهجي السليم المنظِّم للحياة، فالحياة التي يحياها الناس اليوم تقوم على النظرة المادية، والعشوائية في التفكير، وكلّها قاتلة لكل قيمة معنوية. أما العشوائية في التفكير فخطيرة جداً على بناء الحضارة الإنسانية؛ إذ من أخطر نتائجها إبادة المعرفة الإنسانية التي تنهض بها الإنسانية فرداً ومجتمعاً وحضارة. أما التعامل المنهجي المستقيم، فهو التعامل من خلال أسس قويمة، مبدؤها العقيدة،

وباستخدام أساليب سليمة تزينها الأخلاق الكريمة، وكلها -الأسس والأساليب- متوجّهة نحو تحقيق هدف واحد، هو الإقبال على توحيد الله تعالى في تفاصيل حياة كل فرد ومجتمع وأمة في الجوانب كلها العِلْمِيّة، والعَمَلِيّة، والعبادية، وعدم قيام الحياة -كما هي اليوم- على أساس فصل الدين عن الحياة، ومادية النظرة، وعشوائية التفكير المؤدي إلى تخبط الإنسان في الأرض بلا هدف.

لقد تعددت الأمثلة لحملات الغزو التغييري المفروضة علينا من مناهج الغرب، وما رافقها من غزو نفسيّ وسلوكيّ، وما تضمنته من فلسفة لا تقوم على أساس قويم، فأساسها الإلحاد، والملحد نفسه لا يعرف كيف جاء.

وما يثير العَجَب أن القلوب تعلقت بهذه الحملات الفاسدة، وبُهِرَت بمظاهر ماديّة لا تسمن ولا تغني من جوع، بل وانبهرت بعض العقول بها حتى اتخذت من ذلك الغزو التغييريّ شعار التحضّر والرقيّ، فاختل ميزان الحكم في العقل، لانحرافه عن القيمة المعنويّة للحياة إلى القيمة الماديّة، فكان القوي هو صاحب المال والمركز والمنصب، والضعيف هو من افتقر إلى ذلك، مع أن الإيمان بالله تعالى يقتضي بأن يكون القانون السائد في المجتمع ما قاله أبو بكر: "أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وأن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق."[1]

لقد عاد الناس إلى جاهليّتهم التي وصفها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لملك الحبشة، وأخذ يصف صورة الحياة بين منهج المادة ومنهج القرآن، وبيّن أن دين الحق قد تميّز في إيجاد التحوّل من حياة المادة، ونقل أتباعه إلى الحياة الحقيقية التي تحمل كل معاني الحياة الفاضلة، حين قال: "كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، ويَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ

(١) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. **تاريخ الخلفاء**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: مطبعة السعادة، ط١، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ج١، ص٦٣.

نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِم، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيم، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَام،... إلخ،"[١] فجوهر الناس قبل الإسلام كان ظلمات الشرك بالله، وما ينتج عن هذا الجوهر من الظلم في تعامل الإنسان مع الإنسان حتى فُقِدت الإنسانية، وما ينتج عنه -أيضاً- من سوء استخدام مسخرات الكون في الحياة، فأصبحت الحياة ظلمات بعضها فوق بعض كما وصف الله تعالى الضالّ عن سبيله المبتعد عن منهجه: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠]، فتغيّر كل ذلك يوم جاء الإسلام بمنهجه مخرجاً الناس من الظلمات إلى النور، ومن الظلم إلى العدل، فيكون الحلال ما جعله الله بمنهج القرآن حلالاً، والحرام ما حرمه فيه أيضاً.

إنّه منهجٌ فيه "نظام، وتنظيمات اجتماعية، واقتصادية، وسياسية... ولكن الإسلام مع ذلك ليس "نظاماً" بالمعنى المفهوم في "النظام" الديمقراطي أو الشيوعي... إلخ، إنه عقيدة أولاً، ونظام منبثق من العقيدة."[٢]

لقد جاء الغزو الغربيّ فنشر الفتن، وغيّر الناس بإبعادهم عن هدف حياتهم، ليعودوا كما كانوا في الجاهلية، وأبعدهم كذلك عن أسس دينهم، وعن سلامة قلوبهم، وعن كرامة إنسانيّتهم، وعن عزّة نفوسهم، فهانوا في نظر عدوّهم، لما هانوا في نظر أنفسهم.

---

(١) الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن حنبل. **مسند الإمام أحمد**، إشراف: عبد الله عبد المحسن، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، باقي مسند الأنصار، من حديث جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ج٣، ص٢٦٦.

(٢) قطب، محمد. **دراسات قرآنية**، بيروت: دار الشروق، ط٢، ١٩٨٠م، ص٤٢٦.

وطغت المادية؛[1] لأنها قامت بكل محاولة لهدم كل بناء قائم على منهج القرآن، كان هذا تحقيقاً لقول النبيّ ﷺ: "لَيُنْقَضَنَّ الْإِسْلَامُ عُرْوَةً عُرْوَةً كَمَا يُنْقَضُ الْحَبْلُ قُوَّةً قُوَّةً،"[2] وفي رواية أخرى: "فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا... إلخ."[3] وعروتا التغيير في واقع الفرد هما:

الأولى: العلماء؛ فقد انتقضت عرى الإسلام المغيِّرة بالغاشية التي غشيت فئةً من العلماء بوصفهم أول عروة مفعّلة للتغيير نحو منهج الله تعالى، فهم الذين يملكون قدرة التغيير بقدر ملفت للنظر، فالتغيير بمنهج القرآن الكريم عملية معرفية؛ أي إنّها تقوم على تشكيل معارف صحيحة في الإنسان عن الله تعالى، وعن نفسه، وعن الحياة والكون، فهم عُروة العلم والمعرفة، وهم أول عرى التغيير في الأفراد والجماعات وأهمها وأخطرها؛ لأن نشر المعارف الصحيحة هي وظيفتهم في الحياة وتقويم سلوك أفرادها، وإقامة معاني الحياة هي مهمتهم ورسالتهم التي يحيون لأجلها، وغايتهم التي يسعون لتحقيقها، فكان نقض هذه العروة هو من سهام الغزو الغربيّ الماسة لصلب التغيير في الفرد والمجتمع. وقد أدرك عمر رضي الله عنه بفطنته خطورة نقض هذه العروة يوم أشار إلى

---

(١) انظر ما كُتِبَ عن نشأة المادية، وكيف تغيّرت نظرة الإنسان لنفسه ولمركزه في الكون، عند:
- قطب، محمد. **معركة التقاليد**، (د. م.): مكتبة الأقصى، ١٣٨٨ه، ١٩٦٨م، ص٦٣-ص٩٣.

(٢) رواه أحمد والدارمي والطبراني، وقال الأرنؤوط: "إسناده قويّ جيّد، أو حسن لغيره. وقال الحاكم في المستدرك: الإسناد كله صحيح ولم يخرجاه." انظر:
- الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، مسند الشاميين، من حديث فَيْرُوزَ الدَّيْلَمِيِّ، ج٣٦، ص٤٨٥.
- الدارمي، أبو حمد عبد الله بن عبد الرحمن ابن الفضل بن بهرام. **سنن الدارمي**، حققه: محمود أحمد عبد المحسن، بيروت: دار المعرفة، ط١، ١٤٢١ه/٢٠٠٠م، ص٦.
- الطبراني، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد. **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٤٠٥ه/١٩٨٥م، ج٨، ص٩٨.

(٣) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، مسند باقي الأنصار، حَدِيثُ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ الصُّدَيِّ بْنِ عَجْلَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ وَهْبٍ الْبَاهِلِيِّ، ج٣٦، ص٤٨٥، والعروة: ما يُستمسك به ويُعتصم من الدين، عُرَى الإسلام: أي حُدُوده وأحكامه وأوامِره ونواهيه.

أن زلة العالم تهدم الإسلام،[1] واليوم ظهر علماء الزلات، ليكون ما سبق من تحذيرات هي ذاتها الواقع الذي نحياه، ولقد سطّر قلم الرافعيّ كلمات عن هذه العروة التي إذا انتقضت تفشّى الجهل في الناس، فوقوع زلات العلماء يؤدي إلى اقتداء الناس بها، وبهذا ينتشر الزلل بين الناس بدل أن ينتشر العلم والاستقامة، وينحرف مستوى المعرفة من معرفة الحق ومنهجه إلى معرفة الباطل وسبله، يقول الرافعيّ: "... ومن تراه في ثياب المعلم يلتبس بالفشء،[2] كما يلتبس الداء بعضو حيّ، لا يدعُ أبداً أن يغمز غمزة، ويبتلي بما فيه من ضَعْفَةٍ وبلاء، فلا يصلح إلا على إفساد الحياة، ولا يقوى إلا على إضعاف القوي،... فأصبحت الحياة بلا غاية، والإنسانية بلا معنى... ثم كان من طبيعة البحث العلميّ أن يستجرّ الفاسد بالصحيح، ويخلط اليقين بالظن، ويضرب المقطوع به في المشكوك فيه، متى استقام هذا فصار عملاً، واتسق فصار نظاماً، خرج إلى تشبيه الباطل بالحق، وتلبيس الخطأ بالصواب، فيكون من العِلْم ما هو عِلْمُ وقت، وجَهْل وقتٍ بَعْدَه..."[3] وبهذا برزت خطورة نقض أول عرى التغيير التي قد تؤدي إلى تطبيق منهج القرآن الكريم ولكنه تطبيق منحرف غير سليم، أو البعد عنه أصلاً، ولربما ما يجري في زماننا هو تحقق قول رسول الله ﷺ: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا،"[4] وعلى هذا بدأ

---

(١) الدارمي، **سنن الدارمي**، مرجع سابق، ص٨٧.

(٢) وفَشَأَ المَرَضُ يَفْشَأُ فُشُوْءاً: إذا انْتَشَرَ فيهم، انظر:

- الطالقاني، ابن عباد. **المحيط في اللغة**، تحقيق: محمد عثمان، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠١٠م، م٢، ص٤٨٥.

(٣) الرافعي، مصطفى صادق. **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٩، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص١٠-١١ باختصار.

(٤) البخاري، عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة. **صحيح البخاري**، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله، رقَّم أبوابه: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، كتاب العلم، كيف يُقبَض العلم.

رؤوس الضلال بالإضلال لما رأينا كفة ميزان التغيير تنحدر إلى تغيير سلبيّ، وهذا هو الاتجاه المعاكس للارتقاء في تغيير إيجابيّ إيمانيّ قرآنيّ.

الثانية: الأسرة، إن نتاج هذه الظاهرة -علماء الزلات- في المجتمع الإسلاميّ عقول لا تحسن أن تبني فكرة، ورجالٌ ونساءٌ لا يقدرون على حمل مسؤولية أسرة، مما أدى إلى نقض البناء الأسريّ بوصفه عروة ثانية من عرى التغيير للفرد ونشأته، فالعادات والتقاليد المدسوسة، جعلت بداية الأسرة من شاب باحث عن جمال المظهر دون الجوهر، وهي النظرة الشكلية لا الجوهرية، وفتاة همّها غنى المادة دون المعنى، ومنصب الدنيا دون الخُلُق، فصار ميزان الحكم المظهر والمادة، وأخذ البناء التأسيسيّ للأسرة دون الظفر بذات الدين، أو الوقوع على صاحب الدين والخُلُقِ، ودون حساب أبعاد هذا الاختيار العشوائي وخطورته على الفرد والمجتمع، ودون النظر فيما جاء به المنهج النبويّ عند تحديد اختيار الأساس الأسريّ. وبعدها نجد الصراع بين الرجل (زوجاً وأباً)، والمرأة (زوجة وأمًّا)، ليقيم بناء الأسرة بناءً ماديًّا، وينشأ الأفراد متأثرين به، فتكون الأسرة مكان هدم للنفوس، ويكون نتاجها جيل الانحراف لا جيل الاستقامة.

إنّ مجال الأسرة بجوانبها هامّ لقيام التوازن الحياتيّ الذي يجهد الغرب في تحقيق انحرافه، والذي يبذل الغرب لتعطيل استقامته كل وُسع، فهم ينطلقون من مجتمع "كثر فيه المنحرفون والمنحرفات من الأولاد والبنات، وكثر فيه الشذوذ، ونشطت المؤتمرات "العلمية" التي تبحث عن الظاهرة الخطيرة... إن من بين الأسباب المهمة في هذا الشأن غياب سيطرة الأب في جو الأسرة نتيجة لممارسة المرأة حريتها وتطلعها الشديد إلى المساواة مع الرجل."[(١)]

ولم يكن تسلّط المرأة -كما هو معروف- ناشئاً عن عبث، إنما هو قيام الحقوق والواجبات على غير الوظائف الطبيعية التي خلقها الله تعالى لكل من الزوجين، يقول محمد قطب: "ولكننا نقول فقط إن الإسلام كُلٌّ متكامل، لا

(١) قطب، **دراسات قرآنية**، مرجع سابق، ص٤٢١-٤٢٢.

يُؤخذ منه جزء ويترك جزء، ولا يُركّز على جانب ويُهمل منه جانب آخر، فإذا كان الإسلام قد أوجب على المرأة أن تطيع زوجها؛ فإن هذا الواجب يقابله واجب آخر من جانب الرجل هو المعاشرة بالمعروف، وبهذا يتوازن الأمر، وتتوازن الحقوق والواجبات، ويكون التطبيق الصحيح للإسلام، فأما حين يستبدّ الرجل بحقه ولا يؤدي ما عليه من واجب؛ فإنه يكون فيه من الجاهلية بقدر ما يحيد عن أوامر الإسلام... خاصة من ارتدّ إلى سلوك الجاهلية في هذا الجانب وبَعُدَ عن طريق الإسلام، واستغلّ أعداء الإسلام داخله وخارجه هذا الوضع، ليثيروا قضية للمرأة... وفي النهاية يحطّمون هذا المجتمع جملة، لكي لا يبقى على وجه الأرض دين، ولا يبقى هذا الدين بالذات."[١]

وما نتاج أسرة انحرفت عن منهج الله تعالى إلا أبناء يعتزون بالإثم، بردود أفعال نفسيّة، مناقضة للفطرة السليمة، والمنطق العقليّ القويم فنشأة الوالدين هي المحددة لمسيرة الإنسان بداية الأمر، وعندها يشملهم الشعور بالبحث عن نقص يشوب حياتهم، ويتوجهون إلى سدّ فراغهم بمتابعة الوسائل الإعلاميّة الغازية، بما فيها من سُمٍّ للأفكار، ومنبع للانحلال، ودسٍّ لسوء العادات. وبمرور الزمن وتتابع الأحداث ينشأ الجيل الذي يوصف بالرقيّ، الذي يُبنى على أساس المادة والمظهر، دون قيام على الأخلاق المنبعثة من عقيدة القرآن بمعانيها وقيمها، وينشأ الفرد متغيّراً من الاستقامة إلى الانحراف، ومن سلامة النفس إلى سقمها، يخلط الحق بالباطل، والحقيقة بالزيف، فيخرج من النور الذي مُنحه بالفطرة الخيّرة إلى الظلمات التي مثّلها العصر الجاهليّ الحاليّ.

"إن الوحدة الحية التي يُقيم عليها الإسلام بناء مجتمعه هي الأسرة، والإسلام شديد الحرص على الأسر لأهداف ومعانٍ لا تخفى، ليس أقلّها تهيئة الاستجابة النظيفة لتربية النشء تهيئة إسلامية سليمة، ومن بينها كذلك تهيئة المدد البشري

(١) المرجع السابق، ص٤١٩.

الدائم لهذا المجتمع الذي يحوطه الأعداء من كل جانب... إنما يضع الله هذه التوجيهات،[1] ليُصبح كل شيء في مكانه في هذه الخلية ذات الأهمية الحيوية في بناء المجتمع، ليتكوّن منها ومن مثلها في النهاية مجتمع صالح يقوم بدور الخلافة في الأرض دون معوّق، وينطلق في عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني، ويربي في الوقت ذاته جيلاً قادماً يتابع السير في الطريق القويم."[2]

لقد طرأت الحاجة -وهي موجودة منذ نزول القرآن- إلى النظر في منهج القرآن الكريم لتغيير الفرد، والتأمّل في هذا المنهج بعناية ودقّة، ليبدأ بالناس نهضته التي بدأها يوم ربّى رجالاً كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسائر الصحابة ﷺ، ونساء كعائشة وأسماء بنتي أبي بكر رضي الله عنهن جميعاً، وكما أورد القرآن الكريم نماذج لنساء حققن مراتب الكمال الإنسانيّ كمريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون،[3] وسطّرت الكتب سيرة الرقيّ في أطهر أسرة وأزكاها، حين حملت في ثناياها قصة تعامل النبيّ ﷺ بحسن خلقه مع أزواجه، وحسن قيامه بواجباته، فقال في وصف نفسه: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ

(١) ويقصد الكاتب الآيات القرآنية في سورة النساء، ولكني اقتبستُ كلام الكاتب وقصدتُ به الآيات القرآنية كافة.

(٢) قطب، **دراسات قرآنية**، مرجع سابق، ص٤٢٠، وص٤٢٤.

(٣) كما أخبر النبيّ عنهنّ فقال: "كَملَ مِن الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكملْ مِن النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَم ابْنَة عِمْرَان وَآسِيَة امْرَأَة فِرْعَوْن وَإِنّ فَضْل عَائِشَة عَلَى النِّسَاء كَفَضْل الثريد عَلَى سَائِر الطَّعَام". انظر:

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة. **صحيح البخاري**، شرح وتحقيق: قاسم الشماعي الرفاعي، دار القلم: بيروت، (د. ت.)، باب: "وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون... وكانت من القانتين"، ج٤، ص٦٢٠، حديث رقم: ١٥٦٧.

والمتأمّل في قوله عليه الصلاة والسلام حين قال: "ولم يكمل" بإيراد لفظ (لم) التي تدخل على الفعل المضارع فتصرفه إلى المضيّ، دليل على أن هذا القول يعني أنه يكون في المستقبل من يحقق الكمال الإنسانيّ من النساء، وليس كما يظن الواهمون، فيقومون باحتقار النساء، وإلغاء قيمة أعمالهن وأخلاقهن، انظر حال المرأة والفكرة عنها في العصر الحالي، تجده مرجعاً للتخلف المعرفي في فهم الحديث، وهذا من أهم أهداف الغزو، قتل الأم التي تعدّ مدرسة البناء والتغيير عند خلخلة مكانتها، وإهدار قيمتها.

لِأَهْلِي،"[1] والقرآن الكريم يدعو إلى الاقتداء بهذا التعامل لبناء الفرد في أسرة أساسها منهج القرآن الكريم المرتقي بالفرد، والأسرة، والمجتمع. قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فالغزو الفكريّ يهدف إلى انحراف الحكم الصادر عن العقل -(ميزان الحكم العقليّ)- للفرد والمجتمع، والحكم العقلي، هو قدرة الفرد على التمييز بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، والطيب والخبيث، وهذا الانحراف العقليّ يعني: أن يتوجه الإنسان في إصدار قرارات عكسية تضمن تحقيق المصالح المادية الحياتية الموافقة للهوى، والغفلة عن الآخرة، واغترار النفس أمام مغريات الحياة الماديّة التي حذّر الله منها في كتابه،[2] مما يشكّل خطراً في بناء الأسرة التي تعدّ أساس بناء الحضارة. واجتماع أُسَرٍ على أسس المادة والمظهر، يعني قيام المجتمع بعاداته وتقاليده على الماديّة التي جاء بها الغزو الغربيّ في حملة التغيير السلبيّ المنحرف، وترى الحلّ للخلاص من ذلك كله في العودة إلى اتباع منهج القرآن الكريم لتحقيق التغيير المضادّ لما سبق، التغيير الذي يحقق التوازن بين جوانب المادة والمعنى في النفس الإنسانية، ثم يعود بعد تحقيق توازنها إلى

(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ مِنْ حَدِيثِ الثَّوْرِيِّ مَا أَقَلَّ مَنْ رَوَاهُ عَنْ الثَّوْرِيِّ." انظر:

- الترمذيّ، أبو عيسى محمد بن عيسى. **جامع الترمذي**، إشراف ومراجعة: صالح عبد العزيز، الرياض: دار السلام، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، كتاب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب فضل أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم، ص٨٧٨.

- القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد. **سنن ابن ماجه**، تحقيق: بشار معروف، بيروت: دار الجيل، ط١، ١٤١٨هـ، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، ج٣، ص٣٩٧.

(٢) تأمّل قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾ [يونس: ٧]، ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٦]، ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

بناء الحضارة -من الأسرة والمجتمع والأمة- إلى الارتقاء الإنسانيّ بخطىً ثابتة، تناسب كلّ عصر وزمان، لاتصافه بعالمية المنهج الرباني، كما أنه لا بُدّ من إيجاد سبل اليقظة السريعة التي تعيد الأمر إلى نصابه، وميزان الحكم العقليّ إلى قسطه، بولادة النفس الهادفة إلى الارتقاء الحقيقيّ بكل وسائله وأساليبه، وتكون قائمة على أسس قويمة. ويكون كذلك إنقاذ الفرد بإنشائه النشأة القرآنية السليمة، ليصار بعد ذلك إلى إنقاذ للبشرية. ولا بد من إقامة مجتمع يعكس في عاداته وتقاليده الاستقامة والأخلاق، ويذهب زبد الباطل جفاءً، ويحيق المكر السيء بأهله، ويكون نتاج محاولات الغزو والمكر الفشل، وهذه اليقظة لا بُدّ أن تكون؛ لأنها وعد من الله تعالى الذي لا يُخلف الميعاد؛ فهي النور الذي يخرج الناس إليه فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فميّزة القرآن المُعْجز هو ذاك البقاء والدوام الذي حُفِظَ به، وكذلك سيكون من ميّزة منهجه في التغيير البقاءُ والدوامُ المقرون بوعد الله بتحقيقه، والحفظ لأتباعه إلى قيام الساعة.

إن الناظر لقضية التغيير في القرآن الكريم يجدها ذاتُ شطرين، فالشطر الأول: انتقال من ظلمات إلى نور وهو ما يسمى بالتغيير الإيجابيّ المتقدم بالفرد نحو رقي الدنيا والآخرة، وهذا التغيير ورد في القرآن الكريم بمسمى (الصلاح) وما يدلل على هذا المصطلح، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦][(١)] فتوبتهم في

(١) والآيات المشيرة إلى قضية الصلاح أو الإصلاح كثيرة، يشملها موضوع التغيير الإيجابي الذي تتحقق فيه سنة الله تعالى بتغيير حال الصالح فرداً أو جماعة بإفاضة النعم عليه وتمكينه في الأرض، وعلى منوال ذلك فإن الآيات التي تشير إلى (الفساد والإفساد والمفسدين) كثيرة، وكل ما سبق يشمله أيضاً موضوع التغيير السلبي، الذي تتحقق فيه سنة الله تعالى في إزالة المفسد وتعذيبه في الدنيا جزاء إفساده، واستبداله بمن هو أصلح منه... إلى آخر ما تشير إليه آيات القرآن الكريم.

القلب وإصلاحهم يعني تغيُّرهم إلى الصواب. والشطر الثاني: هو خروجٌ من النور إلى الظلمات وهو التغيير السلبيّ الذي يصل بالإنسان إلى التهاوي[1] في دركات الشقاء في الدنيا والآخرة، ومسمّاه في القرآن الكريم (الفساد)، وما يدلل على هذا المصطلح، ومثاله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨]، وقوله: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨]، فالمفسد هو كل من لا يريد للعدل الإلهي والأوامر الربانية أن يأخذا دورهما الطبيعي في الحياة، وهذا يعني تغلّب الباطل على الحق، وهو الفساد بعَيْنه.

لقد أشارت آيات القرآن الكريم إلى مقاصد من يمكر بالإسلام وأهله بوصفه خادماً لتحقيق الفساد في الأرض، كما أشارت إلى وعد الله بتصحيح الفكر والاعتقاد، وتوجيه النظر إلى نهايته الحتميّة، وكل ذلك جاء في آيات موجزة معجزة، تصف منهج التغيير بوصفه معركة قائمة بين الحق والباطل، وسنة جارية على مدى الأزمان، تتداول الأيام بينهما. فالتغيير بمنهج القرآن الكريم هو تجارة بين الله وعباده لن تبور، وهذه التجارة زادُها التقوى، وثمرتها جنة دائمة لا تزول، ووعد الله تعالى أن تكون العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، فما هم عليه هو منهج الدين الحق الذي سيظهره الله على الدين كله، مهما كانت حملة الغزو الغربيّ شرسة، ومهما كانت أساليبهم ذات مكر وكيد، يقول بلاشير:[2]

(١) لقد عبَّرت بهذا اللفظ لما ورد في آيات القرآن الكريم من التصوير للهاوية التي بمعنى السقوط فمثلاً قوله تعالى: ﴿... وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج: ٣١]، فالتصوير القرآني يأتيك بلفظ (تهوي) الذي هو في اللغة "يدلُّ على خُلُوٍّ وسقوط... ويقال هَوَى الشَّيء يَهوي: سقط. وهاويةُ: جهنم؛ لأنَّ الكافِر يَهوِي فيها. والهاوية: كلُّ مَهْواة". انظر الأصل اللغوي (هوي) في:

- ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا. **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ، مادة (هوي).

(٢) المستشرق ريجي بلاشير: مستشرق فرنسي ولد عام ١٩٠٠م، وتوفي عام ١٩٧٣م، وقد عُرِفَ باطلاعه الواسع على اللغة العربية وآدابها، وألّف في ذلك عدداً من الكتب. انظر:

- بدوي، عبد الرحمن. **موسوعة المستشرقين**، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٣م، ص١٢٧.

"قلما وجدنا بين الكتب الدينية الشرقية كتاباً بلبل بقراءته دأبنا الفكريّ أكثر مما فعله القرآن،"[1] والله تعالى يقول في كتابه الباقي إلى يوم الدين ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الصف: ٨ - ١٣].

(١) زناتي، أنور محمود. **معجم افتراءات الغرب على الإسلام والرد عليها**، القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠٩م، ص٤٦.

مستلزمات الدراسة في موضوع منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي

أولاً: التعريف بالمنهج والتغيير في اللغة والاصطلاح

١- التعريف بالمنهج في اللغة والاصطلاح

أ- المنهج لغة:

مصدرٌ ميمِيٌّ[١] من الجذر الثلاثيِّ نَهَجَ، وقد حمل هذا المصدر في ثناياه معاني عدّة، والمِنهاج كالمنهَج يكون اسماً وصفة.[٢] "النون والهاء والجيم أصلانِ متباينان: الأوَّل: النَّهْج، الطّريق. ونَهَج لي الأمْرَ: أوضَحَه. وهو مُستقيم المَنْهج، والآخر الانقطاع. وأتانَا فلانٌ يَنْهَج، إذا أتى مبهوراً منْقَطِع النَّفس."[٣]

وعند إطلاق لفظ النهج بمعنى الطريق الذي يدل على أنه "بَيِّنٌ واضِحٌ وهو النَّهْجُ،"[٤] فعند بيان الطريق وإيضاحه يُقال نهجت الطريق، لكي يُتخذ مسلكاً، ومرجعاً عمليّاً، ويدلل هذا اللفظ -النَّهْج- على "الطريق المستقيم..."[٥] ولم يرد

---

(١) المصدر الميمي في علم الصرف يسمى كذلك لكونه مبدوءاً بميم زائدة، ومنهج من مصدر ثلاثي غير معتل لذا يكون على وزن مَفْعَل. انظر:

- الحملاوي، أحمد. **شذا العرف في فن الصرف**، بيروت: المكتبة العلمية، ط١٢، ١٩٥٧م، ص٧٣.

(٢) ابن سيده، أبو الحسن على بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي. **كتاب المخصص**، قدّم له: خليل إبراهيم جفال، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج٣، ص٣٠٧.

(٣) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج٢، ص ٥٢٨.

(٤) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ط٣، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج١٤، ص٣٠٠.

(٥) المرجع السابق، ج١٤، ص٣٠٠، بتصرف.

من هذا الجذر في القرآن الكريم إلا في موضع واحد هو كلمة "منهاج" أي الطّريقُ الواسع،[1] وذلك في قول الله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، أي: "طريقاً واضحاً في الدين تجرون عليه."[2]

وقد تبيّن من خلال المعنى اللغوي أن المنهج يقوم على الوضوح والبيان والاستقامة؛ أي أنْ يسلك الإنسان الطريق الواضح البيّن، ولا يوجد أوضح من الاستقامة، فالطريق المستقيم واضح؛ لأنه لا عوج فيه لتخفى الأشياء عن الأنظار، كما أنه هو الأفضل لقيام العمران، لذا فإن هذه الكلمة تضمّ في دلالاتها الدلالة على معنى الطريق العامر.[3]

ب- المنهج اصطلاحاً:[4]

استند العلماء في التخصصات المختلفة عند صياغة معنى المنهج في الاصطلاح إلى المعنى اللغويّ، فالمنهج في الاصطلاح هو "الطريق المؤدِّي إلى الكشف عن الحقيقة العلمية من خلال التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، بوساطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل، وتحدِّد عملياته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة،"[5] وهذا الطريق "موصل بصحيح النظر

---

(١) الفراهيدي، الخليل بن أحمد. **كتاب العين**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م، ج٤، ص٢٧٠.

(٢) الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد. **تفسير الكشاف**، شرحه وراجعه: يوسف الحمادي، القاهرة: مكتبة مصر، (د. ت.)، ج٢، ص٣٣، وقد ذكرت قول الزمخشري في معرض الحديث عن التعريف اللغوي، لأنه استند في تفسيره للآية على الأصل اللغوي ولم يزد على معناها شيئاً.

(٣) الهروي، أبو عبد الله القاسم بن سلام. **غريب الحديث**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج٢، ص٤٢.

(٤) علماً أن المعنى الاصطلاحي للمنهج يختلف حسب العلم الذي يستخدمه.

(٥) بدوي، عبد الرحمن. **مناهج البحث العلمي**، الكويت: وكالة المطبوعات، ط٣، ١٩٧٧م، ص٤-٥.

فيه إلى المطلوب، وبالمعنى العلمي: هو مجموعة الإجراءات التي ينبغي اتخاذها بترتيب معيّن لبلوغ هدف معيّن،"[1] ويمتاز هذا الطريق بانتظام المعلومات العلمية انتظاماً منهجيًّا، ليتم من خلاله الكشف عن الحقائق، وتشكيل التصورات السليمة باعتماد أسس أوّلية تقود إلى فرز القضايا وتبويبها وتحليلها، ثم استخلاص المبادئ والقوانين العامة منها.

ويعني منهج القرآن الكريم: الطريقة السويّة البيّنة المنضبطة التي اتخذها القرآن الكريم سبيلاً له، بما تضمنته -الطريقة- من أسس، وما استخدمه القرآن من وسائل وأساليب، للوصول إلى أهدافه ومقاصده.

ت- شروط منهج القرآن الكريم من خلال التعريفات الاصطلاحية:

من خلال النظر في التعريفات السابقة تبيّنَ أن كلمتي الاستقامة والبيان قد لازمتا معنى كلمة منهج؛ إذ إن المنهج لا يتحقق معناه إلا بوجودهما، فمن لم يكن له طريق مستقيم بيّن فلا نهج له، وعدم وجود هاتين الصفتين ينفي صحة التعبير بلفظ (المنهج)، وعلى هذا نعدّهما شرطين للمنهج، يقول الله تعالى في وصف القرآن الكريم بما فيه من تفاصيل منهجيّة: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦]، فالقرآن الكريم بمنهجه جامعٌ لشرطي البيان (ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ)، والاستقامة ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

- البيان:

وجود صفة البيان في المنهج مؤدٍ لتحقيق الوضوح بوصفه نتيجة له، ومعنى بَيَنَ: "يقال تبَيَّنْت الأَمر أَي تأَمَّلته وتوسَّمْتُه... والتَّبْيين التثبُّتُ في الأَمر والتَّأَني فيه... والبَيان الإفصاح مع ذكاء... أي إظهار المقصود بأَبلغ لفظٍ، وهو من الفَهْم وذكاءِ القلْب مع اللَّسَن، وأَصلُه الكَشْفُ والظهورُ."[2]

---

(١) الحفني، عبد المنعم. **المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة**، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط٣، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص٨٤٥.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة (بَيَنَ).

ويتحقق بيان القرآن الكريم بما استخدمه من أساليب لإيضاح الفكرة وإظهار الحق؛ إذ إن تفاصيل هذا المنهج لا يشوبها الغموض، فكل أمر أخذ فيه الغموض مكاناً فلا منهج له، فالغموض سبب الانحراف عن الصراط السويّ، والبيان أحد ميّزات منهج القرآن عن أي منهج آخر، والبيان في القرآن الكريم يمثل الطريق المعبد الممهد الذي يكون للسائر فيه السلامة التامة والأمان الدائم.

-الاستقامة:

الاستقامة من الأصل اللغوي (قوم)، وهو الاستواء والاعتدال[١] "وقد يأتي القيام بمعنى المحافظة والإصلاح،"[٢] يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ١٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ [فصلت: ٦] التَّوَجُّه إليه دون الآلهةِ،"[٣] وهو عكس الاعوجاج والميل.

والاستقامة تعنى الاعتدال، "فالعَدْل ما قام في النفوس أَنه مُسْتقيم،"[٤] وتأتي بمعنى القصد لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النحل: ٩]، يقول ابن منظور: "القصد: استقامة الطريق وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي على الله تبيين الطريق المستقيم، والدعاءُ إِليه بالحجج والبراهين الواضحة، وقوله: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾؛ أي ومنها طريق غير قاصد، فالطريق عندما يكون قاصداً يكون سهلاً مستقيماً."[٥] إن وجود هذه الصفات في منهج القرآن الكريم يسهل على الإنسان المعرفة بشكل منظم ومنضبط، ومرجع الأمر بعده إلى مدى اطلاع الإنسان على تفاصيل هذا المنهج، ومدى الاستجابة

---

(١) المرجع السابق، مادة (قَوَمَ).

(٢) المرجع السابق، مادة (قَوَم).

(٣) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٤) المرجع السابق، مادة (عَدَل).

(٥) انظر: المرجع السابق (قَصَدَ).

لأساليبه، والتدرج في السير وفق الأسس المتينة، فمدى الفهم ومقداره هو الذي يرسم معالم المنهج القرآني في أمر ما بذهن الإنسان، كما أن الطريق المستقيم هو أقصر السبل، ليصل الإنسان للغاية التي ينشدها.

وقول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، فقوله: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، أي: لا يحيد عن الصراط المستقيم، فالضّالُّ هو "كل حائد عن قصد السبيل، وسالك غير المنهج القويم؛ لإضلاله وجه الطريق، فلذلك سمى الله جل ذكره النصارى ضالّين، لخطئهم في الحق منهج السبيل، وأخذهم من الدين في غير الطريق المستقيم."[١]

"ومن المعلوم لدارسي علم النفس أن الشخصيّة المستقيمة -بصرف النظر عن معيار الاستقامة- يطلق عليها صفة (السويّة)"[٢] وعليه توصف الشخصية الضَّالة المبتعدة عن الاستقامة والملازمة للاعوجاج في مسيرة حياتها بأنها الشخصية المنحرفة، بصرف النظر عن مدى انحرافها. وجاء في الحديث الشريف قول النبي ﷺ: "قل آمنتُ بالله ثم اسْتَقِمْ"،[٣] فالإيمان والاستقامة عليه هو السبيل في إخراج الفرد من الظلمات إلى النور.

أمّا كلمة الطريق فقد وردت في القرآن الكريم بمعنى المنهج[٤] في عدّة مواضع منها إخبار الله تعالى عن قول الجن في وصف القرآن الكريم: ﴿قَالُواْ

---

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، قدّم له: الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق: صدقي العطار، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ج١، ص١١٥، بتصرف.

(٢) السامرائي، فاروق. والدغشي، أحمد. "الأساس الفطري في التربية الإسلامية"، **مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون**، المجلّد ٢٤، سنة ١٩٩٧م، ص٢٨٢.

(٣) النيسابوري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، صنع فهارسه: محمد بن نزار وهيثم بن نزار، بيروت: دار الأرقم، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، كتاب الإيمان باب جامع أوصاف الإسلام، حديث رقم٦٨، عن سفيان بن عبدالله الثقفي، ص٤٩.

(٤) علماً أنها وردت في غير ذلك وسياق الآية لا يعطي معنى المنهج لها.

﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، ويقول الآلوسي في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، بأن "هذا أمر بالدوام على الاستقامة ولزوم المنهج المستقيم، وهو -المنهج- الوسط بين الإفراط والتفريط، وهي-أي الاستقامة- كلمة جامعة، تشمل كل ما يتعلق بالعلم، والعمل، وسائر الأخلاق، فتشمل العقائد، والأعمال المشتركة بين النبي ﷺ وسائر المؤمنين."[١] ويقول عز وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وهذه الاستقامة في كل حال؛ ليكونوا قد اعتدلوا على طاعة الله عقداً وقولاً وفعلاً، وداموا على ذلك"[٢] على أن يكون "دواماً متراخياً ممتد الأمد،"[٣] وأن المستقيمين على منهج الله قد "جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم، والاستقامة في الدين التي هي منتهى العمل،"[٤] والاستقامة طريق صعب، وتلك الصعوبة في المداومة في الاستمرار عليها،[٥] "فليس المراد منه القول باللسان فقط؛ لأن ذلك لا يفيد الاستقامة، بل لا بد من أن يكون مقروناً باليقين التام والمعرفة الحقيقية"[٦]

---

(١) الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، م٤، ص٣٤٥.

(٢) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. **الجامع لأحكام القرآن**، بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج٢، ص٢٧٢٤.

(٣) طنطاوي، محمد سيد. **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، مراجعة: عبد الرحمن العدوي، القاهرة: دار المعارف، (د. ت.)، م١، ص٦٠٥.

(٤) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، م٩، ج١٣، ص١٧٣.

(٥) انظر:

- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي. **التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٤، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، م٨، ج٢٢، ص٨٥.

(٦) المرجع السابق، م٩، ج٢٧، ص٥٦٠.

والعمل الصالح، "فرأس المعرفة اليقينية معرفة الله تعالى."[(١)] والاستقامة موجبة "لاكتساب الأحوال التي تفيد كمال النفس في جوهرها، فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة، وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية وهي الاشتغال بتكميل الناقصين..."[(٢)] كما أن الاستقامة "لا يطيقها إلا الأكابر؛ لأنها الخروج عن المعهودات، ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق..."[(٣)] ومن خلال ما سبق نجد أن للمنهج عناصر أساسية لا بد أن تتحقق لقيامه، هي:

- الأهداف والغايات التي يتوجه النظر إليها، والتي ينضبط المنهج ليبلغها، وهي تتمحور في محاولة معرفة بعض أسرار الوجود وغايته، فمعرفة أسرار الوجود هدف مرحليّ، ومعرفة غاية الوجود هدف محوريّ.
- الأسس الضابطة، والمبادئ والقواعد، الشاملة لجميع جوانب الفرد، والأساليب المستخدمة لتسيير الفرد وفق المنهجية القرآنية المتبعة.
- استعدادات شاملة تعِدُّ الإنسان وتهيّؤه لاستقبال توجيهات المنهج، والتزام طريقه.

٢- التعريف بالتغيير في اللغة والاصطلاح

أ- التغيير لغة:

قال ابن فارس"الغين والياء والراء أصلان صحيحان؛ الأول منها يدل على إصلاح وصلاح ومنفعة، ومنها الغيرة أي الميرة؛[(٤)] لأنها من الصلاح والمنفعة،

(١) الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي. **لباب التأويل في معاني التنزيل**، ضبطه وصححه: عبد السلام محمد شاهين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج٥، ص٣٦٣.

(٢) الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، م٩، ج٢٧، ص٥٦٢.

(٣) البروسوي، إسماعيل حقي. **تفسير روح البيان**، تعليق وتصحيح: أحمد عبيد، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، م٢، ص٤٨.

(٤) والميرة: من (مير) أي جَلَب الطعام... وقد مار عيالَه وأَهلَه يَمِيرُهم مَيْراً إذا جلب لهم الطعام، والميرة هي الطعام ونحوه مما يجلب للبيع لا يُؤْخَذُ منها زكاة لأنها عَوامِل، انظر:
- ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، الأصل (مير).

والآخر على اختلاف شيئين، ومن الثانية الاستثناء (بغير)، وقولنا هذا الشيء غير ذاك أي سواه وخلافه."[1]

والتغيير من (غيَّرَ) على وزن (فعّل)،[2] وهو مصدر قياسيٌّ لفعل رباعيّ، وهذا المصدر يفيد التكثير والمُبالغة من الوجهة الصرفيّة، والفعل الخماسيّ (تغيَّر) فعل مطاوع ومصدره (تغيُّر)، يُقال غيّرت الشيء فتغيَّر[3]. ومنه قول الله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ... ﴾ [محمد: ١٥]، "والغِيَرُ من تغيَّر الحال، وهو اسم بمنزلة القِطعِ والعنَبِ وما أَشبههما...[4] ويجوز أَن يكون جمعاً واحدته غِيرَةٌ... وتغيَّر الشيءُ عن حاله تحوّل، وغَيَّرَه حَوَّله وبدّله كأنه جعله غير ما كان،"[5] فيكون التغيير إذن اختلاف الحال عما كان عليه سابقاً.

إن توجه المعاجم اللغوية إلى تفسير التغيير بالتحويل والتبديل، راجع لدلالة الكلمات الثلاث على وجود اختلاف في الشيء عن أصله، أما في الحقيقة فإن معنى كل منها مختلف عن الآخر،[6] فالتغيير لفظ جامع شامل لمصطلحي التحويل والتبديل، والاختلاف بين المصطلحات اختلاف نوعي، قال أبو حيان: "والتبديل يقع موقعه التغيير، وإن كان التغيير أعم منه،"[7] والعلاقة بين المصطلحات علاقة العموم والخصوص؛ إذ إن التغيير يحمل المعنيين." وتَغَايرتِ الأَشياء اختلفت، والمُتغَيِّر الذي يُغَيِّر على بَعيره أَداته ليخفف عنه

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، م٢، ص٣٠٧، بتصرف.

(٢) انظر في وزن فعّل:

- البغدادي، أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي. **الأصول في النحو**، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج٣، ص١١٦.

(٣) الحملاوي. **شذا العرف في فن الصرف**، مرجع سابق، ص٧١.

(٤) أي كوزن قَطَّع: قِطَعاً، عنّب: عِنَباً، وكذلك غيَّر غِيَراً.

(٥) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، الأصل (غير).

(٦) انظر: المرجع السابق، (بدل) و (حول).

(٧) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف الغرناطي. **البحر المحيط في التفسير**، عناية: عرفات حسونة، بيروت: دار الفكر، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج٤، ص٧١.

ويُريحه... ففي حديث الاستسقاء: "مَنْ يَكْفُرِ اللهَ يَلْقَ الغِيَرَ"[١] يقول ابن منظور: أَي تَغَيُّر الحال وانتقالِها من الصلاح إِلى الفساد والغِيَرُ الاسم من قولك غَيَّرْت الشيء فتغيَّر."[٢]

وللتغيير في المعنى اللغوي صورتان: أولاهما: تغيير صورة الشيء دون ذاته: يقال غيّرت داري إذا بنيتها بناء غير الذي كان.[٣] وتتناسب هذه الصورة مع التغيير الوارد في الآية الكريمة: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٩]؛ أي سيبقى الأصل وهو ذات الخلقة، والتغيير في الصورة وهو تحوّل في الخلقة مع بقاء أصلها، وثانيتهما: تبديل شيء بغيره، نحو غيّرت غلامي ودابتي إذا أبدلتهما بغيرهما.[٤]

وينبغي التفرقة بين التغيير والتغيُّر، فالتغيير هو "إحداث شيء لم يكن قبله"[٥] وهو عملية إرادية، أما التغيُّر فهو "انتقال الشيء من حالة إلى حالة

---

(١) جملة "من يكفر الله يلق الغير" جاء في قصة طويلة حوت أبياتاً شعرية في مدح النبي ﷺ، عندما دعا بنزول المطر فاستجاب الله له، فقام رجل من كنانة، وأنشد شعراً في مدح النبي ﷺ، وكانت هذه الجملة الشطر الثاني من آخر بيت إذ قال فيه:

ومن يشكر الله يلقى المزيد ومن يكفر الله يلقى الغير

فأجابه النبي ﷺ: "إن يك شاعراً يحسن فقد أحسنت"، إذن هذه الجملة ليست حديثاً، إنما هي قول رجل من بني كنانة في أحد أبيات قالها في مدح النبي ﷺ وشكر الله على سقياه لهم، انظر:

- البيهقي، أبي بكر أحمد بن الحسين. **دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، وثّق أصوله: عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص١٣٩-١٤٠.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة (غير).

(٣) السيد، عبد الحميد مصطفى. **الأفعال في القرآن الكريم؛ دراسة استقرائية للفعل في القرآن الكريم في جميع قراءاته**، عمان: دار الحامد للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٤م، ج٢، ص١٠١٤.

(٤) المرجع السابق، ج٢، ص١٠١٤.

(٥) الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحنفي. **التعريفات**، تحقيق: محمد باسل السود، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص٦٧.

أخرى"[1] والانتقال يكون غير إراديّ أحياناً، كما أن حركته متوجّهة من خارج الإنسان إلى داخله.

ب- التغيير اصطلاحاً:

التغير ضد الثبات، وهو تعبير عن حركة دائمة تكتنف المخلوقات الحيّة والكون عبر الزمان، ومن هذه المخلوقات الإنسان، وهذه الحركة عندما يختص بها الإنسان يكون لها خصوصيّة؛ إذ إنها تتعلق بالجانب المعنويّ غير الماديّ، أما المخلوقات الأخرى فالتغيير متعلق بالجانب المادي.

أما من جانب العلوم التي بحثت في هذا المصطلح، فإن للتغيير في تعريفه الاصطلاحي اختلافاً حسب العلم الذي يبحث فيه على النحو الآتي:

- التغيير عند علماء الاجتماع:

درج علماء الاجتماع على تخصيص كلمة التغيير بالتغيير الاجتماعي، واستعملوا هذا المصطلح للدلالة على "ظاهرة التحول، والنمو، والتكامل، والتكيف، والملائمة التي يتعرض لها كل نظام حضاري... ولا يوجد حكماً تقويميًّا في عدّ التغيير من الحسن إلى السيئ والعكس؛ لأن هذا المصطلح عندهم يقرر الواقع المجرد كما يكون في المجتمع، فهو يُعرَّف بالتحول الذي يقع في التنظيم الاجتماعي، سواء في تركيبه أو بنائه أو وظائفه."[2]

فالتغيير الاجتماعي عند علماء الاجتماع يكون "نتيجة لتفاعل التشكيلات الثقافية وتحوّلها، ونتيجة للتأثير التراكمي للاختراع والانتشار والنزعة التوفيقية."[3]

---

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٢) صابر، محيي الدين. **التغيير الحضاري وتنمية المجتمع**، القاهرة: مركز تنمية المجتمع، ١٩٦٢م، ص٧١، بتصرف.

(٣) شارلوت، سيمور سميث. **موسوعة علم الإنسان؛ المفاهيم والمصطلحات الأنثربولوجية**، ترجمة: علياء شكري وآخرين، مراجعة وإشراف: محمد الجوهري، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط٢، ٢٠٠٩م، ص٢٧٦.

وأما ما يتعلق بالإنسان بوصفه فرداً فهو ينحصر في التربية والتثقيف للأفراد إلى أن يتم ظهور الشخصية الفرديّة، والفرد نواة لا بد أن تظهر ثمارها على المجتمع في إصلاحه ولو بعد حين.(١)

فالتغيير في كتب علم الاجتماع إذن لم يَظهر بوصفه مختصًّا بالفرد، إنما حُصر بمصطلحات الإصلاح والتربية برؤية عابرة، ولمحة سريعة، وإشارات موجزة.

- التغيير في نظر المفسرين:

ظهر مفهوم التغيير عند المفسرين من خلال تفسير الآيات القرآنية التي وردت فيها الألفاظ الدالة على التغيير مثل: (يغيّر، يغيّروا)؛ إذ إنها وردت في القرآن الكريم بصيغة الفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار، وهذا التجدد والاستمرار يحمل معنى الحركة نحو التقدم أو التراجع، وقد ورد التغيير في ثلاث آيات: في سورة النساء، وسورة الأنفال، وسورة الرعد صراحة، ووجِدَ في باقي آيات القرآن الكريم ضمناً ومعنىً أو دلالات وإشارات.(٢)

وتوجز نظرة المفسرين للتغيير بأنها: انتقال حالة الفرد أو الجماعة من النعمة المادية إلى ضدها، إذا لم يحافظ الإنسان عليها بأداء الطاعات وشكرها.

وقد ورد لفظ التغيير في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم:

أولها: في سياق إخبار الله عن وعد الشيطان الرجيم الذي اتخذه على نفسه لإضلال الناس، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ

---

(١) أبو مصلح، عدنان. **معجم علم الاجتماع**، عمان: دار أسامة، ط١، سنة ٢٠٠٦م، ص١٣٠.

(٢) ومقصدي من قولي وجود التغيير في آيات القرآن الكريم ضمناً ومعنىً أو دلالات وإشارات، أنّ القرآن الكريم في جملته يدعو إلى التغيير، والتغيير سواء أكان للفرد أو للجماعة هو هدف بحدّ ذاته، ولما كانت كل آية في القرآن الكريم تهدف للتغيير فإنها تضمّنت معنى التغيير، فكل ما يحتويه القرآن من كلمات ودلالات وإشارات فيه ما يؤدي إلى إحداث التغيير في النفس أو في المجتمع.

ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء: ١١٩]، فمن الأقوال الواردة في تفسير هذه الآية أن المقصود تغييره هو فطرة الله التي فطر الناس عليها وهي دين الله،[1] يعني أنهم ولدوا على الإسلام، فأمرهم الشيطان بتغييره، وهو معنى قوله عليه السلام: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه."[2]

"وقيل: تغيير خلق الله هو أنَّ كل ما يوجده الله لفضيلة فاستعان الإنسان به في رذيلة فقد غيّر خلقه... وإلى هذه الجملة أشار بعض المفسرين، فقالوا: هو تغيير أحكام الله،"[3] وهذه الآية قانون في التغيير السلبيّ؛ إذ إن هذا هو منهج إبليس وقانونه الذي يلتزمه لتغيير الناس من النور إلى الظلمات، ودلل عليه قول الله تعالى: ﴿... وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وثانيها في سورتي الأنفال والرعد: فالعلاقة بين آيتي التغيير أقرب إلى التشابه، فقد جاء في سورة الرعد -وكان التغيير غير مخصص- في قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: ١١]، وهي آية تبيّن قانوناً سننيًّا عامًّا في أسلوب وروده الشرطيّ، وكذلك العموم في سياقه

---

(١) أوردت كل التفاسير هذا المعنى عند ذكر هذه الآية.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: الجنائز، بَاب: "إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ"، حديث رقم ١٢٦٦، م١، ج٢، ص٥٧٦.

(٣) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف الغرناطي. **البحر المحيط**، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي عوض، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج٣، ص٣٦٩.

كما وردت أقوال كثيرة في المقصود من التغيير، منها أن المقصود: الواشمات، والمتنمصات، والمتفلجات... إلخ، انظر:

- القرطبي. **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج١، ص٩٧٤-٩٧٥.

الذي جاء به، وفي سورة الأنفال قال الله جل شأنه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣]، حيث جاء سياق آية التغيير بين إشارتين لقصة فرعون كتمثيل في عدم الاستجابة لمنهج الله، والحق أن الآيات تحمل معنى التغيير الإيجابيّ -نحو منهج الله- والتغيير السلبيّ -ضد منهج الله-؛ إذ إن الناظر في معنى الآيتين يجد أن من كان في نعمة فعصى فقد أبدلت حاله إلى سوء، ومن كان في نعمة فحفظها بالشكر وزيادة الطاعة، فقد تمت نعمة الله عليه بدوامها وزيادتها، وعليه يكون قانون التغيير الشامل للإنسانية، سواء أكان نحو الأفضل أو الارتقاء النسبيّ، أو نحو الأسوأ أو في الهبوط النسبيّ.

وبناء على ما سبق يكون معنى منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي: طريقة القرآن الكريم المنظمة، والمنضبطة في توجيه فكر الفرد، واعتقاده، وسلوكه، إلى ما يحقق صلاح النفس التي إن صلُحتْ استقامت أحوال الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة، وما استخدمه من أساليب متنوّعة للتأثير في الفرد نفساً وسلوكاً والارتقاء به.

إن مضمون كلمة (منهج) يكشف عن الكيفية العملية المنضبطة، فكيف غيّر القرآن الناس؟ وما هي سبيله التي اتخذها لذلك؟ وإن تحقيق استقامة النفس يؤدي إلى استقامة السلوك الإنسانيّ، ويكون ذلك بإعمال كل الاستعدادات النفسيّة في الفرد، وتوجيهها الوجهة المناسبة لخلقتها، بهدف الحفاظ على استقامتها والارتقاء بها، وذلك يكون باتخاذ الإجراءات، والأساليب الدافعة لذلك والمؤثرة فيها، ووضع الأسس الثابتة التي تتنقّل النفس بين درجاتها ارتقاءً فيها، بتشكيل ميزان حكم عقليّ دقيق في حياة الفرد، لتحقيق مهمة الخلافة التي حمّلها الله تعالى للإنسان كي يعمر الأرض كما أراد الله، ويكون ذلك بجعل العبودية خالصة لله وحده. لذا فإن عملية التغيير عملية تمتاز بالاستمرارية والتكامل، لا ينفك بعضها عن بعض، من عدّة وجوه:

- التكامل بين أعضاء جسم الإنسان في عملها من بداية العملية إلى نهايتها.
- التكامل في مجالات الحياة الفردية كافة، فلا يعدّ التغيير لما في النفس كاملاً إلا إذا أدى إلى تغيير سلوكي.
- التكامل في مراحل عملية التغيير الفردية والاجتماعية والحضارية، فلا بد للتغيير الفردي من تأثيره على المجتمع، والانتهاء بقيام أمة إسلامية مصدرها الأول منهج القرآن الكريم، وصحيح سنة النبي ﷺ.

ثانياً: صورة الإنسان الفردي، وخصائصه النفسية في القرآن الكريم

١- تعريف النفس في اللغة والاصطلاح

لقد تعددت دلالات الجذر (نَفَسَ) ومعانيه في اللغة،[١] "فالنون والفاء والسين أصلٌ واحد يدلُّ على خُروج النَّسيم كيف كان، من ريح أو غيرها، وإليه يرجعُ ما تفرع عن هذا الأصل،"[٢] ويحمل هذا الأصل مَعْنى "جُمْلَةِ الشيء وحقيقته، تقول قتَل فلانٌ نَفْسَه وأَهلك نفسه أَي أَوْقَع الإِهْلاك بذاته كلِّها وحقيقتِه، والجمع من كل ذلك أَنْفُس ونُفُوس... والنَّفْس ما يكون به التمييز،"[٣] ودليله قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]، "فالنَّفْس التي تكون وفاتها في منامها هي التي تزول بزوال العقل،"[٤] فتفارقه إذا نام، فلا يَعْقِل،[٥] "فهي الجوهر الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية."[٦]

---

(١) ولم أذكر المعاني كلها، لأنها ليست مقصد الرسالة، إنما اخترت ما يخدم الفكرة.

(٢) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، م٢، ص٥٧٤.

(٣) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة (نفس).

(٤) المرجع السابق، مادة (نفس).

(٥) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٥٣٩، وقد نقل هذا القول عن الزجاج.

(٦) الجرجاني. **التعريفات**، مرجع سابق، ص٢٣٩.

أما التعريفات الاصطلاحيّة للنفس: فقد امتازت بكثرتها، وترجع هذه الكثرة لاختلاف العلوم كافة في تحديد ماهيّتها، وحقيقتها، وحالاتها، فالنفس عند علماء النفس تسمى الذات، أو يصطلحون عليها بمصطلح (نفس ذاتي)، وهي: "حالات الإنسان الجسدية والعقلية، وأفعاله وعملياته وفقاً للتجربة الانفعالية لتكامله، وهويته بالنسبة لنفسه في علاقتها بالماضي، والحاضر، والمستقبل؛ إذ تتشكل عن طريق الأنشطة والاتصالات، وعن طريق تغيير العالم المحيط أثناء نشاطه المرتبط بموضوع، وبتفاعله مع الآخرين... ويتم تقييم الذات (النفس) بوساطة الموضوع في مفهوم الذات، لتشكل نواة الشخصيّة الإنسانية."[1]

ذكر ابن سينا في كتابه أحوال النفس بحثاً مفصّلاً عن النفس في حدّها، وقواها، وعلاقتها بالبدن، ومراتبها... إلخ،[2] وتبعه الإمام الرازي في اعتبار النفس "شيئاً واحداً ليست هي البدن، وليست متعددة، وأنها هي المبصرة، والسامعة، والشامة، والذائقة، واللامسة، وهي الموصوفة بالإدراكات عينها كالتخيل، والفكر، والتذكر، وتدبير البدن وإصلاحه، وأنها شيء ليست من أجزاء البدن، وأنها موصوفة بالإدراك والتحريك، وأن القلب هو الرئيس المطلق لسائر الأعضاء، وأن النفس متعلقة به، وبوساطة ذلك التعلق تصير متعلقة بسائر الأعضاء،"[3] أما النسفي فيشير إلى أن النفس "هي الجسم المعاين دون ما فيه

---

(١) بتروفسكي، أ. ف.. وياروشفسكي، م. ح.. **معجم علم النفس المعاصر**، محرر الطبعة: سعد الفيشاوي، ترجمة: حمدي عبد الجواد وعبد السلام رضوان، القاهرة: دار العالم الجديد، ط١، ١٩٩٦م، ص٢٧٥، باختصار.

(٢) ابن سينا، أبو علي الحسين بن علي. **أحوال النفس رسالة في النفس وبقائها ومعادها**، حققها: أحمد فؤاد الأهواني، ط١، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، وقد كان منطلق ابن سينا في معرفة النفس القول: (من عرف نفسه عرف ربّه)، وله عدّة مؤلفات في النفس منها **الشفاء، ورسالة القوى النفسانية** التي ألفها للأمير نوح بن منصور.

(٣) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. **كتاب النفس والروح وشرح قواهما**، تحقيق: محمد صغير حسن المعصومي، إسلام آباد: معهد الأبحاث الإسلامية، ١٩٦٨م، ص٢٩-٣٠، وأيضاً ص٥١.

من المعنى الباطن،"[1] كما يبيّن الآلوسي أن مادة النفس هي البدن، وأن وجودها بعد وجود البدن؛ لأنه محلّها.[2]

تعدّ الأبحاث الطويلة والآراء الكثيرة في حقيقة النفس والروح من باب التفكّر المأمور به في القرآن الكريم، لا من باب الظن بوجود القدرة على الإحاطة بالنفس والعلم بحقيقتها، وإدراك ماهيّتها، لقد عَلَتْ نسبة الجهل في معرفة جوانب النفس حتى طغى المجهول على المعلوم، فالروح أحد استعدادات النفس التي وهبها الله تعالى للإنسان، وهي غير مدرَكة ولا يعلم بحقيقتها إلا الله تعالى، فكيف تُدرك علاقتها بالنفس؟

إن الجهل بالنفس البشرية دعا بعضهم لتأليف كتاب يسمى (الإنسان ذاك المجهول)،[3] أما في القرآن الكريم فقد أمر بالتفكّر في النفس، وهذا لا يعني الظن بوجود القدرة على الإحاطة بها، وإدراك ماهيتها أو كنهها، بل إن التفكّر يكون غالباً فى النظر في قضايا لا يقدر الإنسان على الإحاطة بها علماً، والدليل على ذلك يأتي من خلال التأمل في الآيات الواردة في الحث على التفكّر؛ فقد أمرت الإنسان أن يتفكّر في قضايا يستحيل عليه إدراك حقيقتها الكاملة.

إن التفكّر في النفس، يزيد من إيمان الإنسان بربه، فهو يشاهد القدرة العظيمة التي يعجز عن الإتيان بمثلها، وعجائب صنعة ربه جلّ وعلا، فآيات التفكر جاءت في القرآن الكريم في الأمور التي لن يحيط بإدراكها الإنسان، وإنما يدرك جزءاً منها، وهي:

---

(١) النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود. **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، تحقيق: يوسف بدوي، راجعه: محيي الدين ديب، بيروت: دار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج١، ص٣١٨.

(٢) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن لعظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، م٥، ص٢٨٧.

(٣) هذا الكتاب من تأليف أليكس كاريل.

- التفكر في الكون من سماء، وأرض، وكواكب، ونجوم، وبحار، وأفلاك، ومنها على سبيل المثال قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد: ٣]، فمن ذا الذي يحيط علمه بالتفاصيل الكونية المذكورة في الآيات مهما بلغ علمه ومعرفته؟ هو الله وحده، فختمت الآيات بذكر القوم المتفكّرين، فلن يعقل العجز عن إدراك تفاصيل الكون إلا من تفكّر.

- التفكر فيما ورد من قصص السابقين؛ أي التفكر فيما مضى من حوادث الزمان، وهذا مما لا يقدر الإنسان على الإحاطة به لوجوده في زمن ماضٍ لا يُعرف من ذاك الزمان إلا ما وصل إليه من أخبار، والإنسان يعجز كل العجز عن إرجاع الزمان للوراء ليعلم تفاصيل الحدث الماضي، فانظر قوله تعالى عند ورود قصة أحد الغاوين كمثلٍ يُضرب: ﴿... فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]،[1] فالقصة أحد أساليب تحفيز التفكّر، إلا أن المعرفة محدودة بما تم ذكره في الآيات الكريمة، لا تقبل التخمين والإضافة عليها، والتفكّر فيها من باب الاعتبار.

- التفكّر في كلام الله تعالى في القرآن، وهو من أحد الأمور التي لا يحيط بها الإنسان علماً؛ إنما الإحاطة بكلام الله علماً معجز للبشر إلى يوم الدين، وقال تعالى في مسألة تفكّر الإنسان بالقرآن: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، ومما لا شك فيه أن الإنسان عاجز عن الإحاطة الشاملة بمراد الله من كلامه، ولو كانت عنده القدرة على إدراكه لما عجز الأوائل عن الإتيان بمثله.

- التفكّر في النفس، فلن يستطع الإنسان أن يحيط بها علماً مهما بلغ، فقال جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ﴾ [الروم: ٨]، وبهذا فإن الإشارات القرآنية في الحث على التفكّر، يكون فيما لا يقدر الإنسان على إدراكه، ويكون التفكّر فيما

(١) في قول الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

لا يستطيع أن يحيط به علماً، إنما كامل العلم عند الله تعالى، والتفكّر فقط لزيادة اليقين والإيمان بالله والتدليل على وجوده وقدرته، هذا دليل على أن من أهم الأسس التي انتهجها القرآن الكريم للتغيير هي استمرارية شعور الإنسان بالعجز أمام القدرة الإلهية؛ فكلما زاد تفكّر الإنسان بالجوانب السابقة زاد استشعاره بالعجز أمامها،[1] وأدرك أنّ موجدها قادر عليم، وهو ذو قوة وسلطان.

وعلى ما سبق؛ فإن حدّ موضوع النفس بحدود، وتقييده بقيود، هو بمثابة بحث فيما لا يُدرك تمام الإدراك، فالبحث من باب زيادة المعرفة لا من باب الوصول إلى إحاطة بهذا الأمر المتفكّر فيه؛ لأنه لا استقرار لحال النفس كي يُعرف حدُّها، ولكن آيات القرآن الكريم تكشف أن للنفس صلة بجوانب الإنسان المادية والمعنوية، وهذه الصلة هي وجودها في موقعها المتوسط الجامع لكل متعلقاتها العقلية والروحية.

والخلاصة: أن مصطلح النفس مسمّىً يُطلق على "المركز المتوسط الذي يملك قدرة التعامل مع العمليات الحسية، والعقلية، والشعورية -القلبية- والسلوكية، والروحية، التي تترجم الخبرات، والأفعال، والعمليات العقلية للإنسان، التي يمرُّ بها خلال تفاعله مع أفكاره الداخلية، وبيئته الخارجية، والمتحكمة في الحياة الشعورية واللاشعورية بمظاهرها الداخلية والخارجية،"[2]

---

(١) انظر مبحث الأسس الجوهرية من الفصل الثاني في قضية البناء الفكري من خلال العجز الإنساني كأساس من أسس التغيير.

(٢) كاريل، أليكس. **الإنسان ذلك المجهول**، تعريب: أسعد فريد، بيروت: مكتبة المعارف، دون رقم طبعة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص١٨، ص٢١، ص٢٢١.

ويعرّف الشعور بأنه: مجموعة الوقائع النفسية، كالأفكار والصور والعواطف وأنواع الإدراك الحاضر في شعور الفرد في زمن ما. انظر:

- سالمي، عبد المجيد وآخرون. **معجم مصطلحات علم النفس**، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٤١٩/ ١٩٩٨م، ص١٤٢.

ويُعرّف اللاشعور: بأنه مجموعة المحتويات غير الحاضرة في مجال الشعور، أو هو كل المحتويات المكبوتة التي مُنعت من العبور إلى نظام ما قبل الشعور، انظر:

- المرجع السابق، ص٢٠٥.

ومن هنا جاءت أهمية تحديد التغيير بالنفس؛ لأنها الموقع الاستراتيجيّ والمتوسط لضمان تغيير كامل وشامل في الإنسان على مستوى الفرد والجماعة.

٢- التصوير القرآني للإنسان الفردي وخصائصه النفسية التي تهيّؤه للتغيير

أ- الفردية كما وردت في القرآن:

لقد قلّ ورود لفظ الفرد وما يكون من أصله في القرآن الكريم، ولما كانت "الفاء والراء والدال أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على وحْدة، من ذلك الفَرْد وهو الوَتْر،"[1] كان التعبير بالوحدانية لله تعالى في آيات الكتاب العزيز.

وموجز القول فيما يتعلق بدلالات القرآن الكريم لهذا الأصل أنّ الآيات التي جاءت صراحة فيه تشير إليه ما يأتي:

- يخلق الإنسان فرداً ويردّ يوم القيامة فرداً، وهذه الإشارة في سورة الأنعام في قوله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

- التركيز على بعث الإنسان منفرداً، وكان هذا التركيز ظاهراً في سورة مريم، وجاءت في سياق التهديد الوعيد كما في قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم: ٧٧ - ٨٠]، ثم جاء التقريع والتوبيخ لكل من أشرك بالله ما لم ينزّل به سلطاناً بالبعث المنفرد في قوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٩ - ٩٥].

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، الأصل فرد.

– جاء التعبير بالفردية في سياق مختلف تماماً عن سابقيه، وهو في سياق الرجاء والدعاء لزكريا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩].

– جاء في الدعوة والعظة من النبيّ ﷺ بالقيام لله مثنى وفرادى والتفكّر، وكانت هذه الدعوة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤].

والناظر في الآيات الكريمات التي وردت فيها الألفاظ من هذا الأصل -فرد- يجد الآتي:

إن الذين أشركوا بالله تعالى سيأتون يوم القيامة كما أخبر سبحانه "واحداً واحداً، كل واحد منكم منفرداً، بلا أهل، ولا مال، ولا ولد، ولا ناصر ممن كان يصاحبكم في الغي، ولم ينفعكم ما عبدتم من دون الله... منفردين كما خلقتم،"(١) والملاحظ للآية يجد أن هذا الأمر نوع من أنواع التعذيب، "كَمَا ذَكَّرَهُمْ بِمُشَابَهَةِ بَعْثِهِمْ وَإِعَادَتِهِمْ بِبَدْءِ خَلْقِهِمْ"(٢) مشابهة بالفردية والحالية، فحالهم يوم بعثهم كحالهم يوم خلقهم، فباعتقادهم أنهم يجدون من شركائهم ما يكون معهم في كل أحوالهم، ليدرأ عنهم العذاب، وهذا الأمر لن يتحقق لحظة الحساب، نسوا ما ذكّروا به، واندثر اعتقادهم، فكان هو ذاته عذاباً؛ لأنهم سيشعرون برهبة الأمر، وخطورة تكذيبهم، وعظم من أشركوا به يوم لا ينفعهم ذلك، "فتحضر كتب الأعمال التي كتبتها الملائكة الكرام، فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويشفق منها المجرمون، فإذا رأوها مسطرة عليهم أعمالهم، محصى عليهم أقوالهم وأفعالهم، قالوا: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً

---

(١) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. **الجامع لأحكام القرآن الكريم**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، ج٧، ص٤٣.

(٢) رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ج٧، ص ٥٢٣.

﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]،[١] فوجود الحسرة في قلوبهم هو بداية العذاب الذي ينذر بأشد العذاب، "فكمال العذاب هو أن يزول عنه كل ما كان منتفعاً به، ثم يجتمع عليه... كما أنه من أسباب كمال العذاب أيضاً أن يجتمع عليه الأسباب المؤلمة،"[٢] وتصوّر تلك الفردية صورة العذاب النفسيّ والشدّة والمحنة التي سيتحملونها منفردين، "فحاجة الإنسان إلى غيره أكثر ما تكون في الشدة والمحنة، وانظر بعدها إلى مناسبة التعبير القرآني في قوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾ دل هذا على التقاطع والتهاجر بينهم وبين شركائهم: إذ تبرأوا منهم ولم يكونوا معهم. ومقاطعتهم لهم هو تركهم وصلهم لهم، فحسن إضمار الوصل بعد "تَقَطَّعَ" لدلالة الكلام عليه،"[٣] فمن لم يفرد من يستحق الانفراد، ويوحّد من يستحق الوحدانية، ومن لم يضع الفردية لمن يستحق، يعاقب بها في وقت هو أحوج ما يكون فيه إلى غيره.

إن دعاء زكريا عليه السلام دليل على فطرة الإنسان الرافضة للوحدة والفردية الإنسانية، وأن هذه الفردية الإنسانية مما يثقل على النفس ويصعب احتماله، وفي وجود الذرية في الدنيا فطرة إنسانية تنافي الفردية، فالتعبير القرآنيّ الذي خصص لفظ (فرداً) في الآية الكريمة يصف نفسية يكمن فيها رفض الوحدة والانقطاع، وهو أمر فطريّ يدلل على أن الإنسان مخلوق اجتماعيّ لا فرديّ، وأن التعامل مع القضايا تعاملاً فردياً الأصل فيه أن يكون في خدمة الجماعة.

إن الفردية الإنسانية هي طريق لتشكيل الجماعة المنضبطة بمنهج القرآن الكريم، والمتغيّرة به من خلال التفكّر، يقول القرطبي في قوله تعالى: "﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ...﴾ [سبأ: ٤٦] ﴿مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾؛ أي وحداناً ومجتمعين. قاله

---

(١) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج١، ص ٤٧٩.

(٢) الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج٧، ص ١٥٢.

(٣) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج٧، ص٤٣.

السدي. وقيل: منفرداً برأيه ومشاوراً لغيره، وهذا قول مأثور. وقال القتبي: مناظراً مع غيره ومفكراً في نفسه، وكله متقارب. ويحتمل رابعاً أن المثنى عمل النهار والفرادى عمل الليل؛ لأنه في النهار معان وفي الليل وحيد، قاله الماوردي. وقيل: إنما قال: ﴿مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾؛ لأن الذهن حجة الله على العباد وهو العقل، فأوفرهم عقلاً أوفرهم حظاً من الله، فإذا كانوا فرادى كانت فكرة واحدة، وإذا كانوا مثنى تقابل الذهنان فتراءى من العلم لهما ما أضعف على الانفراد، والله أعلم."[(١)]

يقول سيد قطب في تفسير هذه الآية: "إنها دعوة إلى القيام لله، بعيداً عن الهوى، بعيداً عن المصلحة، بعيداً عن ملابسات الأرض، بعيداً عن الهواتف والدوافع التي تشتجر في القلب، فتبعد به عن الله، بعيداً عن التأثر بالتيارات السائدة في البيئة، والمؤثرات الشائعة في الجماعة، دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط، لا مع القضايا والدعاوى الرائجة ولا مع العبارات المطاطة، التي تبعد القلب والعقل من مواجهة الحقيقة في بساطتها، دعوة إلى منطق الفطرة الهادئ الصافي، بعيداً عن الضجيج والخلط واللبس والرؤية المضطربة والغبش الذي يحجب صفاء الحقيقة، وهي في الوقت ذاته منهج في البحث عن الحقيقة، منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشي والمؤثرات، وعلى مراقبة الله وتقواه. وهي ﴿بِوَٰحِدَةٍ ..﴾ إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق، القيام لله... لا لغرض ولا لهوى ولا لمصلحة ولا لنتيجة التجرد، الخلوص، ثم التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون. ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ...﴾ مثنى ليراجع أحدهما الآخر، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ، ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء، وفرادى مع النفس وجها لوجه في تمحيص هادئ عميق. ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبر والرزانة. وما يقول شيئا يدعو إلى التظنن بعقله ورشده. إن هو إلا القول المحكم القوي المبين."[(٢)]

---

(١) المرجع السابق، ج١٤، ص٣١١.

(٢) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، بيروت: دار الشروق، ط١٠، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، م ٢، ج٥، ص ٢٩١٤.

وكلّ ما قاله سيّد قطب يصلح التعبير عنه بأنه مسار التغيير الفردي الذي تكون بدايته من أعماق نفس الإنسان، والتي يمكننا تسميتها بمنهج البحث عن الحقيقة.

ب- خصائص الفرد النفسيّة التي تهيّئه للتغيير:

يختص الإنسان بأن له "ذاتاً ازدواجية خارجية وباطنية، فالخارجية منها المادية في جسده، تقابلها الباطنية الروحانية لفِكْره ووجدانه وروحه، وهي التي تجعل منه شخصاً يتمتع بالقدرة على التحكم والتقرير الحرّ لسلوكه،"[1] لذا فإن من الطبيعي صعوبة التفريق بين ما هو مادي وما هو روحانيّ للتَّوافق الازدواجي الذي يربطهما.

وخلق الله تعالى الإنسان خلقاً سويًّا يتحرك بفعل الإرادة المتحركة التي تتنوع فيها الأفكار والمواقف، مما يجعل مصيره مرتبطاً بإرادته،[2] لذلك جاء القرآن الكريم بالإشارات اللافتة للأنظار نحو التبصر والتفكر والبحث في النفس الإنسانية بقوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١]، لتعريف الإنسان بحقيقة نفسه، وطريقة خلقته، ليعرف الإنسان عظمة خالقه، ودقّة صنعته، ولهذا قعّد العلماء قاعدة تقول: "من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه،"[3] والمعنى:

---

(١) شوشار، يول. **دماغ الإنسان**، ترجمة: خليل سابق، بيروت: المنشورات العربية، (د. ت.)، ص١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١.

(٣) أو **"من عرف نفسه فقد عرف ربه"**، انظر:

- ابن سينا، **أحوال النفس رسالة في النفس وبقائها ومعادها**، مرجع سابق، ص٥.
- الآلوسي، **روح المعاني**، مرجع سابق، م١، ج١، ص٨٢، الغزالي.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **إحياء علوم الدين**، القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٩٩٨م، ج٤، ص١٤٣.

وقيل إنه حديث موضوع، انظر:

- العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي. **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت: المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج٢، ص٣١٢.

علماً أن الفلاسفة والعلماء المسلمين قد اتخذوا هذه العبارة قاعدة انطلقوا منها عند البحث في جوانب النفس، وقد سبقهم إلى تقعيد هذه القاعدة أرسطو بقوله: "اعرف نفسك."

"من عرف نفسه بالضعف والقصور، عرف ربه بأنه هو القادر على كل مقدور، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالفضل والعدل، ومن عرف نفسه باختلال الحال عرف ربه بالكمال والجلال،"[1] وبهذا يكون قد أقام أسس العلاقة بينه وبين ربّه من خلال معرفته لنفسه.

والخصائص النفسية للإنسان هي: المِيزات التي ينفرد الإنسان بها، ويتميز بها عن غيره، توهّله وتهيّؤه للتغيّر بمنهج القرآن الكريم.

وهذه الخصائص تشكّل استعدادات الفرد؛ إذ إن تعريف الاستعداد اصطلاحاً هو وجود إمكانية -مسبقة- للوصول إلى درجة من الكفاية أو القدرة عن طريق التدريب، سواء أكان هذا التدريب مقصوداً أم غير مقصود،[2] وهذا التعريف إنما هو استعداد الفرد السابق لعملية التغيير، وهو في علم النفس ذو دلالتين، الدلالة الأولى تعني "(الاستعداد المسبق أو التهيّؤ)، ويعَدُّ أساساً لوصف استعداد الفرد، لتقييم المواقف والعمل بما يتفق والخبرة السابقة،"[3] أما الدلالة الثانية، فهي تحمل معنى الجاهزيّة.

وبعد حصول عملية التغيير يصبح الفرد مستعدّاً وجاهزاً لما بعدها، فيكون معنى استعداده في هذه الحالة (الجاهزيّة): "وصول الكائن الحي إلى مستوى مناسب من النضج، يمكّنه من تحصيل الخبرة أو المهارة عن طريق عوامل التعلم الأخرى المؤثرة،"[4] وهذه هي الدلالة الثانية من دلالات المصطلح.

ولا بدّ من قيام شخصية الإنسان على أسس متينة تضمن له توازنه، وهذا التوازن محقِق لحسن خلافته في أرض الله تعالى بتطبيق أوامره الواردة في القرآن

---

(١) الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ص٩١.

(٢) زيدان، محمد مصطفى. **معجم المصطلحات النفسية والتربوية**، جدة: دار الشروق، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٣١٥، بتصرف.

(٣) بتروفسكي وياروشفسكي، **معجم علم النفس المعاصر**، مرجع سابق، ص٧٨.

(٤) مرجع سابق، ص٣٤٠.

الكريم والسنة النبوية، وحسن الخلافة يضمن تغيير كل ما لا يرضى الله تعالى به، بضبطه وفق التفاصيل الواردة في منهج القرآن الكريم وصحيح سنة نبيّه ﷺ.

علماً أن وصول الإنسان إلى درجات الاستعداد والجاهزيّة متفاوت ومتعدد، ويعود ذلك إلى الفروق الفردية في طبائع الناس أولاً، واختلاف مدى الاستجابة لتشريعات القرآن الكريم الراجع إلى التفاوت في همم الأفراد للتغيّر الإيجابيّ ثانياً، إلا أنه من تمام العدل الإلهي أن أوجد استعداداً عاماً يكتسب الإنسان به مقداراً من الصفات الخلُقية -مثلاً الفطرة والخِلْقة-، وفي حدود هذا الاستعداد العام، وردت التكاليف الشرعية الربانية العامة، ثم ترتقي من بعده مسؤوليات الأفراد وفق ما وُهِب كلٌ منهم من استعدادات خاصة وهمّة تتفاوت في علوّها، فوجود الاستعداد العام سبيل لتحقيق التغيير الأساسيّ وهو الجوهريّ الذي يتمثل بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، أما وجود الجاهزية المتفاوتة فهي سبيل لتفاوت درجات الارتقاء بين الأفراد، والتغيير الجوهريّ والارتقاء هما أساسان للتغيير في منهج القرآن الكريم.

وخصائص الفرد التي تجعله مهيّئاً للتغيير لها عدّة جوانب؛ جانب الفطرة، وجانب الحواس، والجانب العقلي، والجانب الروحي، والتفصيل فيها على النحو الآتي:

- الخصائص الفطرية:

وهي من أهم الاستعدادات الأولى للتغيير؛ إذ إن التغيير الإيجابيّ هو كل حركة نفسيّة يكون نتاجها الحفاظ على الفطرة سليمة من كل ما يشوبها أو يلوثها. وذكر ابن فارس أن "الفاء والطاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدلّ على فَتح شيء وإبرازه... والفطرة هي الخِلْقة،"[(١)] وفطره أي شقّه، والفطرة الابتداء والاختراع،[(٢)]

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، م٢، ص ٣٥٨.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة (فطر).

وتعني الفطرة الجِبِلَّة والطَّبْع المُتَهَيِّء لقبول الدِّين، فلو تُرك عليها لاستمرَّ على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها.[1]

والفطرة عند علماء النفس: مجموعة الخصائص الطبيعية الأولى التي يكون عليها المولود في وقت مولده، وتكون إما ظاهرة أو كامنة.[2] والفطرة السليمة: مجمل الآراء العامة غير الخاضعة للتأكيد العلمي؛[3] إذ إن هذا النوع من الاستعدادات يعدّ "استعداداً أوليًّا أو ذكاء عاماً يلزم للتعلم، واكتساب الخبرة، وتوظيف القدرات العقلية، والبدنية التي تخدم مصلحة الفرد."[4]

وجاءت المعاجم الفلسفيّة بتعريف الفطرة بأنها مقابلٌ للمكتسب، وأضافت على ما سبق من تعريفات أن الفطرة "... الاستعداد الأمثل لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل، ولا تنتقل من القوة إلى الفعل إلا بالتجلية أي بالتجربة والعمل."[5]

والفطرة "ملكة الحقائق الأولية؛ وهي المعتقدات التي تحظى بالموافقة الضمنية العامة، ومبادؤها حقائق لا تُستنبط، ولكنها واضحة بذاتها، ومستقرة في عقل الإنسان، وتفرض نفسها عليه في لغته، وتحكم سلوكه، ومنها العادات والآراء التي تكون لدى غالبية الناس، والتي يقيمون عليها ممارستهم اليومية، ويسميها بعضهم ملكة الفهم التي يتم بها إدراك المعاني، وفيها أساس كل معرفة، ومنها الفطرة الناقدة."[6]

---

(١) المرجع سابق، مادة (فطر).

(٢) سالمي، **معجم مصطلحات علم النفس**، مرجع سابق، ص١٩٠.

(٣) بينيش، هلموت. **أطلس علم النفس**، ترجمة: أنطوان إ. الهاشم، بيروت: المكتبة الشرقية، ط١، ٢٠٠٣م، ص٢٤.

(٤) الحفني، عبد المنعم. **الموسوعة النفسية؛ علم النفس في حياتنا اليومية**، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٥م، ص١٥٥.

(٥) صليبا، جميل. **المعجم الفلسفي**، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٧٣م، ج٢، ص١٥٠-١٥١.

(٦) الحفني، **المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة**، مرجع سابق، ص٥٩٧ بتصرف بسيط.

وفي علم التفسير الذي هو منطلق لما سبق من علوم تم تعريف الفطرة تعريفاً يجمع كل ما سبق، فكان قولهم على أن الفطرة هي: "الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل، التي هي معدَّة ومهيأة لأن يميِّز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدل بها على ربه، ويعرف شرائعه، ويؤمن به."(١)

أمّا ذكر الفطرة في القرآن الكريم فقد جاء على النحو الآتي:

• الإنسان موحّد بالفطرة:

إن الإنسان متديّن بفطرته، ويؤمن بالتوحيد على نحو إجماليّ كليّ لا على التفصيل؛ لأن في فطرته "ما يشهد للشريعة من إذ الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها،"(٢) ويعني أنه باحث عن تلبية حاجة في نفسه، وشعور بالضعف، فلا بد له من البحث عن إله يوجِّه إليه حاجته للتدين، وفقره وضعفه في كسب أموره وتدبيرها، وقد أشارت كثير من الآيات القرآنية إلى رجوع الإنسان إلى ربه في حاجته لوجود دافع الفطرة في داخله لتردّه إليه، يقول تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠]، وقوله أيضا في سورة الروم ذاتها: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الروم: ٣٣]، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾ [الزمر: ٨]، وكانت سبيلاً لإقامة الحجة على الناس كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ

(١) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن تمام الأندلسي. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق وتعليق: عبد الله الأنصاري وعبد العال إبراهيم، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، م١١، ص٤٥٣.

(٢) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي. **تفسير القرآن العظيم**، راجعه ونقّحه: خالد محمد محرم، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، م٢، ص٤٠٠.

رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

كما أشارت الآيات القرآنية إلى بحث إبراهيم عليه السلام عن الإله الأحق بالعبادة والتوجه؛ إذ إنه كان حكيماً في اتخاذ الأسلوب المناسب، ففي سورة الأنعام بيّنت الآيات كيف وظَّف إبراهيم عليه السلام هذه الحاجة الفطرية -أو الاستعداد- سبيلاً للدعوة إلى الله، وتوجيه الناس إلى الله الحق، فجاء بأسلوب حاول فيه أن يحكّم فطرة الناس ويردّها إلى أصلها بعد أن شابتها شوائب الشرك والانحراف، فيتنقّل بأفكار الناس ومعتقداتهم عن الإله، ليَخْلُصَ إلى أساس التوحيد الفطري والإله الحق، فيأتي بنتيجة منطقيّة مناسبة للفطرة، مجانسة للعقل، قال تعالى في ذلك: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٦ - ٧٩] إن توحيد الله تعالى متأصّلٌ في الفطرة الإنسانية، فيصف البيضاوي أولياء الطاغوت بأنهم خرجوا "من النور الذي مُنِحُوهُ بالفطرة، إلى الكفر وفساد الاستعداد، والانهماك في الشهوات،"[(١)] ويضيف الشوكاني بأن الناس "إذا انقطع رجاؤهم من الحياة وخافوا الغرق، رجعوا إلى الفطرة، فدعوا الله وحده كائنين على صورة المخلصين له الدين بصدق نياتهم،"[(٢)] إذن فالتوحيد "ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى."[(٣)]

---

(١) البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص١٥٥.

(٢) الشوكاني، **فتح القدير**، مرجع سابق، ص١٣٥٥.

(٣) قطب، **في ظلال القرآن** مرجع سابق، م٣، ج٨، ص١٣٩١.

ويقول القرطبي ناقلاً عن القشيري في معنى (عابدين) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٦]: "ولا يبعد أن يدخل فيه كل عاقل؛ لأنه من إذ الفطرة متذلل للخالق، بإذ لو تأمل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة."(١)

وقد ورد عن النبي ﷺ من الأحاديث ما يؤكد فطرة الإنسان الموحّدة الخالية من شوائب الشرك، فمنها الحديث المشهور: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة... إلخ،"(٢) وفي حديث آخر قال النبيّ ﷺ: "أَلا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا..."(٣) إلى آخر الحديث الشريف.

والخلاصة: إن التغيير الذي جاء به القرآن هو تخليص الإنسان من كل عوارض الشرك بالله تعالى، وإعادة الإنسان إلى أصل فطرته الموحّدة لله، وهو من أهم الاستعدادات الأوليّة لتهيئة الإنسان لقبول عملية التغيير نحو تطبيق ما أمر الله تعالى به في كتابه.

---

(١) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٠٧٨.

وبعد البحث لم أجده قد نقل هذا الكلام من تفسير لطائف الإشارات لعبد الكريم القشيري (ت٤٦٥هـ) أو أحد مصنفاته المتوفرة؛ إذ إنّ له مصنفاً آخر في التفسير وهو التيسير في التفسير لم أقع عليه، انظر:

- كحالة، عمر رضا. **معجم المؤلفين**، بيروت: مؤسسة الرسالة، (د. ت.)، ج٢، ص٢١٢.

كما أن هناك مؤلفاً آخر يُدعى عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري (ت٥١٤هـ) له مؤلفات منها تفسير القرآن، والموضح في فروع الفقه الشافعي، لكن لم أستطع الحصول على هذه المؤلفات لعدم توافرها، انظر:

- المرجع السابق، ج٢، ص١٣٢.

(٢) سبق تخريج الحديث الشريف في ص٤٤.

(٣) النيسابوري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها أهل الجنة وأهل النار، حديث رقم٧٣٠٩، ص١٣٦٧.

• **الخير فطرة في الإنسان:**[1]

بيّنت آيات القرآن الكريم عند حديثها عن حقيقة وجود الله تعالى وصفاته أن الله جل وعلا "كان قبل كل شيء بغير حدٍّ، وهو بعد كل شيء بغير نهاية،"[2] ومن صفات الله تعالى الحق والنور، ويتمثّل كلُّ الخير في ذاته وصفاته، وهو الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وعليه يكون وجود النور قبل الظلمات، وكذا الحق فإنه سابق للباطل، إذن فالإيمان سابق للكفر، فإذا تفكّرت فيما ورد من نصوص القرآن الكريم لوجدتها تشير إلى أنّ الملائكة وحتى إبليس كانوا مؤمنين عابدين، وبناء على ذلك يكون الخير سابقاً للشر، فبداية الشرّ كانت من لحظة عصيان إبليس لله جل وعلا. وخُلقَ آدم قبل أن تُعرف المعصية، والخير موجود بوجود الله تعالى، والله تعالى سابق لكل موجود، ولما خُلق آدم لم يكن إبليس قد عصى الله تعالى بَعْدُ، فأول شر كائن بعصيان إبليس لله، وعليه بُنيت كل الشرور في الحياة، بل كان كل شيء قبلها يسير وفق طاعة الله، وهذا دليل على أن الحياة قبل معصية إبليس كانت قائمة على عبودية كل المخلوقات لله تعالى، وهذا من أدل الأمور على أن آدم كان مفطوراً على الخير؛ لأنه لا يوجد في الحياة عند خلقه إلا الخير.

وإذا سأل سائل: فما بال الشرّ يصدر عن الإنسان لدرجة تظهر نفسه بأنها هي الشرُّ ذاته؟

---

(١) لا بد من الإشارة إلى أن هناك اختلافاً في اعتبارات الفطرة الإنسانية بين الخير والشر، فهناك من يقول إن الإنسان مفطور على اكتساب الخير والشر، وهناك من يقول إن الإنسان مفطور على الشرّ، والأغلب وهو الأصح الذين ذهبوا إلى أنه مفطور على الخير، وما سقته من حديث في هذا الصدد استدلال على مذهبهم، علماً أن كل المفسرين متفقون على أن الإنسان مفطور على الخير، ويتعاملون في تفسير الآيات القرآنية الخاصة بالإنسان على ذلك الرأي، والله تعالى أعلم.

(٢) الطبري، **جامع البيان**، مرجع سابق، م١٣، ج٢٧، ص٢٤٦، والحديث رواه البخاري في صحيحه، انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: "بدء الخلق"، باب: "ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾"، عن عمران بن حصين، م٢، ج٤، ٥٤٢.

فالجواب: إن "الشر الذي يصدر من النفس الإنسانية يكون مجرد حالة نفسية عارضة للإنسان، نظراً لتأثره بعوامل خارجية، أو لسوء استخدام قواه النفسية، فإن لم يجاهد نفسه بإعادتها لأصلها الخيّر، طغت عليه حالة الشر حتى كأن الشر أساسه، على سبيل المجاز."[1]

كما أن النبيّ ﷺ بيّن في حديث رواه الترمذي أن أصل القلب الصفاء، وأن هذا الأصل إنما يغيّره ما اقترف الإنسان من ذنب، فروى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ: "إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صقل قَلْبُهُ وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ،"[2] فهذا الحديث جاء في تفسير قول الله جل وعلا: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، فلو كان الإنسان مفطوراً على الخير والشرّ معاً لكان السواد في قلبه، ويزيد كلما اكتسب الشر، ولكان للإنسان على الله حجة إن عصى، وصفاء قلبه الذي يلوّث بالمعاصي دليل على سلامته من الشرّ، وكونه من أصلٍ خيّر.

لقد جعل الله -جل وعلا- الاستعدادات الفطرية تجهيزاً وتهيئة لهذا الإنسان، ليحمل رسالة هذا الدين، وهذا الدين المرجع الذي يَرجِع الإنسان بتمسكه به إلى أصله الخيّر، فلو خلق الإنسان مفطوراً على اكتساب الشرّ لكان ظلماً في حقه -وحاشا لله-؛ لأن الله يعلم أن هناك من الشرور ما يحيط بالإنسان، فوجود فطرة الشر فيه، وإحاطته بالشرور سبيل حتميّ لولوجه في دركات الشر

---

(١) السامرائي والدغشي، "الأساس الفطري في التربية الإسلامية"، مرجع سابق، ص٢١٨.

(٢) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة في سننهم، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، انظر:
- الترمذي، **سنن الترمذي**، مرجع سابق، كتاب: تفسير القرآن الكريم، باب: سورة المطففين، ص٧٦١.
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب. **سنن النسائي الكبرى**، تحقيق: عبد الغفار سليمان، وسيد كسروي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج٦، ص٥٠٩.
- ابن ماجة، **سنن ابن ماجة**، مرجع سابق، كتاب: الزهد، باب: ذكر الذنوب، ج٥، ص٦٣٦،
- ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، ج١٣، ص٣٣٣.

والمعصية، وكانت حجة الله تعالى على الناس أن جعل لهم الخير في فِطَرهم، ليكون أصلهم هو ذاته مرجعهم، فإذا تفلّتت النفس عن أصلها جاء التزامها بمنهج الله ليكون مرجعاً لها، "فالتزام المنهج الذي يلائم الفطرة، هو الذي يعينها على الانفلات من القيود الطارئة على الفطرة الخيرة، والتحرر من ربقة الشهوات المقيدة!"[1] لذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٤]، فالسؤال المنطقيّ: إلى ماذا يرجعون عندما تُفصّل لهم الآيات؟ والجواب أن يرجعوا إلى أصل فطرتهم السليمة التي هي مبدأ خلقهم بعدما ابتعدوا عنها بعصيانهم، فهي منشأ وجودهم، و"المعنى ولعلهم يرجعون إلى الميثاق الأول فيذكرونه ويعملون بمقتضاه،"[2] يقول أبو السعود: "فسلامة الفطرة متحققة في كل واحد، فلا بد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها."[3]

• الإنسان متعلّم بالفطرة:

إن التغيير من خلال المنهج القرآنيّ يبدأ بعملية معرفية، ومن هنا جعل الله تعالى فطرة التعلم في الإنسان، ليتناسب خلقه مع وظيفته وأمانته، فهي الوسيلة التي اتخذها القرآن الكريم لتغيير الإنسان فرداً وجماعة نحو المنهج الذي يضمن لهم السلامة والاستقامة، فالله تعالى خلق للإنسان كل المدركات التي تؤهله للتعلم؛ إذ إن التجهيزات الخلقيّة والعملية التي أودعها الله في الإنسان بدأ عملها في آدم يوم بُثّت الروح في جسده الذي تمت خلقته وفق حِكَم ربّانية، ولو لم يكن الإنسان متعلماً بفطرته لما كان مخلوقاً متميّزاً عن باقيٍ المخلوقات، فالحيوانات تتصرف بسلوكات غريزية دون تعلّم علميّ عقليّ، خالٍ من الإدراك والإرادة. أما الإنسان فإن من فطرته اكتساب الخبرات التي تنمّي قدراته الحسية

---

(١) قطب، سيد. **هذا الدين**، مكتبة وهبة، ط٤، (د. ت.)، ص٣١، بتصرف.

(٢) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، م٤، ص١٠٢.

(٣) العمادي، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمن، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ج٥، ص١٧٦. ويقصد أنَّ الحساب مترتب على مخالفتها.

الإدراكية السلوكية، وتؤهله لأخذ دوره في الحياة، ويتخذ بعدها القرارات التي تحكم سلوكه، لتكون حياة الإنسان محكومة بإرادتين: إرادة الله العالم بما ينفع الإنسان، وإرادة الإنسان الذي يتخذ قراراته، ويحدد مسلكه في الحياة، وينظّم العلاقة بين الإرادتين قانون ربّاني هو سنة إلهية في التغيير الإنسانيّ.

إن قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١]، دليل على أنّ أول عمل قام به آدم بعد خلقه هو التعلم، وأول اختبار واجهه آدم هو اختبار علميّ في إنباء الملائكة ما علمه الله إياه، وكل ذلك دليل على أن فطرة التعلم هي أول فطرة عمليّة تمّ تفعيلها في الجنس البشريّ منذ بداية الخلق، وبما أن عملية التغيير في الفرد تكون عملية معرفية تقوم في أساسها على تعلّم المعارف، واكتشاف المجهول، كانت فطرة التعلّم في الإنسان من أحد الاستعدادات الفطرية التي تهيّؤه للتغيير والارتقاء الإنسانيّ.

كما أن وجود التعلّم مغروس بالفطرة، ويعني ذلك أن الإنسان يزداد في الخبرات والمعارف مع مضيّ الزمان، وزيادة الخبرات والمعارف، يعني التقدم في المسيرة الحياتية؛ لأنها تفرض عليه اتخاذ إجراء جديد أنسب لقيام مصالحه في الحياة، والتقدم هو ذاته التغيير والتجديد في الحياة، إذن فإن الإنسان بفطرته متوجه إلى تغيير معارفه عن نفسه وربه والناس وكل ما في الكون.

ومن وجهة أخرى فإن نقيض العلم هو الجهل، وإن الجهل كفيل لأن يوصل الإنسان إلى الكفر بالله تعالى، وإنكار وجوده، أو الإعراض عن أمره مهما وجدت الدلائل، وأثبتت البراهين لزوم التوجه إلى منهجه، وقد بيّن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١]، فيكون الجهل الحائل بين الإنسان وأصله الموحّد لله تعالى "بتضييع رأس ماله، وهو الفطرة الأصلية، والعقل السليم، والاستعداد القريب الحاصل من مشاهدة الرسول، واستماع

الوحي وغير ذلك من آثار الرحمة،"[1] فوجود فطرة التعلم تكفل وجود آلية ترجع بالإنسان إلى أصله المفطور عليه، وهذا من رحمة الله تعالى بالإنسان، ومن تمام قيام الحجة عليه بأن جعل له من الخير الداخليّ -الفطرة- والخارجيّ -المنهج- ما يكفل له حسن الاختيار لنيل حسن الجزاء، لذلك فإن التغيير الفردي في القرآن الكريم، وكذا الجماعيّ قائم على أصول معرفيّة تغذي معارف الإنسان عن الله، والكون، ونفسه، والحياة، حتى يميّز من خلال هذه التغذية المعرفية بين الحق والباطل، وعندها يعدّ التغيير الفكري منطلقاً للتغيير السلوكي للإنسان فرداً ومجتمعاً، وناهضاً بالإنسان إلى قمم التغيير الارتقائي.

إن اجتماع الاستعدادات الفطرية يكفل وجود تهيئة فطرية لهذا الإنسان ليحمل رسالة هذا الدين، كما جاء في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ومعنى حملها؛ أي: "كلَّفها وألزمها أو صار مستعداً لها بالفطرة."[2] وإن الاستقامة هي الرجوع إلى الأصل المستقيم، كي يعود الإنسان إليه بعد مفارقته من خلال تعلم تفاصيل منهج القرآن الكريم، وبه يتحقق التغيير بالتوجه العملي للسير في طريق القرآن، "والذي يكفر بالله -الذي تؤمن به الفطرة في أعماقها بوصفها حركة ذاتية منها، واتجاه طبيعي فيها...- تكون فطرته قد بلغت من الفساد والتعطل والخراب الحد الذي لا يُرجى معه هدى، ولا يرتقب بعده مآب"[3] لذلك جاء في الآية الكريمة:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦]، يقول سيد قطب: "وحين تستقيم النفس مع فطرتها، وحين تلبي حاجاتها وأشواقها، وحين تطلق طاقاتها للعمل والبناء، فإنها تجري مع الحياة في يسر وطواعية؛ وتمضي مع خط الفطرة الصاعد، إلى القمة السامقة؛ وهي تجد الأنس، والاسترواح،

(١) العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٦١.

(٢) الشوكاني، **فتح القدير**، مرجع سابق، ص١٤٢٦.

(٣) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، م٢، ج٥، ص٧٧٨.

والطمأنينة، والثقة في خط سيرها الطويل،"[1] وفي وصولها إلى تلك القمم السامقة تحقيق لأعلى مراتب الالتزام بمنهج القرآن الكريم، للوصول إلى مراتب من الكمال الإنسانيّ النسبيّ في الإيمان والعمل الصالح.

- الخصائص الحسية (السمع والبصر):[2]

وهي المستقبلات التي تصل ما بين العالم الخارجي للإنسان والعالم الداخلي له؛ أي هي المداخل الموصلة للنفس المراد تغييرها؛ إذ تنقل الحقائق والوقائع من الحياة الخارجية للإنسان لترسم الحياة الداخلية له، فهي حلقة الوصل بين ما يكون حول الإنسان وما يجري داخله، والنافذة المطلة إلى خارج الفرد.

ويقوم هذا الجانب من الاستعدادات على "أجهزة مزوّدة بأنظمة متخصصة لجمع المعلومات التي تمكّن من التقاط المعطيات بإذ يتم تخطيط السلوك،"[3] ويتلقى منها المدركات، ويكيّف وجوده حسب الأخبار التي تصل إليه من العالم الخارجي،[4] والمستقبلات الحسية الخارجية للإنسان المتعلقة بعملية التغيير والمختصة بنقل تفاصيل الوقائع الخارجية هما (السمع والبصر)، وهاتان الحاستان تتخذان وظيفة نقل المنبهات المعرفية؛ أي هما نافذتا المعارف.

والسمع والبصر من الاستعدادات الخلْقِيَّة الأولى "للتلقي، والاستجابة والمعرفة والاختبار،"[5] يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ٢]، وهما "حاستا الإدراك والتأمل المشكّلتان

---

(١) قطب، **كتاب هذا الدين**، مرجع سابق، ص٢٩.

(٢) وقد سمّاها علماء النفس المستقبلات الخارجية.

(٣) المنصور، غسان. "المنهج العلمي في السلوك الإنساني من منظور علم النفس"، رسالة ماجستير في علم النفس، ٢٠٠٢م، إشراف: على منصور، جامعة دمشق، ص١٧.

(٤) جلبي، خالص. **الطب محراب الإيمان**، بيروت: دار النفائس، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ج٢، ص٢٠٢.

(٥) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، م ٦، ج٢٩، ص٣٧٨٠.

لاستعداد الإنسان للقبول والرفض،"[1] ففي الآية الكريمة إشارة إلى أنهما نعمة الله تعالى على الإنسان، بأن جعل له سمعاً يسمع به، وبصراً يبصر به رأفة من الله تعالى وحجة على الإنسان؛[2] "لأنه يسمع بحاسة السمع الهدى والأدلة السمعيّة، ويُبصر بالبصر الهدى والآيات الآفاقية والأنفسيّة،"[3] فَذِكْر السمع والبصر في الآية القرآنية السابقة "كناية عن التمييز والفهم، فهما آلتاهما، وهما أشرف الحواس تُدرَك بهما أعظم المدركات؛"[4] لأنها اللتان تعينان الإنسان على التعلم والتكيّف مع الكون والحياة، وكذا هما أداة البحث عما يوصله إلى توحيد الله؛ لأنهما كفيلتان بإدخال المعلومات التي على أساسها تنبني المقدمات العقلية. فالحواس تأتي بالمعلومات، ولكن لا تتم قراءتها ببساطة من خلال ما يصل من رسائل، فقراءتها تسمى عملية الإدراك، ويمكن تقسيم الإدراك إلى أنواع بحسب عمل كل جهاز من الأجهزة الإدراكية؛ أي إن هناك إدراكاً بصريّاً وسمعيّاً وحركيّاً وحسّياً... إلخ.[5]

أما الانتباه فهو عمل أولي من أعمال حواس الاستقبال، يعمل على إيجاد قدرة الفرد للتكيف الذي يقوده إلى المعرفة العميقة للشيء المنبه إليه، فالمعرفة عادة تتضمن الانتباه للأشياء والحوادث، وحين يُنَبَّه إليها الفرد تصبح أوضح وأميز في الشعور؛ إذ إن التنبه للشيء يكسبه حافزاً أشد للعمل،[6] فهذه مرحلة أولى من مراحل المعرفة، والمرحلة الثانية عملية عقلية إدراكية.

---

(١) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، ضبطه وصححه وخرج أحاديثه: محمد عبد العزيز الخالدي، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت.)، ص١٨٠٤.

(٢) الطبري، **جامع البيان**، مرجع سابق، م١٢، ص٣٥٦، بتصرف.

(٣) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مرجع سابق**، م١٠، ص١٦٩ بتصرف.

(٤) أبو حيان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، مرجع سابق، ج١٠، ٣٥٩.

(٥) وكذا لباقي أجهزة الإدراك اللمسيّة والشميّة والذوقيّة. انظر:

- المنصور، "المنهج العلمي في السلوك الإنساني من منظور علم النفس"، مرجع سابق، ص١٨.

(٦) لذا كان من أساليب القرآن الكريم استخدام أدوات التنبيه وألفاظه في بعض الآيات الكريمة، سيكون له إشارات في فصل أساليب التغيير، إن شاء الله تعالى.

وقد اعتنى القرآن الكريم بتوجيه هاتين الحاستين؛ لما لهما من سبيل على النفس في إيراد ما يحرك النفس ويوجّهها، فنجده يأمر المؤمنين والمؤمنات بغض البصر مثلاً، لئلا تميل نفوسهم إلى ما حرم الله، فيقول جل وعلا: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ... ﴾ [النور: ٣٠ - ٣١]، كما جاء في القرآن ما يدل على أن السمع هو وسيلة الاستجابة فيقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وتعطيل السمع والبصر هو سبيل الضلال عن الحق، والولوج في الظلمات؛ لأن هذا التعطيل يعمي النفس عن الصواب، ويولّد الغفلة التي إن وجدت في النفس طغت ونسيت أصلها ومآلها، لقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [النحل: ١٠٨].

- الخصائص العقلية:

أصل تكوّن العقل أو التعقّل عمل كل استعدادات الإنسان كلها بطريقتها السليمة، فالعقل له ثلاثة معانٍ:

"الأول: غريزة يعرف بها الإنسان ما ينفعه وما يضرّه، ويتم بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يُقذف في القلب به يستعدّ لإدراك الأشياء. والثاني: الفهم والبيان. والثالث: هو البصيرة والمعرفة بقدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة،"[١] فهذه قوة تنتهي بصاحبها أن يعرف "عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمّي صاحبها عاقلاً من حيث إن إقدامه وإحجامه، بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة."[٢]

جاء في المفردات للراغب الأصفهاني: "العَقْل يقال للقوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة عَقْلٌ، ولهذا قال أمير

---

(١) المحاسبي، الحارث بن أسد. **العقل وفهم القرآن**، تحقيق: حسين القوتلي، بيروت: دار الكندي ودار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص١٥٤-١٥٥.

(٢) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، مرجع سابق، ج١، ص١١٥.

المؤمنين ﷺ: رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع، ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع... العَقْل: الإمساك والاستمساك،"[1] فإنه إنما قصد بالعقل المطبوع الذي يشترك فيه الناس بنفس المقدار بوصف الإنسان مخلوقاً عاقلاً، وكلّ موضع رفع فيه التّكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إليه، أما العقل المسموع فهو ما تمايز به الناس فكان أكثرهم توازناً في التعامل أكثرهم تعقّلاً، وهذا العقل هو المعنيّ بقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وكلّ موضع ذمّ الله فيه الكفّار بعدم العقل فإشارة إلى هذا الجانب أيضاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١].[2]

والتعقّل -في علم النفس- نوع من التفكير المنطقيّ، وهو "عنصر في حركة الفكر نحو الحقيقة... وهذا يضفي على التعقل طبيعة روحيّة معيّنة ذاتية الحركة، ويصاحب ذلك نظام صارم من التصنيف والحكم والاتجاه إلى تبسيط الفكر وتخطيطه، ويسمح بتصنيف صحيح للأحداث وتنظيم للمعرفة."[3] واعتقد الناس منذ القدم أن التعقل صادر عن الدماغ، وأن الدماغ هو مجرد آلة، إلا أن الأبحاث المتعلقة به تظهره بوصفه عضواً نامياً "دائم التغيّر التطويري، معقّد الخلايا، حيٌّ متفاعل مع المؤثرات داخلية كانت أم خارجية..."[4]

ويؤكد المتخصصون أن كثيراً من عمل الدماغ ما زال مجهولاً رغم التقدم الذي وصل إليه العلم، ولكن هناك مؤثرات تزيد من القدرة على الإفادة من هذا العضو، وتفعيله للوصول إلى قمة الرقي الإنساني بجميع الجوانب الحياتية؛ إذ إن له الدور الأول في التأثير على الصحة النفسية للإنسان من خلال عملياته

---

(١) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل. **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داودى، دمشق وبيروت: دار القلم والدار الشامية، ١٤١٢هـ، ص٥٧٧-٥٧٨.

(٢) انظر: المرجع السابق، الصفحات نفسها.

(٣) بتروفسكي وياروشفسكي، **معجم علم النفس المعاصر**، مرجع سابق، ص٢٦٠.

(٤) كاربر، جين. **المخ المعجزة**، الرياض: مكتبة جرير، ط١، ٢٠٠٢م، ص٥، ص٦، ص٩ بتصرف.

الجارية فيه، وقد أدرك المفسرون أهمية هذا العضو في نقلة الإنسان وتغيّره، فقسم الرازي القدرات العقلية إلى: "الإدراك، والشعور، والتصور، والحفظ، والتذكر، والذكر، والمعرفة، والفهم، والفقه، والعقل، والدراية، والحكمة، واليقين، والذهن، والفكر، والحدس، والذكاء، والفطنة، والخاطرة، والوهم، والخيال، والبديهة، والأوليات، والروية، والكياسة، والخبرة، والرأي، والفراسة بنوعيها،"[١] وبيّن أنها قدرات خلقت في الإنسان، لتؤهله للخلافة في الأرض.

أما العقل فهو في حقيقته عملية نفسية متجددة من حيث عملها، تكون نتاج التفكير المنضبط والمستمر، وانظر إلى الأصل اللغوي (عقل) الذي ورد بصيغة الفعل في القرآن الكريم (يعقلون، يعقلها، تعقلون، عقلوه، يعقلها، نعقل) وغالبها بالفعل المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار، وهذا الأمر فيه دلالة على أن العقل ما هو إلا عملية متجددة ومستمرّة، وتأمّل حينما ترى العاقل فإنك تدرك أنه بمقدار تفعيله للجانب العقليّ في نفسه يكون له القدرة على التعامل المنضبط في الحياة، ويكون له أيضاً الإدراك الخاص لتفاصيل المنهج الحق، ويكون له كذلك التمييز الخاص بين الصواب وضدّه، وبالمقابل فإنه مقدار إهمال الجانب العقلي في النفس ينحدر الإنسان ويتخلّف، فالعقل ليس ذاتاً ثابتة، وإذا أطلق وصف العقل لإنسان ما، فإن له دلالة على اتزان سلوكه الناشيء عن كثرة التفكير المسبق قبل القيام بسلوكه الفعليّ، فهو منهجي في تعامله مع الوقائع والأحداث والأشخاص، أو بمعنى آخر هو ذو قدرة خاصة على التعامل مع كل ما يواجهه.

ومن الخصائص العقلية التي خصّ الله تعالى بها الإنسان كي يتم التغيير:

- **التفكير:**

إن معاجم اللغة العربية تُرجع مادة (فكر)[٢] إلى ترداد لقضية ما، والترداد يعني تكرار توارد أمر ما في الذهن فهو إذن لا يغيب، بل يبقى حاضراً لا يغفل

---

(١) الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج١، ص٤٢٠- ٤٢٤.

(٢) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، م٢، ص٣٢٨.

الإنسان عنه، وهذا الحضور يجعل الإنسان يحسب حساباً لهذا الأمر؛ لأن توارده بهذا الشكل يعني أهميّته بالنسبة له، حتى يتم اتخاذ القرار المناسب لهذا الشاغل، ويخزّن في الذاكرة كل متعلقات هذا الأمر.

إن ضرورة التفكير لقيام عملية التغيير تكمن في "ضرورته لاختبار الواقع، ويبدأ قبل المنطق، ويتطوّر إلى ما هو منطقيّ بحسب الأحداث النفسيّة، ويقوم على التمييز بين ما كان من أفكار ذاتية، وما هو صورة للعالم الخارجي، ويتعاون في إيجاد العملية التفكيرية الشعورية وكذا في اللاشعور؛ إذ إن منطقة اللاشعور تحتوي على صور للأشياء وصور للموضوعات من صنع المدركات الحسيّة البصريّة والسمعيّة وغيرها،"[1] فالتفكير: "عمليّة من عمليات المعرفة التي يعتمد على الإدراك والتذكر في اتخاذ القرار، فمادة التفكير تحتاج إلى نتاج ملاحظات سابقة، لذا فإنها تستدعي عمليات التذكر؛"[2] إذ إنها -عملية التفكير- من وظائف (الأنا)؛[3] لأنها تتعطّل عند انشغال هذه المنطقة -الأنا- بالصراعات المختلفة،

---

(١) الحفني، عبد المنعم. **المعجم الموسوعي للتحليل النفسي**، القاهرة: مكتبة مدبولي، (د. ت.)، ص٦٥، وأعني بكلمة (وغيرها) الحواس الأخرى اللمس والشم والذوق.

(٢) برنهارت. **علم النفس في حياتنا اليومية**، ترجمة: إبراهيم عبد الله محيي، بغداد: مكتبة أسعد، ط٤، ١٩٨٤م، ص٢٥٠.

(٣) والأنا تنقسم إلى قسمين، الأول: الأنا أو (الهو - الهى)، وهي بؤرة من الغرائز العمياء، سواء الجنسية أم العدوانية، تتجه نحو الإشباع الفوري بغض النظر عن علاقة الشخص بالواقع الخارجي، مع وجود الإدراك للمعلومات عن الواقع الخارجي وحالة الجسد، وتُحفظ المعلومات في الذاكرة، وهدف هذا القسم هو الحفاظ على الذات، أما القسم الثاني فهو ما يسمى بـ(الأنا العليا): وهي المعايير الأخلاقية والمحظورات والمشجعات التي استوعبها الفرد بشكل غير واع في الغالب في مجرى التعليم، وتفصح عن نفسها على شكل (ضمير)، وقد تسبب مشاعر الخوف عند تعارضها مع الأنا السابقة الذكر، وأيضاً عند تعارض الأنا -غير العليا- مع الواقع الخارجي؛ إذ ينتج عن ذلك إجهاد ينقذ الفرد نفسه منه عن طريق آليات دفاعيّة، كالقمع، والتهرب، والتبرير، والنكوص... إلخ، حيث إن لها أثراً في البواعث المكبوتة في اللاشعور. انظر:

- بتروفسكي وياروشفسكي، **معجم علم النفس المعاصر**، مرجع سابق، ص١٠٢.

كما أن التفكير قد يكون بالصور، وقد يكون بالألفاظ واللغة؛[1] إذ إن الأصل في التفكير أن يكون متميِّزا "بالقدرة على استخدام المجردات والتعميمات، والإمساك بالأساسيات والصفات المشتركة بهدف الحفاظ على الجوانب المختلفة للموقف في الذهن، ثم الانتقال من جانب إلى آخر في التنبّؤ والتخطيط للوصول إلى الاستنتاجات."[2]

وإن تعطيل عملية التفكير ينتج عن التعامل العبثيّ مع الحياة، وهذه العبثية ناتجة عن عدم اتخاذ أهداف يوجّه الفرد نفسه لتحقيقها، أو أن تكون أهداف هذا الفرد لا قيمة لها من الأمور المادية التي لا تعين الإنسان على التقدم الحياتي في الدارين، فهو تعطيل لوظيفة التفكير من حيث ارتباطها بالدين، فلا تفكير في جانب الدين إنما حُصِرَ التفكير في جانب الدنيا فقط وأُهمِل في جانب الدين فيفقد الفرد التوازن النفسيّ في التعامل المنضبط مع الحياة، أو أن يكون الفرد مُعْملاً تفكيره في الدين والدنيا إلا أنه لا يربط ذلك بقضاياه الحياتية، أو يحيا دون تنظيم لأفكاره فيحيا باضطراب، أو أن يعمل عمله دون أن يقوم على أسس يبني عليها استنتاج العقل وتحليلاته للقضايا والأحداث، واتخاذ القرار السلوكي والعملي المناسب للمواقف، كل ذلك يعني استهلاك العقل الإنساني في ما لا طائل منه، ولا فائدة تُرجى، ولا قيمة حقيقيّة تُجْنى، فهذه العملية أصل في تشكيل الإدراك السليم للمحيط الخارجي من مدركات سمعيّة وبصريّة، لذلك ركّز القرآن الكريم على هذه العملية بضبطها، وتوجيه عملها، وإيراد الأساليب المتنوّعة لاستمرار عملها، لتكون عمليّة مستمرّة في أدق الأشياء وأصغر الأمور.[3] وتردد فكر ما في الذهن يعني تغذية الخبرات في الإنسان؛ لأنه لو لم يفكّر فيما تعرّض له من مواقف فإنه لن يستطيع اتخاذ قرار مناسب إن تكرر الحدث نفسه معه، أو إن وجد ما يناسبه من قرار تم اتخاذه سابقاً في أمر آخر مشابه.

---

(١) الحفني، **المعجم الموسوعي للتحليل النفسي**، مرجع سابق، ص١٦٦ بتصرف.

(٢) جابر، **معجم علم النفس والطب النفسي**، مرجع سابق، ج١، ص١٤.

(٣) انظر الفصل الثاني في الأساس الفكري.

• **عمليات التصوّر والخيال والذكاء:**

يعتمد التصوّر في الدرجة الأولى على قدرة استحضار الصور بأنواعها الحسيّة أو العقليّة؛ لكي تتم عملية الاستجابة لها، وهذا الاسترجاع هو عمل الذاكرة في الإنسان التي تصل الماضي بالحاضر، فالذاكرة مركز أساسي للخبرات التي يمر بها الإنسان خلال فترة حياته؛ لأنها -الذاكرة- الشعور بالماضي، "وتتضمن الذاكرة بصورة عامة عمليات هي: الاستقبال، والمعالجة، والتعرف، والتخزين (الاحتفاظ)، والاسترجاع، والنسيان،"[(١)] وكل ما يؤثر في التذكر والاحتفاظ هو نفسه الذي يؤثر في التحصيل والاكتساب.

إذن إن التصور هو درجة الانتقال من الحواس إلى الفكر؛ إذ إنها تلي الإحساس مباشرة، وعودتها إلى الشعور بعد الإحساس بها، والتصور هو القدرة على استحضار الصور الحسية بأنواعها أو العقلية أو المجردة والاستجابة لها،[(٢)] وباستحضارها يأتي دور الذاكرة، ومن هنا يظهر الرابط بين التصور والذاكرة، "إذ إنها تنضم إلى الإحساسات الحاضرة فتزيدها وضوحاً."[(٣)]

والتصور هو "عملية أوّلية لبدء عملية أخرى أكثر عمقاً وتعقيداً وشمولاً منها، وهذه العملية تسمى عملية التخيّل، وهو: رسم صورة رمزية وصولاً إلى تكوين وتأليف جديد مغاير للأصل، ومن هنا يظهر ارتباطه بالإدراك والإحساس والتذكر؛ إذ إنه رجوع الصورة النفسية إلى ساحة الشعور، معتمداً على التصوّر الذي هو بقاء الإحساس في النفس بعد غياب المؤثر -ذكرى الإحساس-."[(٤)]

ومن الملاحظ أن من أهم الأمور التي جاء القرآن الكريم لتغييرها هي التصور المنحرف الناتج عن الفكر السقيم، فقد حرص القرآن على تغيير تصوّر

---

(١) صليبيا، جميل. **علم النفس**، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٢م، ص٣٤١، بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩٦ - ٤١٢.

(٣) المرجع السابق، ص٣٤٦.

(٤) المرجع السابق، ص٤٣٣ - ٤٣٤، بتصرف.

الناس عن الذات الإلهية، والملائكة والرسل، والبعث والنشور، والقضاء والقدر، وغيّر تصوّره عن الإنسان والكون والحياة، وهذا التغيير كان من أهم الأسس التي جاء بها القرآن الكريم في التغيير الفرديّ؛ إذ بهذا التصور يقوم البناء العقدي في النفس المتغيّرة، كما وضع قوانين في الحياة وسنناً؛ ليحسب الإنسان نتائج أفعاله.[1]

أما الذاكرة، فإن للتكرار والتأكيد على أهمّيتها في القرآن الكريم دور هامٌّ في تخصيص هذا الاستعداد بالاهتمام، فقد أشار القرآن الكريم في كثير من آياته إلى عملية التذكّر، ووصفها بأنها دلالة على العقل السليم،[2] فقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، فالذاكرة تؤدي إلى تثبيت الخبر، والمساهمة الفاعلة في البناء المنهجي السليم، لذا نجد القرآن الكريم يستخدم التوكيد بهدف تأكيد قضيّة ما؛ كي يحفظ الإنسان ما تم التأكيد عليه، ويغرسه في الذاكرة، ويقيه هذا الحفظ من النسيان المؤدي إلى الغفلة ومثال على ذلك، الآيات التي جاءت في تأكيد على عداوة الشيطان، كي تبقى حاضرة في الذهن لا يطويها النسيان، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

كما أن العلم لم يتوصل حتى الآن إلى تحديد مكان معيّن مسؤول عن عملية التذكّر بشكل مباشر، إلا أن هناك إشارات توجه الأنظار إلى وجود السجلات والحوادث الدائمة بوصفها أليافاً عصبيّة متشعّبة متلاحقة وبوصفها آثاراً على جزيئات البروتينات التي تتوالد في الخلايا، كما أنه يصعب القضاء على الذاكرة مهما فقد الإنسان من أجزاء الدماغ حسب التجارب التي أجريت،[3] فأمر الذاكرة ما زال حتى الوقت الحالي مجهول المكان والكيفيّة، فتارة يُقال إن مركز الذاكرة في الدماغ، وتارة أخرى يُقال إن في القلب موقعاً بينها يُعنى بالتذكر، وتارة أخرى

---

(١) انظر: الفصل الثاني من هذا الكتاب، أسس التغيير الجوهريّة.

(٢) الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، مرجع سابق، ج٣، ص١١٣.

(٣) فايفر، جون. **العقل البشري**، ترجمة: م. عيسى، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥م، ص١٣١ و١٣٣.

يقال إن في الأعصاب نفسها قدرة على التذكر، والجمع بينها كلها ممكن عقلاً، لكن ينقصه أن يؤيّد بالتجارب العلميّة.

أما التخيّل فإن لبلاغة القرآن فيه مجالاً، وهي مشكّلة لإبداعه في النظر، والتأمّل، والتدبّر، وقد اتخذه القرآن سبيلاً لتغيير الفرد من خلال أساليبه،[1] فاستخدم أساليب التمثيل، والتشبيه، والاستعارة، والحذف، للتعريف بقضاياه والتذكير بها، والتأكيد عليها، باستخدام هذا الاستعداد وتوجيهه نحو المعرفة التي تؤدي إلى سلامة النفس الإنسانية التي جاء الآيات بالحث على تغييرها في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]؛ لأن الخيال نوع من التصوّر المبدع الذي يشير إلى التجربة الذاتية في استخدام هذا الاستعداد، وتقوم على تنظيم المعلومات الموجودة لدى الإنسان في تركيب جديد، ولا بد لقيامه أن يبصر الإنسان ويسمع ويحصل على الانطباعات ويحفظها في ذاكرته، ويؤثر فيها خبرة الفرد والانطباعات المتنوعة، لكي تتطوّر إمكاناته في تركيب الصور.[2]

ومن الاستعدادات الهامة ما يُسمى بالذكاء، "فهو نوع من التفكير المنطقي، يُنتج معرفة عميقة وأكثر عمومية من التعقل،"[3] وهو "محصلة لمجموعة من القدرات والقوى النفسية؛ كالإحساس، والإدراك، والإرادة، والانفعال، والهيجان، والعاطفة، والتذكر، والتصوّر، والتخيّل،"[4] وهو طريقة في العمل الفكري، وصفة يوصف بها التفكير الذي يُنتج السلوك المتغيّر المناسب للموقف، وهو أحد وظائف النفس المطالبة بالتغيير، كما أن العوامل الاجتماعية لها دور هام في إثارة هذه القدرة وصقلها وتنميتها.

---

(١) انظر: فصل أساليب القرآن الكريم في التغيير الفردي.

(٢) فايفر، **العقل البشري**، مرجع سابق، ص١٣١و ١٣٣.

(٣) بتروفسكي وياروشفسكي، **معجم علم النفس المعاصر**، مرجع سابق، ص٢١٦.

(٤) زريق، معروف. **الأذكياء**، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص١٣.

- **عملية الإدراك:**

ورد معنى (الإدراك) في القرآن الكريم صراحة مقصوداً به العملية العقلية، وذلك في موضع واحد ينفي به قدرة الإنسان على إدراك الله سبحانه وتعالى، ويثبت هذه القدرة مطلقاً لله تعالى في قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. والإدراك هو "عملية عقلية معرفيّة يتم فيها ترجمة المدخلات الحسيّة عديمة المعنى، بمشاركة العمليات العقلية المعرفية، وغير المعرفية إلى مدركات ذات معنى ودلالة؛"[(١)] إذ إن الفرد عندما ينتبه "إلى منبه حسي، تستدعي خبرته السابقة معلومات ترتبط بالوضع الحاضر، وبهذا يضفي على المنبه معنى، وتدرك المنبهات على أنها أشياء أو حوادث ذات معنى أو أهمية عملية."[(٢)]

وتتفاوت أقوال المفسرين في تعريف الإدراك، فيعرّف الرازي هذه القوة الإنسانية بوصفها بلوغاً للمراد، بأنها "تلك القوة العاقلة الواصلة إلى ماهية المعقول عند تحصيلها تلك الماهية."[(٣)] أما الآلوسي فينظر إلى الإدراك من جانب التواصل بينه وبين الحواس والدماغ فيقول إن "أصل الإحساس الإدراك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة،"[(٤)] وينتهي "إدراك الشيء بالوقوف على كنه الشيء، والإحاطة به،"[(٥)] وهذا النوع الأول من أنواع الإدراك.

---

(١) بني يونس، محمد. **مبادئ علم النفس**، ط١، عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، ص١٣٣-١٥٠.

(٢) برنهارت، **علم النفس في حياتنا العملية**، مرجع سابق، ص١٩٨بتصرف.

(٣) الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج١، ص٤٢٠ بتصرّف،

ويعرّف الإدراك بقوله: "كما أن الإدراك هو البلوغ" انظر:

- الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، م٦، ج١٦، ص١٠٩.

ويقول أيضاً موضحاً لتعريف الإدراك: "ويقال: أدرك فلان فلاناً، وأدرك الغلام أي بلغ الحلم، وأدركت الثمرة أي نضجت. فثبت أن الإدراك هو الوصول إلى الشيء،" انظر:

- االرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، م٦، ج١٦، ص١٠٠.

(٤) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، م٢، ص١٦٧.

(٥) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود. **معالم التنزيل**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج٢، ص٩٩.

وعملية الإدراك عملية متداخلة غالباً؛ إذ يدرك الفرد أكثر من شيء بأكثر من حاسة في لحظة واحدة؛ إذ يكوّن ما يسمى بتداخل وتمازج الإحساس، والعمليات السمعيّة والبصرية، ,هي أساس عملية الإدراك في أغلب الأوقات،[1] علماً أن "الإدراك مهارة فكرية بالأساس؛ أي أكبر بكثير من مجرد السمع والبصر، فلا يمكن الثقة في المدركات الأولية دون الاستعانة بالتفكير، ولا يمكن اتخاذ أفضل القرارات وإيجاد أفضل الحلول دون التفكير الإدراكي."[2] كما أنّ "أساس عملية الإدراك الحسي إضفاء معنى على الحقائق الحسيّة التي ينبّه إليها، معتمداً هذا المعنى على الخبرة والملاحظة العقليّة، ويعتمد من جهة أخرى على الإجابة اللغوية؛"[3] إذ إن العقل الإنساني يمنح الأشياء المعاني، ويضيف معلومات سابقة غير الحقائق الحسية المدركة، إلا أن الحقيقة الكاملة عن عملية الإدراك ما زالت مجهولة فلم تظهر تفاصيل عملها بدقة.

فبالإدراك البصري يدرك الإنسان ما حوله مما في هذا الكون من خلق، ناظراً ومتأمِّلا، منطلق الفكر في أفق الخلق، باحثاً مستدلاً على وجود خالق عظيم مسبِّبا لهذا الإبداع الدقيق القويم، ليكون الإنسان من أقوم ما خلق، ومن أجلّ ما أحسن وأبدع، وعندها يدرك أن "العجز عن درك الإدراك إدراك،"[4] فعندما يعجز الإدراك عن إدراك هذا الصانع المبدع، فإنه يدرك أن هذا الخالق المبدع هو الأصل الذي لا بد من التوجه إليه، والتغيّر كما يريد ويأمر.

---

(١) إلا أن هناك قسماً آخر من الإدراك وهو الإدراك بالحاجات العضوية، وهذا غير الإدراكات المعرفية التي تؤدي للتغيير، إنما هي إدراكات طبيعيّة يشترك فيها كل كائن حي، وتحتاج إلى تنظيم إشباعها من خلال المخزون المعرفي، وعدم تنظيمها يكون بمنع الفرد من التفاعل بالمنهج القرآني.

(٢) ماكوي، تشارلزدبليو. **لماذا لم أفكر في هذا من قبل؟**، الرياض: مكتبة جرير، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٧.

(٣) برنهارت، **علم النفس في حياتنا اليومية**، مرجع سابق، ص٢١٢.

(٤) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، مرجع سابق، م٧، ص١٩٣؛ إذ أشار إلى أن هذا قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ولا بد من الإشارة إلى أهمية إدراك اللغة، فقد استخدمها القرآن الكريم وسيلة لإيصال البيان القرآنيّ للناس على اختلاف أجناسهم، ولقد عجز أصحاب البلاغة والفصاحة عن الإتيان بمثل لغة القرآن؛ لأنهم عجزوا عن إدراك مكامن إبداعها، وحدود معانيها، ودقة دلالاتها. وإن البناء اللغوي يتطور كلما تقدم عمر الإنسان، وكثرت خبرته، ولا يمكن تعلم اللغة ما لم تكن قائمة على فهم معانيها، "فيقوم المخ عند إنتاج اللغة بإدماج الأنظمة الصوتية، والدلالية، والتركيبية معاً حتى يصبح لدى الفرد تيار مستمر من الكلام عند إرادة التحدث، وعند سماع الكلام، ولفهم اللغة وإدراكها يقوم المخ بتحليل عناصر اللغة التي يسمعها، حتى يستخلص منها الرسالة التي تحتويها،"[1] وتظهر الفروقات الفردية في فهم اللغة في الدماغ عندما يقدّم فروضاً حول السياق والمعنى العام، الأمر الذي يساعد على تفسير كثير من المدخلات باختلاف الأفهام بين كل فرد، فيكون كلا الرأيين المختلفين في قول معيّن دقيقاً في الطرح؛ إذ قد يتم تفسير المدخلات في كل فرد من خلال المستويات العليا للمخ تفسيراً مختلفاً.[2]

• **القلب:**

وأصل لفظ القلب في اللغة من (قَلَبَ) التي تحمل أصلين في اللغة، "أحدهما يدلّ على خالِص شَيءٍ وشَريفِه، والآخَرُ على رَدِّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهة،"[3] وفي محاولة للربط بين المعنيين وقضية التغيير، يكون المعنى الأول الذي يدلل على خاص شيء وشريفه يدلل على الفطرة السليمة في الإنسان التي لم تشبها شائبة، ودلل صاحب كتاب العين على ذلك عندما قال: "وجئتك بهذا الأمر قَلْباً أي محضاً لا يشوبه شيء."[4] أما المعنى الثاني في أن القلب هو

---

(١) تمبل، كرستين. **المخ البشري مدخل إلى دراسة السيكولوجيا والسلوك**، ترجمة: عاطف أحمد، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٢م، ص٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص٨٩.

(٣) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، م٢، ص٣٦٦.

(٤) الفراهيدي، **كتاب العين**، مرجع سابق، حرف القاف، باب القاف واللام والباء معهما.

رَدِّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهة فهو التغيير عمليًّا عن هذا الأصل المحض السليم، وهذا التقلّب هو من ميزات القلب الذي إذا تقلّب تغيّر الإنسان عن وجهته إلى وجهة أخرى بتفكيره وسلوكه وإحساسه وروحه... إلخ؛ أي تغيّرت نفسه وفق تقلب القلب، لذلك "كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ... إلخ،"[1] كما جاءت الإشارة القرآنية إلى الدعاء بعدم الزيغ عن الهدى في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، فالزيغ هو الميل،[2] وبضمان عدم الميل الذي هو أول درجات التقلب ضُمن عدم التقلب من الأصل.

والناظر في آيات القرآن الكريم يجد أنها لمّا جاءت بالإشارات إلى الإيمان والكفر والهدى والضلال وجّهت النظر إلى القلب وخصّته بالذكر كونه مقرٌّ للإيمان والكفر، وموجّه للسلوك الإنساني إلى الهدي أو إلى الضلال على النحو التالي:

ارتبطت الإشارة للقلب بعملية التذكر عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

ارتبطت الإشارة للقلب بالسلوك في قوله تعالى في وصف موقف المجرمين من القرآن الكريم: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ١٢].

ارتبطت الإشارة إلى القلب في سياق الحديث عن الشعور الانفعاليّ كالرأفة والرحمة كما في قوله تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً...﴾ [الحديد: ٢٧]، وكذلك هو موضع الشعور بالخوف كما في قوله تعالى:

---

(١) رواه الترمذي في سننه، وقال: "وَفِي الْبَاب عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ وَأُمِّ سَلَمَةَ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو وَعَائِشَةَ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَهَكَذَا رَوَى غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ أَنَسٍ وَرَوَى بَعْضُهُمْ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَحَدِيثُ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ أَنَسٍ أَصَحُّ." انظر:

- الترمذي، **سنن الترمذي**، مرجع سابق، كتاب القدر عن رسول الله ﷺ، بَاب مَا جَاءَ أَنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْ الرَّحْمَنِ، والحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، الأصل (زيغ).

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وكذلك كثرت الأقوال في حقيقة القلب الإدراكية على غير نتيجة مستقرّة، وهذا يرجع إلى عدم إدراك العلاقة العملية بين العقل والقلب؛ إذ إن بينهما تواصلاً يستقر نتاجه في النفس من حيث المعرفة والتوجيه لها، فالإنسان يجد نفسه أحياناً سائراً مع ما يمليه عليه قلبه من إحساس بشيء ما، ويتخذ ردود أفعال خارجة عن إرادته عند مختلف المشاعر من خوف أو حزن أو فرح... إلخ، وكما أشارت الآيات إلى أن القلب يفكّر، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]،[1] هذا التفكير القلبيّ هو نتاج الارتباط بين القلب والعمليات الجارية في الدماغ؛ إذ إن التفكير عملية متكاملة بين المراكز الدماغية، وللارتباط الوثيق بين الدماغ والقلب يطلق القرآن على القلب بأنه هو يفكّر ويفقه ويعقل،[2] فالإنسان عندما يتخذ قراراً

---

(١) وهذا دليل على أن تعطيل كل الاستعدادات هو المانع من التغيير إلى منهج الله تعالى، وهو محقق للغفلة التي نهى عنها القرآن الكريم، فالغفلة هي سبب الهلاك في الآخرة.

(٢) يقول القرطبي في تفسير الآية ١٧٩ من سورة الأعراف أن معنى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾؛ أي "بمنزلة من لا يفقه، لأنهم لا ينتفعون بها، ولا يعقلون ثواباً ولا يخافون عقاباً" انظر:
- القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، تفسير سورة الأعراف آية ١٧٧.
ويقول البغوي في معنى فقه القلب: "أي لا يعلمون بها الخير والهدى" انظر:
- البغوي، **معالم التنزيل**، مرجع سابق، ج٢، ص١٨٢.
ويشير الآلوسي بأن الذين لا يفقهوه في قلوبهم، بأنهم لا يفقهون الأسرار، انظر:
- الآلوسي، **روح المعاني**، مرجع سابق، م٤، ج٥، ص١٢١.

ويقول أبو حيان في أنهم: "لمَّا كانوا لا يتدبرون شيئاً من الآيات، ولا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا يسمعونها سماع تفكر، جُعِلُوا كأنهم فقدوا الفقه بالقلوب، والإبصار بالعيون، والسماع بالآذان، وليس المراد نفي هذه الإدراكات عن هذه الحواس، وإنما المراد نفي الانتفاع بها فيما طلب منهم من الإيمان". انظر:
- أبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، مرجع سابق، تفسير الآية ١٧١ من سورة الأعراف.

مخالفاً لما يمليه عليه قلبه يكون سلوكه خارجاً عن إرادته، أما إذا اتخذ قراراً يتوافق فيه ما ينتج عن تفكيره وما يستشعره قلبه فيكون ما يقوم به من سلوك هو بكامل إرادته، فالإرادة هي التوافق التام بين نتاج التفكير وإحساس القلب؛ إذ يكون السلوك الناتج نابعاً عن الرغبة التامّة التي لا يوجد لها مخالف في نفس الإنسان؛ لأن وجود خلاف بينهما مسبب للتردد والحيرة في النفس، ويؤدي أيضاً إلى صدور سلوكات مضطربة غير مستقرّة، كما أن الإنسان الذي يمتاز سلوكه بالخطأ غالباً ما يعاني من وجود هذا الخلاف.

كما أنّ نتاج العمليات العقلية يستقرّ قناعة في القلب، ويقيناً فيه، ومن ذلك قول إبراهيم لربّه جل وعلا عندما طلب منه أن يريه كيف يحيى الموتى معللاً سبب هذا الطلب بأن ما سيدركه بعقله سيستقرّ في قلبه، ليزيد إيماناً ويقيناً فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ... ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

إن التعامل التبادليّ والتواصل المنظم بين القلب والعمليات الجارية في الدماغ له دوره في إحداث التغيير في نفس الإنسان، فهو كفيل بإيجاد العقلية المؤدية إلى التوازن النفسي الناتج عن الانسجام بينهما وتوافقهما، فبمقدار التواصل المنظم والمنضبط، والانسجام بينهما، والاتفاق الكامن في تواصلهما يكون تحقيق التوازن النفسي؛ إذ إن توجيههما لأمر واحد، وهدف واحد ومنهج واحد يعنى الانسجام التبادليّ بينهما دون نزاع هوى أو شهوة، فالهوى محله القلب، وإذا وافق مبادئ منهج الله التي عقلها الإنسان، وصار هواه تبعاً لهذا المنهج، انتهت ثورة الانفصام بينهما،(١) وانتفت مسافة الانفصال في عملهما.(٢)

(١) وهذه الثورة هي الجهاد النفسي، فإذا انتصرت المدخلات (تعاليم منهج القرآن) التي أقرّ الاقتناع بها باستعدادات الإنسان كافة، كانت الغلبة للاستقامة على سبيل الهدى، وتوجه هوى القلب لها بقدر الجهد المبذول، وإذا كانت الغلبة لهوى القلب المتوجه نحو الشهوة الدنيوية كان السبيل سبيل الضلال في الدنيا.

(٢) وقد أشار الغزالي إلى العلاقة بين العقل والقلب في عنوان بيان حقيقة العقل، انظر:

- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، مرجع سابق، ج١، ص١١٥.

• **اختصاص الإنسان بالانسجام الروحي مع القرآن:**

إن البحث في تفاصيل الروح ضربٌ من العبث، وهذا القول ليس قراراً بشريًّا، إنما هو تقرير ربّانيٌّ جاءت به الآية الكريمة في سورة الإسراء عندما توجّهت العقول نحو البحث عن حقيقتها، فأكّدت الآية الكريمة نفي القدرة الإنسانية والعلم البشريّ من الوصول إلى إدراك ماهيّتها، فقال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٥]، فهذه الآية هي إثبات أن الإنسان الذي علّمه الله تعالى ما لم يعلّم الملائكة، قاصر العلم أيضاً مع تفوقه على الخلق كافة فيما آتاه الله تعالى من قليل العلم؛ لأن العلم المطلق لله وحده، وهذه الروح لا تُعرف ماهيّتها؛ لأن في محاولة إدراك ماهيّتها إدراك لما لا يُدرك، فالله تعالى نفخ في الإنسان من روحه لقوله تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩]، ولأن الإنسان لن يستطيع إدراك ماهيّة محدِثها وموجدها، فمن أحد الأمور التي تؤكد على نفي القدرة على إدراكها هو عدم إدراك ماهية موجدها، إنما إدراك وجوده مع تنزيهه.

إلا أنه في مقام الحديث عن منهج القرآن في التغيير الفردي، لا بد من أن يُوجُّه النظر إلى وجود استعدادات روحية، وهي من جوانب استعدادات النفس البشرية للتغيير، والجانب الذي سيُشار إليه هو علاقة الروح بالقرآن من خلال عرض القرآن للفظ الروح، فالقرآن روح من عند الله كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢]، وفي نظرة جامعة بين هذه الآية وبيان الله تعالى بأن روح الإنسان هي من روح الله تعالى في قوله: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩] يعني وجود اعتبارات عدّة:

إن هناك ارتباطاً روحيّاً خفيّاً بين روحين من عند الله تعالى، وهناك علاقة واضحة بين روحي الإنسان والقرآن عند النظر والتأمل في كلمة الروح، من جهة أن القرآن والإنسان كليهما لا يمكن أن يُدرك سرّهما.

إن الروح هي الجانب المعنوي من الإنسان، فعندما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ يعني الجانب الماديّ الذي كان من صنعه جل وعلا، وعندما قال جل شأنه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ عُني الجانب المعنويّ المكمّل للجانب الماديّ المتقَن، وبهذا استحقّ الإنسان كمال الصنعة التي أتقنها جلّ وعلا؛ لأنه امتاز بأنه سوّاه ونفخ فيه ولم يقل له كن فكان.

إن الروح سرّ انبعاث الطاقة الحركية في الجسد، وإن فيها ما يجعل جريان الحياة بكل دقيقة في الإنسان؛ إذ كان آدم جسداً لا حركة فيه حتى انبعثت فيه الروح، وعليه فإن الروح لها جانبان: جانب باعث للحركة، وجانب باعث للحياة. وهناك فرق بينهما، فالحركة قد تكون بلا حياة، وهي عملية يشترك بها الإنسان والحيوان والكواكب والآلات، فبالنسبة للإنسان هي سلوك قد يحمل معنى، وهذا المعنى قد يكون له قيمة، وقد لا يكون له قيمة، وما يحدد هذه القيمة هو المنهج الذي يسلكه الإنسان، ويكون السلوك ذا قيمة بقدر وجود التكامل العلمي بين ماديّة الإنسان ومعنويّته، ولا يكون الإنسان ذا قيمة معنويّة إلا باتخاذه سبيلاً يعطيه تكريماً وميّزة خاصّة، ويحقق التوازن النفسي الناتج عن التكامل العملي بين المادة والمعنى، ولا سبيل للكرامة الإنسانية، والتوازن النفسي، والتكامل العملي إلا في منهج القرآن الكريم، والقرآن هو روح من عند الله تعالى يبعث الحياة في الجانب الماديّ للإنسان لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢] فحددت الآية الحياة بوجود قيمة المنهج المنظّم، والمستقيم، والواضح، الذي يُخرج الإنسان من الظلمات التي تمتاز بالعشوائية، والاعوجاج، والغموض إلى النور.

كما أن الحياة هي التلاقي بين روح الإنسان وروح القرآن، وهما من روح الرحمن، أما رأيت الأنبياء والصالحين والشهداء والعلماء يبقى أنس أرواحهم بين الناس، حتى إن النسيان لا يُفنيهم؟ وكذا الأمر بين الأحياء بعضهم بعضاً عندما

يُفضَّل الأنس بأحدهم على الأنس بالآخر كما أشار النبيّ في قوله: "الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ،"[1] فيقول تعالى في المؤمنين الذين أيدهم بروح منه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وخلاصة القول: إن الروح في الإنسان متصلة بالقرآن شاء الإنسان أم أبى، فإذا عزز الإنسان هذا الاتصال كان نصيبه أن تصبح الروح الباعثة للحركة روحاً باعثة للحياة تبقى حتى بعد موتها، أما إذا كان اختيار الإنسان هو فصل هذه العلاقة القائمة بينهما، فإن نصيبه من الروح يكون ببعثها للحركة دون الحياة، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ...﴾، فالقرآن هو الباعث لروح الحياة في الإنسان الذي يتحرك وفق منهج الله تعالى، والله تعالى أعلم.

ثالثاً: أهداف القرآن الكريم من التغيير الفردي

١- الأهداف المرحلية للتغيير الفردي

تعرّف الأهداف المرحلية بأنها: الأهداف الأولية التي تنتقل من هدف إلى هدف بعده إلى هدف آخر... إلخ، في مراحل مختلفة، وصولاً إلى الغاية النهائية التي توصِل الأمر إلى قمته؛[2] أي إنها أهداف انتقالية، كل مرحلة منها تأتي لتحقيق مرحلة أعمق، مع ضمان استمرار عمل سابقتها، حتى تجتمع في النهاية كل الأهداف في نقطة واحدة تسمى الغاية، لتكون المصب النهائي لكل الأهداف المرحلية المتحققة. والأهداف المرحلية -دون حصر لها- كما يأتي من أقسام:

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: الأنبياء، باب: الأرواح جنود مجندة، ج٤، ص٥٨٩.

(٢) النحوي، عدنان على رضا. **التربية في الإسلام النظرية والمنهج**، الرياض: دار النحوي للنشر، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص٢٣٧، بتصرف وإضافة.

أ- الأهداف المنهجية:

وهي الأهداف المتعلقة بالطريقة التي يحقق بها الفرد "اكتساب السلوك الذي يتعلم به العلم، أو يحصل به على الفن، ويفيد منها في معاشه."[١] وهذه الأهداف تستمر في سيرها خلال السلسلة المتكاملة لها؛ لأنها الطريق الموصل لتحقيق الأهداف الأخرى.

وتوصف الأهداف المنهجية بأنها معيارية؛ لأنها "تهتم بتنمية أنماط معيارية للسلوك والمعتقدات لدى الفرد من خلال التعلم،"[٢] وتشكّل المقياس الذي يميّز فيه الفرد بين الصحيح والسقيم، والطيّب والخبيث، والخير والشر، ومقصدها تنمية التعلم الذاتي والمكتسب عند الإنسان في كل المراحل الإنسانية، وتنتهي بإيجاد الميزان العقلي للحكم على كل ما يتعرض الإنسان له خلال حياته.

إن دور الأهداف المنهجيّة تنمية ما يسمى "بالميزان العقلي الحكمي": وهو عملية عقلية، تعمل بوجهتين إما منطقيّة، أو نفسيّة، فالحكم المنطقيّ يكون بإدراك وقوع نسبة بين أمرين إيجاباً أو سلباً، أما من الوجهة النفسيّة، فإنه "قرار ذهنيّ يثبت به العقل مضمون الاعتقاد، ويقلبه إلى حقيقة،"[٣] وبه يتم إصدار الحكم على الأشخاص والأشياء والمواقف الحياتية، لينتج عنها مجتمعة سلوكاً قويماً، وبه تتحقق أسس بناء الشخصية القويمة، وهذا الميزان يقبله المنطق وتستريح له النفس، وجاء في القرآن الكريم الإنكار والتعجب من حال من يختل ميزان حكمه إلى غير ما أمر الله تعالى؛ لأن في أمره وحكمه تعالى مبتغى النفس الفطريّ وبه راحتها فقال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ

---

(١) سيد، فتح الباب عبد الحليم. **التربية في القرآن والسنة الغايات والأهداف**، القاهرة: دار عالم الكتب، ط١، ١٩٩٦م، ص١٩، بتصرف.

(٢) مرسي، محمد منير. **التربية الإسلامية أصولها وتطوّرها في البلاد العربية**، القاهرة: عالم الكتاب، ١٩٩٨، ص٥٥.

(٣) صليبيا، **علم النفس**، مرجع سابق، ص٥٢٣.

﴿ ٥٠﴾ [المائدة: ٥٠]، لذلك جاءت الآية الكريمة مبيّنة أن في القرآن حكماً إلهيًّا، وأن أي حُكْم آخر مخالف لما في القرآن الكريم، إنما هو نابع من خلل نفسي، وتابع إلى هوىً وضلال، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد: ٣٧]، والجدير بالذكر أن هذه الآية وردت في سياق سورة الرعد المتحدثة عن التغيير صراحة بوصفه منهجاً، وسنة إلهية جارية.

فتحقيق الأهداف المنهجية يؤدي إلى إعادة تشكيل التفكير وصياغته ضمن نطاق سليم يضمن عدم التأثر بأي مانع من موانع التغيير للفرد، ويعين على التغيير العقدي للفرد، ويقوي أسس هذه العقيدة في النفس، ويضمن له الارتقاء إلى مستوىً أعلى دائماً؛ لأن التفكير "يصرّف القلب في معاني الأشياء لتدرك المطلوب."[(١)] ويتفرع هذا النوع من الأهداف إلى:

- **الهدف المنهجي للاكتساب والتوجيه (البيان):**

إن قوام الأهداف المنهجيّة كما ورد في القرآن الكريم هو تحقيق البيان، وقد "قال بعض الحكماء: شيئان لا غاية لهما الجمال والبيان،"[(٢)] ليكون الهدف المنهجي "هدفاً بيانياً" في بداية الأمر، وهذا هدفٌ واسع المدى في كتاب الله تعالى -كما قال الحكماء- لا ينحصر، ولأنه لا يوجد حدٌّ أعلى يصل الإنسان إليه، بل يبقى متطلعاً للاستزادة من بيان القرآن الكريم على مدى حياة الإنسان؛ لأنه متعلق بفطرة التعلّم التي كانت أول فعل لآدم بعد أن خُلق، والاستزادة من الارتقاء في درجات العمل داخل دائرة المنهج القويم متصل بالزيادة في اكتساب المعارف وتوجيهها.

---

(١) الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحنفي. **التعريفات**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ، ص٨٨.

(٢) الآلوسي، **روح المعاني**، مرجع سابق، م٩، ص٣١٧.

ودللت الآيات الكريمة على الهدف البيانيّ من خلال ورود لام التعليل كما في قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [النساء: ٢٦] أو ما يؤدي معنى التعليل ومثالها قوله تعالى: ﴿... يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ١٧٦ ﴾ [النساء: ١٧٦] بمعنى "لئلا تضلوا،"[1] أو دخول فعل الترجي (لعل) في أكثر من موضع، كما جاء في الآيات الكريمة:﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴾ [طه: ١١٣]، وقوله: ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

"ويكون البيان بما لاَ يُعذر أحدٌ بجهالته، من حلال أو حرام،"[2] وقد تبيّن ذلك في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١٥ ﴾ [التوبة: ١١٥].

ويكون الاكتساب بالتلقي للبيان، وهو مهمة الأنبياء الأولى التي وُكّلت إليهم، وهو دور العلماء من بعدهم، فقد قال الله تعالى مخاطباً النبي ﷺ: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤]، فالبيان يوضح ما في القرآن الكريم من النور، والبرهان، والحكمة،

---

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد. **جامع البيان في تأويل القرآن**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، م٤، ص٣٨٤.

(٢) انظر: المرجع السابق، م١، ص٥٦.

والتبيان،[1] ليكون منهج القرآن الكريم واضحاً بيّناً لا يشوبه غموض ولا تحوطه الشكوك، ومن هنا كان البيان هو الوسيلة الأولى للتغيير الفردي في القرآن الكريم؛ إذ إن الله تعالى بيّن للناس الحقائق في القرآن سواء أكانت الماضية منها أو الحاضرة والمستقبلية على أتمّ وجه وأوضح مسلك، ليكون بعدها الإنسان مريداً مختاراً طريقه بين الهدى والضلال. فإن اهتدى بعد البيان فقد بذل الوسع في تطبيق منهج الله، وإن اختار الضلال بعد البيان فقد خالف منهج الله تعالى البيّن، ليبقى في دائرة الإثم والعصيان. فالبيان هو العملية المعرفية التي تضمن بداية التغيير، وهذا البيان مرحلة أولى هيّأها الله تعالى للإنسان. أما الاختيار بين الهدى والضلال، فإنه مرحلة متوسطة للتغيير، والفاعل هو الإنسان، وفي نهاية عملية التغيير فإن تحقيق الغاية هي المرحلة النهائية للتغيير وهي أيضاً بفعل الله، فالأمر بداية ونهاية من الله وإليه وهذا من أحد الجوانب التي تتضمنها الآية الكريمة: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ ...﴾ [الحديد: ٣].

أما الإنذار والتبشير فهما وسيلتا الأهداف البيانية الهامّة في التوجيه للإنسان للاكتساب السليم؛ إذ إن الإنسان يكون أدق في عملية الاكتساب في حال وجود الرادع والوازع. والتبشير والإنذار هما آلتا الضمير اللتان لهما الدور الأول في الحفاظ عليه مستيقظاً من الغفلة، وبهما تقوم الحجة في إقامة هذا الدين؛ لكي لا يكون للناس على الله تعالى حجة، يقول عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، يقول الطبري: "فقطع حجة كلّ مبطل ألحدَ في توحيده وخالف أمره، بجميع معاني الحجج القاطعة عذرَه، إعذارًا منه بذلك إليهم، لتكون لله الحجة البالغة عليهم وعلى جميع خلقه"[2]، فللإنذار والتبشير دور في توجيه الإنسان لاختيار طريقه، ومعرفة مصيره إذا اتخذ أحدٌ سبيلاً ينتهجه، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ

(١) المرجع السابق، م١، ص٥٦، بتصرف.

(٢) المرجع السابق، م٤، ص٣٦٩.

﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١ - ٢]، فمعرفة الإنسان بوجود البأس الشديد يستدعي تجنّبه لكل ما يوصله إليه وهو وظيفة الإنذار، أما معرفته بالأجر الحسن فيستدعي عمله بكل ما يحقق له المنفعة الدائمة وهي وظيفة التبشير، ومن هنا كان للتبشير والإنذار الدور الهام في تحريك عجلة التغيير في منهج القرآن الكريم.

- الهدف المنهجي للمعالجة والتقويم (الاستغفار والتوبة):

وهو الهدف الذي يأتي تفعيله بعد اكتساب المعلومات، والاعتقادات الفكرية، وتمكينها من النفس، وهذا الهدف يحافظ على النقد الذاتي، والمراجعة الدائمة، والتقويم المستمر، كما يهدف إلى الحفاظ على الفرد من شوائب الآثام التي هي الأساس، والسبب الأول في الإقدام على خطوات التغيير السلبيّ المذكور آنفاً، كما أن تعديل سلوك الفرد باتخاذ القرار السليم في مواجهة الأحداث هو أمر آخر تسعى هذه المنهجية لإيجاده، كما أن تنقية الفرد من الذنوب بتعديل المفاهيم، وعدم سيطرة اليأس من رحمة الله التي تقطع العلاقة بين الإنسان وخالقه فيهدم -اليأس- أهم العلاقات في حياة الفرد، كما يكون لهذه المنهجية دور في إعمال التذكر والانتباه، وتوجيه الفرد إلى صلاحه في الدنيا والآخرة، وعندها تبقى عملية التغذية الراجعة للنفس كفيلة بإصلاح أي خلل يواجه عملية التغيير الفردي، وتكون السبيل لإزالة أي مانع يوجه حركة التغيير المستمر نحو الارتقاء ضمن دائرة المنهج القرآنيّ القويم.

فمن آيات القرآن الكريم نجد أن الاستغفار والتوبة عملية تقويميّة منهجيّة أساسيّة، تتحقق يوم توجد عند الإنسان كامل الإرادة في التغيّر، ولا تكون إلا بمعرفة علمية، وهناك علاقة قوية بين سنة الله في تغيير الأفراد والجماعات، وقضية الاستغفار، فبوجوده -الاستغفار- يتحقق التغيير على أرض الواقع الذي هو من فعل الله تعالى، والمسمى بالسنة الإلهية في الإنسانية، يقول الله تعالى في أوائل سورة هود والتي ابتدأت بذكر الغاية التي جاء لأجلها القرآن الكريم بعد توضيح صفة القرآن الكريم في الإحكام، ثم التفصيل، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]، فنجد أن الاستغفار عملية نفسيّة، ومن ثم التوبة عملية سلوكية، وهما نابعان من القلب بعقد النية على عدم العودة، ومن ثم الجانب السلوكي العملي لجميع أعضاء الجسد، ليعود الإنسان إلى طاعة الله مستسلماً عازماً على عدم العودة إلى معصيته. كما أن الاستغفار موجب للزيادة في الخير، وهذه الزيادة هي تغيير في حقيقة الأمر، تمثل ذلك في قول الله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، ففي إرسال الماء من السماء تغيير حالهم من حال إلى ضدّها، وفي زيادة القوة تغيير في حالهم من درجة إلى أحسن منها أي الارتقاء بها.

إذن فالاستغفار تدريب للفرد على النقد الذاتي للأعمال بدل التفكير التبريري لها، وتدريب على التفكير الشامل للأعمال بدل التفكير الجزئي، فقد جاء في الحديث الشريف: "إنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْباً وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْباً فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِه، غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْباً أَوْ أَذْنَبَ ذَنْباً فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي... إلخ،"[١] وهذا الحديث الشريف دليل على أن عملية التغيير تضمن الدوام على جوهر العقيدة، وتضمن أيضاً الارتقاء بالفرد، كما أنّ المتأمّل للحديث الشريف ليجدها متكررة بتكرر الذنب دون يأسٍ يقطع العلاقة ما بين المغيِّر –وهو منهج الله– والمتغيّر –وهو الإنسان–، "فالاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارناً للِّسان؛ لينحلّ به عَقْد الإصرار، ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة،"[٢] لذا جاءت الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، عن أبي هريرة ﷺ، حديث رقم٢٣٠٥، م٤، ج٨، ص٨١٨-٨٢٠.

(٢) العسقلاني، أحمد ابن حجر. **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله، رقَّم أبوابها: فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ج١٣، ص٥٧٦.

﴿لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فهو منهجية متعلّقة بالتذكّر الذي يهدف القرآن إلى تذكير الإنسان بما يؤدي إلى ابتعاده عن المنهج القويم، وتذكيره بقُدرة مشرّع المنهج -الله جلَّ جلاله- عليه، وتذكيره بمصيره إن كان ملتزماً بمنهج الله تعالى أو ضالًّا عنه.

إن عدم الإصرار على الفعل السيء دليل على التوبة وصدق الاستغفار، والتغيّر من الفعل السيء إلى الكف عنه هو ذاته إصلاح للنفس، وهذا الإصلاح هو ذاته المقصود في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾.

ولا بد من الإشارة إلى أن قضية الاستغفار بوصفها منهجية عِلْمِيَّة وعَمَلِيَّة للفرد والمجتمع والأمة لا بد أن تستمر، وإلا اجتثت هذه الأمة أفراداً وجماعات من أساسها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فمما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ،"[1] فالاستغفار هو الوسيلة الأولى للحفاظ على عملية التغيير قائمة في الفرد والجماعة، وهي الإعلان الأوّلي عن بداية التغيير العمليّ للنفس، وهي الدليل على إصلاح ما في النفس، وكل ذلك تضمّنته الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وتعدّ هذه المنهجية السبيل لتحقيق الارتقاء الفردي، والطريق له إيماناً وخلقاً وسلوكاً، وكذا الارتقاء المجتمعي والحضاري، وهي الطريقة المثلى لصيانة الفرد والمجتمع والأمة من التخلف والتراجع والانحطاط، مهما أحاط بهم على مرِّ الزمان، وقد كان وجوده في حياة الإنسان من بداية خلقه، وكان أول من اتبعها آدم عليه السلام،[2] وقد انتهجها كل الأنبياء من بعده في سلسلة

---

(١) النيسابوري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب التوبة باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، حديث برقم ٧٠٦٥، ص١٣١٤.

(٢) ورد استغفاره في سورة الأعراف الآية (٢٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ وهو أول استغفار عرفته الإنسانية في تاريخها.

تاريخيّة لعملية التغيير التي جاءت في القرآن سنّة إنسانية جارية إلى يوم الدين، قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨]، فإذا استغفروا من ذنوبهم وهو تحقق التغيير الفردي، آتاهم الله الثواب وهو تحقق وعد الله تعالى في تسيير السنن الإنسانية لصالح الفئة المستغفرة.

ب- الأهداف العمليّة (إعداد الإنسان المكلّف):

- تفعيل عمل الاستعدادات الخلْقيّة وفق عملها السليم:

إن قيام الإنسان على "تمكين أجهزته السمعية والبصرية والعقلية من أداء مهامها، وتدريبها على امتلاك الكفاءة اللازمة في البحث عن الحقيقة أو الصواب والعمل بهما،"[1] أمر هامّ في قيام التغيير الفرديّ؛ لأنه يؤدي إلى عملية "إصلاح عقليٍّ جليل يعلِّم الأمة التفرقة بين مراتب الخواطر العقلية، بإذ لا يختلط عندها المعلوم، والمظنون، والموهوم."[2]

ومن الأهداف التي ركّز عليها القرآن الكريم تربية الحواس والعقل من خلال توجيههما إلى تحقيق أهدافه وغاياته، "فهي تُعنى بالكيفية التي يستخدم الفرد بها حواسه وعقله، ويلاحظ الظاهرات أسبابها، ومسبباتها وطرائقها، ويربط بين مكنوناتها ربطاً بين المقدمات والنتائج، فيفقه سرّها ويتعلم مغزاها، ويكون مسؤولاً عن كل أعماله، وملحوظاته، واستنتاجاته."[3]

---

(١) برغوث، الطيب. **منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية**، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص٩٨-٩٩.

(٢) ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: دار سحنون للنشر، (د. ت.)، ص١٠١.

(٣) سيد، **التربية في القرآن والسنة الغايات والأهداف**، مرجع سابق، ص٧٦-٧٧، بتصرف.

فالإعمال السليم للاستعدادات التي وهبها الله تعالى لهذا الفرد، تجعل منه فرداً قادراً على تدبير أمره خير تدبير، وتحقيق الميزان العقلي القويم، للموازنة بين الدنيا والآخرة، وتعزيز جانب الحكمة في معالجة الأمور، وتصنيفها، وترتيبها وفق مقتضيات المنهج القرآني في التغيير، وتولد كثرة تفعيل الاستعدادات قضية الدقة الموصلة للتقوى بوصفها بنية أساسية تنبني عليها أعمال الفرد كلها لتحقيق الارتقاء.

فإشارات القرآن الكريم للاستعدادات بيّنة، تبدأ من الاستعداد القائم على قدرة الإبصار وقدرة النظر، وتستمر بإشارات للعملية العقلية التي تختص بالقدرة على التدبر، والفقه[1] والتذكر[2] والتفكر، والتدريب، لتشكيل العقلية العلمية، "والعلم في هذا الإطار هو معرفة قوانين الله تعالى في الكون وتطبيقاتها في واقع الأرض،"[3] ليكون الإنسان قادراً على القيام بمهمة الخلافة على هذه الأرض.

- تدريب الإرادة للفرد على اختيار الأفضل:

وتفيد عملية تنمية القدرات العقلية في إيجاد التوازن الفكري عند الفرد، الذي بدوره يساعد الفرد على اتخاذ القرار السليم، والسير في الاختيار الأنسب إذا تعددت الاختيارات أمامه وفق أصول العقيدة التي يعتقدها، وعندها تنمو "قوة الرغبة والاختيار التي توجه الإنسان نحو قصد معيّن، وهي قوة باعثة يتولد منها الميل إلى الشيء أو النفور منه،"[4] وهي ما يسمى بقوة الإرادة عند الإنسان، والتي تتحكم في اختيار الإنسان لمبتغاه، وعندها تنمو الرغبة في الارتقاء في درجات القبول في الدنيا والآخرة.

---

(١) قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ۝١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

(٢) لقول الله تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٦٩﴾ [البقرة: ٢٦٩].

(٣) مدكور، علي أحمد. **منهج التربية في التصور الإسلامي**، بيروت: دار الفكر العربي، ط١، ١٢٤٤هـ/٢٠٠٢م، ص٤٣.

(٤) الكيلاني، ماجد عرسان. **أهداف التربية الإسلامية**، بيروت: مؤسسة الريان، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص١٢٢.

"وللإرادة مستويات: الأولى للغذاء ولبقاء الجسم، والثانية لاستمرار النوع بالنكاح، والثالثة إرادة العقيدة والقيم ليرتقي الإنسان بها،"[1] فهدف القرآن الكريم هو تنمية إرادة العقيدة والقيم، التي تشكّل بمرور الزمن خبرات دينية تعمل على الربط بين السلوك والعقيدة التي ينبثق عنها، لتقوم الشخصيّة الإسلامية للفرد والجماعة متّصلة بالأساس التوحيدي، ومترابطة بخبرات سابقة تمتاز بكونها مربيّة، وتتخذ مقام الموجه والمرشد للأقسام الأخرى من الإرادة، حتى تتكامل كلها بنسق متكامل وفق منهج القرآن الكريم، ليصبح الفرد إنساناً مشبع الحاجات، متوازن التفكير والسلوك، وهذا كله البداية المثلى لقيام الشخصيّة القرآنية قياماً متوازناً ومتكاملاً.

أما إذا هيمنت الإرادات الأخرى على إرادة العقيدة والقيم، حصل هبوط من مرتبة النوع الإنساني إلى ما هو أقلّ منها شأناً؛ لأن حصر الإرادة الإنسانية العاقلة بما يشترك به الإنسان والحيوان من إرادات -الغذاء والنكاح- يؤدي إلى انحدار في المستوى الحياتي للإنسانية، وطغيان الهوى على عمل الإنسان، فتكون إرادته محكومة بما يناسب شهوته وهواه، وعندها يكون الفرد خالياً من القيم والعقيدة في حياته، فهو عند إهمال إرادة العقيدة التي تعتبر المميّز الأول للإنسانية تكون إراداته الأخرى حاكمة دون انضباط، ومسيّرة للسلوك، وكذا النوع الحيواني الذي له إرادة الغذاء والنسل، وانظر إلى إنسان يعيش ولا يريد من الحياة إلا غذاء أو نكاحاً كيف يعيش متطابق السلوك والهدف والإرادة مع النوع الحيواني، فيصل به إلى أن يكون كالأنعام في حياته كلها، لكن الفرق بينه وبين الأنعام أنها -الأنعام- تسير وفق وظيفة وضعها الله لها، أما هو فقد خرج عن وظيفته التي أوكله الله إياها، فيكون أضلّ منها في مصيره، فهي -الأنعام- تحيا كما أمرها الله، وهو يحيا على غير ما أمره الله، فيشمله قول الله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٣.

٢- غايات القرآن الكريم من التغيير الفردي

تُعَرَّفُ الأهداف المحوريَّة (الغايات) بأنها: مركز الالتقاء لكل الأهداف المرحلية، فهي النقطة التي تلتقي عندها جميع الأهداف، وهي الهدف الأسمى المرجو الذي تمحورت حوله باقي الأهداف المرحلية وجاءت لتحقيقه، والغايات التي جاء القرآن الكريم لتحقيقها -في الدنيا دون حصر- هي: التوحيد، والاستخلاف، والتمكين.

إنّ الإنسان بدقّة خلقه وسير حياته بداية ونهاية وما يعتريها من أحداث ومواجهات، وما يحيط بها من قضايا ومسلّمات، كلها لم تكن عبثاً، فجاء قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، بأسلوب الاستفهام الاستنكاري "توبيخاً لهم على تغافلهم، وإشارة إلى أن الحكمة تقتضي تكليفهم وبعثهم للجزاء،"[(١)] لكي يكون دورها "إيقاظ العقول إلى الاستدلال بما في خلق السماوات والأرض، وما بينهما من دقائق المناسبات، وإعطاء كلّ مخلوق ما به قِوامه،"[(٢)] فالحياة التي جاءت خالصة من العبثية تُحدَّد بغاية وجودها، ومن هذه الوجهة كان عدم العبثية في الحياة ذا دور في عملية التغيير؛ إذ إن اليقين بوجود كل شيء لحكمة ما يستلزم توجيهه إلى ما يحقق الغاية من وجوده؛ لأن في هذا التوجيه ضمان لقيام الحياة كما أراد الله، والتغيير في غايته هو توجيه ما استُخلف الإنسان فيه توجيهاً يناسب الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق.

وتتلخص الأهداف المحوريّة أو الغايات التي خُلق من أجلها الإنسان انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، فالإيمان بالله في الآية يعني توحيده، والعمل الصالح هو توجيه الأفعال الإنسانية وفق الإرادة الإلهية، ودور الإنسان أن يغيّر من نفسه إلى أن يصل إلى

---

(١) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، م٧، ج٩، ص٢٦٩.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، م٨، ص٣١.

أفضل درجات التطبيق لمراد الله، وعندها يتحقق وعد الله لمن حقق الإيمان والعمل الصالح بأن يستخلفه، ويمكّن له، ويبدله من بعد خوفه أمناً، ليتحقق في الحياة معنى العبودية الكائنة لله وحده لا شريك له، ومن هنا فإن أول مرحلة من مراحل الغايات القرآنية التي كلّف الله تعالى بها الإنسان ليحققها التوحيد والعبودية، ثم المرحلة التي تليها الاستخلاف، ثم التمكين، والتفصيل كما يأتي:

أ- التوحيد والعبودية:

وهو أول تكليف للبشرية، وحقيقة التوحيد تكمن في إفراد الله تعالى بالعبودية، وإخلاص العبادة له، والإقرار بألوهيّته، ونفي الشريك عنه، والاستقامة على ذلك، و"الْعُبُودِيَّةَ عِنْدَ جَمِيعِ الْعَرَبِ أَصْلُهَا الذِّلَّةُ، وَأَنَّهَا تُسَمِّي الطَّرِيقَ الْمُذَلَّلَ الَّذِي قَدْ وَطِئَتْهُ الأَقْدَامُ وَذَلَّلَتْهُ السَّابِلَةُ: مُعَبَّداً،"[(١)] يقول القرطبي: "هي التذلل والافتقار، لمن له الحكم والاختيار، فأمر الله تعالى عباده بالتذلل له والإخلاص فيه."[(٢)] يقول سيد قطب: "وهذه العبودية هي التي تحقق معنى الإسلام، وتعطيه حيويته وروحه... وهي هي القاعدة التي لا بد أن تقام وتستقر، قبل التكليف والأمر، وقبل الشعائر والشرائع... ومن ثم هذه العناية الكبرى بإنشائها، وتقريرها، وتعميقها، وتثبيتها في المنهج القرآني الحكيم..."[(٣)] ويقول بأن: "العبودية هي أسمى درجة يرتفع إليها البشر."[(٤)]

كما أن "تمام تفسيرها وتحقيقها يكون في البراءة من عبادة غير الله، وعدم اتخاذ إنداد يحبهم كحب الله، أو يطيعهم كطاعة الله، أو يعمل لهم كما يعمل لله، أو ما ينافي معنى: (لا إله إلا الله) أشد المنافاة."[(٥)]

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، مرجع سابق، ج١، ص ١٦١.

(٢) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج٥، ص ١٨٠.

(٣) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٣، ص١٢٩٦.

(٤) المرجع السابق، ج٦، ص٣٧٢٣.

(٥) عبد الوهاب، محمد. **كتاب التوحيد الذي هو حق الله تعالى على العبيد**، الرياض: دار المغني للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٣٦-٣٧.

وبما أن التوحيد هو غاية الغايات يقول الله تعالى: ﴿..إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦]، "فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ توحيد وإقرار بالعبودية والملك، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرار بالهلاك على أنفسنا والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له"[1] في بدايته.

ومن هنا نجد حقيقة أن التوحيد هو جذر العبودية؛ إذ إن التوحيد متأصّل في نفس الفرد، مما يستدعي قيام هذه النفس على خير أساس، وإذا كان التوحيد هو نفسه العبودية، ولكن في مستوىً فرديّ، فإن النتيجة في الحقيقة هو أن غاية الإسلام تتلخص في كلمة واحدة هي التوحيد بداية، والتوحيد نهاية، فالعبودية الخاتمة للغايات توحيد ولكن على مستوى الأمة، وعليه فإن قيام العبودية في النفس لا بد أن يسلك طريقه بين الأفراد والجماعات إلى أن يصل إلى تحقيقها على مستوى الجماعة، فيكون ما يميّز الأمة الممنهجة بمنهج القرآن الكريم هو عبوديّتها لله وحده الذي يجعل منها أمّة حرّة؛ لأنها وجّهت هذه العبودية وجهة واحدة إلى الإله الأحقّ بها، ومدى توجيه هذه العبودية له وحده يكون التغيير لما في النفس محققاً في واقع الأمر. إذن فالتوحيد هو توجيه العبودية للإله الأحق بها وحده، وهو أول مرحلة من مراحل التغيير؛ فهو تحقق التغيير الفردي بذاته، وبعد تحققه في النفس يأتي دور تفعيله في السلوك الإنسانيّ من خلال العمل الصالح الذي يبتغيه الفرد لله وحده، وهو ما يسمى الاستخلاف كما يريد الله فيما كان الإنسان مخيّراً به، لذلك جاءت الآيات بذكر (وعملوا الصالحات)؛ لأن عمل الصلاح فيما كان الإنسان مخيّراً به هو مرحلة أولى من مراحل الاستخلاف.

إذن فالعبودية هي: توحيد الله تعالى في النطاق الداخلي،[2] والعمل بما أمر الله تعالى على صعيد النطاق الخارجي،[3] مع ضمان تزامن الأمرين وتوافقهما

(١) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج١، ص٣٠٨.

(٢) وأعني في النطاق الداخلي في أنفس الأفراد منفردين ومجتمعين بتوحيد لله تعالى.

(٣) وهي السلوكات الموافقة للمعتقد؛ أي هي العمل الصالح ابتغاء وجه الله بإخلاص في الدين.

في العمل، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

ب- المنهاج الاستخلافيّ:

أصل كلمة الاستخلاف من خلف، و"الخاء واللام والفاء أصولٌ ثلاثة: أحدُها أن يجيءَ شيءٌ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَه، والثاني خِلاف قُدَّام، والثالث التغيُّر... وإنَّما سُمِّيت الخلافة؛ لأنَّ الثَّاني يَجيءُ بَعد الأوَّل قائماً مقامَه."[1] ولا يوجد حقيقة خلاف بين الأصول الثلاثة، فمن يجئ بعده شيء يقوم مقامه فقد صار قدّامه في ذلك، وهذا تغيّرٌ في حقيقة الأمر.

والاستخلاف ما يتعلق بمهمة الإنسان في الأرض التي خُلِقَ للعمل بها، وهو إطار تغيير النفس، فالله تعالى لم يخلق الإنسان عبثاً، فقد وُكِّل الإنسان وكُلِّف بمهمة لا بد من تحقيقها في الحياة، وهذه المهمة إذا تحققت على الوجه الذي يُرضي الله تعالى تتحقق الخطوة الأولى للوصول إلى غاية خلق الإنسان، وهي أن يكون الإنسان حافظاً لأمانة الله تعالى التي كلفه بها وبيّنها قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والقرآن الكريم جاء بمنهج متكامل، ليبيّن للإنسان الطريق التي يحقق فيها غاية خلقه، فلم يترك الله تعالى الإنسان في عماية يتخبّط في الأرض دون أن ينظِّم له مسيرته في الحياة بكاملها، ويهديه إلى ما فيه صلاحه في دنياه وآخرته، فقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨].

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج١، ص ٣٧٤.

ويُنظر لقضية الاستخلاف بأكثر من وصف، فقد عدّها المفسرون وظيفة الإنسان في هذه الأرض،[1] وجاء -في وصف آخر- الخلط بينها وبين التمكين في الأرض على أنهما غايتان، والوصول إليهما هو نهاية الأمر، أو أن الاستخلاف عملة بوجهين، الوجه الأول منها عبودية والآخر سيادة.[2]

لكن لا بد من النظر في هذه القضية بوصفها منهجاً كاملاً، منضبطاً، ومنظماً، ومتسلسل الدرجات، ومترابط الجوانب، فالقرآن الكريم عرض هذه القضية على أنها (منهاج استخلافيّ) مؤدٍ للغاية الكبرى، فلن يُعفى الإنسان من السعيّ الذاتيّ في تطبيق أمر الله تعالى وتنفيذه؛ لأنه مطالبٌ بأن يستغلّ استعداداته كافّة في تفهُّم الخطاب الإلهي، ومن ثم السعْيُ في تطبيق هذا الخطاب من أمر أو نهي... إلخ، وجعل تفاصيل الخطاب الرباني منهجاً تنفيذيّاً، يكون وسيلة لتحقيق الغاية المحوريّة في الحياة الدنيا؛ لأن منهجه قائم على ربط الدين بالحياة،[3] وبربطهما معاً يكون قوام الحياة بصبغة الله تعالى، فمنهج الله جل وعلا هو ما يحقق هذه الصبغة التي لا يوجد أحسن منها.

إن المتأمّل في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال: ٥٣]، يجد العلاقة بين التغيير وقضيّة المنهج الاستخلافي مباشِرة ودقيقة، فالتغيير بحقيقته قانون استخلافي، أو هو قانون يضمن قيام الاستخلاف كما يريد الله منه، فموقع هذا المنهج -الاستخلاف- من سنة التغيير هو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾، فنجد أن عملية التغيير وإن انطلقت من فرد يقيم دين الله تعالى في نفسه، فإن منهاج الاستخلاف هو انعكاس ما في النفس على عمل الإنسان في عمارة الأرض، والمنهج الاستخلافيّ يبدأ من

(١) وهي نظرة المفسرين في تفسير الآية: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ۝٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]

(٢) الدسوقي، **استخلاف الإنسان في الأرض**، مرجع سابق، ص١١-١٤.

(٣) وقد فصّل المؤلف عبد المجيد النجار في ذلك، انظر:

- النجار، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، مرجع سابق**، مرجع سابق، ص١١. وكذلك الفصل الثاني، الباب الثاني دور العقل في إنجاز الخلافة، من ص٧٥- ١٠٣.

نقطة إعلان الفرد إسلامه بقوله: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله"، والعمل الاستخلافيّ المطلوب له عدّة وجوه:

الوجه الأول: هو قيام الإنسان بالسلوكات التطبيقيّة لمنهج الله تعالى على نفسه، وهو استخلاف أوّليّ، يكون باستخلاف الإنسان على نفسه كأحد الأمانات المسؤول عنها يوم القيامة، وعدم حفظه لهذه الأمانة خسارة فادحة لا تعوّض؛ إذ إن أي اعتقاد لا يوفقه عمل هو حجة على الإنسان لا له، فيقول تعالى في ذلك: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢].

والوجه الثاني: هو قيام الإنسان على مسؤولياته وفق ما جاءت به تفاصيل المنهج الإلهيّ في القرآن الكريم، وكل مسؤولياته هي أمانة من الله تعالى أوكلها إليه، كي يحفظها، فيديرها ويوجهها كما يريد الله تعالى، وعليه فإن قيام كل فرد بمسؤولياته وفق منهج الله تعالى يعني قيام مرحلة متقدّمة من التغيير على مستوى جماعيّ يؤثر في الحياة العامة على الناس كمجموعة.

والوجه الثالث: وهو التفاعل مع الكون تفاعلاً إيجابيًّا فعّالاً، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ٧]، ويقتضي ذلك الاستخلاف تسخير كل ما في الكون وفق الوظيفة التي وجد لها، فهذه أمانة ثالثة من الأمانات الملقاة على عاتق الإنسان، والتي لا بد أن يسيّرها بما يرضي الله تعالى، وهي عمارة للأرض؛ والحق أنها تسخير كل ما خلق الله تعالى -غير الإنسان- كما يريد الله تعالى؛ أي استعمال كل الموجودات بما يرضي الله تعالى، فمثلاً الثمر مما خُلق في هذا الكون، ويستطيع الإنسان استعماله في رضا الله بأكله حلالاً طيّباً، ويستطيع أن يأكله حراماً خبيثاً، فالعنب يستعمل للغذاء حلالاً طيّباً، ويستعمل حراماً خبيثاً يوم يكون خمراً، وهكذا كل شيء في الكون إما أن يُستخدم استخداماً إيجابيّاً ويكون عندها عمارة الأرض برضا الله تعالى، أو يستخدم استخداماً سلبيًّا ويكون عندها تصرف بما في الأرض بغضب من الله تعالى، وإليه تشير الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ

﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]؛ لأن في اتباع خطوات الشيطان إيصال للإنسان إلى ما كان حراماً خبيثاً؛ لذلك خصص فعل العمارة والاستعمار بالأرض وما فيها في القرآن الكريم،[1] فقد ورد في موضعين بمعنى استعمار الأرض ومنها: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ [هود: ٦١]، أما الموضع الثاني ففي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

لقد جاء في كتاب الله تعالى عرض لهذه القضيّة -الاستخلاف- بمعالم واضحة، في مختلف المراحل التي نزل فيها على السواء، فكثير من السور المكيّة أشارت للقضيّة: منها سورة الأعراف،[2] والقصص،[3] وغيرهما، ومن السور

---

(١) الجذر (عَمَرَ) معناه في معاجم اللغة: "العين والميم والراء أصلان صحيحان، أحدهما يدلُّ على بقاءٍ وامتداد زمان، والآخر على شيءٍ يعلو، من صوتٍ أو غيره... فالأوّل العُمْر وهو الحياة، وهو العَمْر أيضاً... ومن الباب عِمارة الأرض، يقال عَمَرَ الناسُ الأرضَ عِمارةً، وهم يَعْمُرُونها، وهي عامرة معمورةٌ. وقولهم: عامرة، محمولٌ على عَمَرتِ الأرضُ، والمعمورة من عُمِرت. والاسم والمصدر العُمْران: واستَعمر الله تعالى الناسَ في الأرض ليعمرُوها. والباب كلُّه يؤول إلى هذا"، انظر:

- ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، الأصل عمر.

أما المواضع الأخرى في القرآن الكريم فهي ترجع إلى الأصل الأول الذي يدل على بقاء وامتداد زمان، أما في سورة التوبة في عمارة مساجد الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾؛ فإن مقصودها كما قال ابن كثير: "وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك"، انظر:

- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ج١، ص١٣٦.

وأظن أن عمارتها هنا هو قضاء العُمُرِ في زيارتها والصلاة وذكر الله فيها، لذلك فهي -في ظني- تعود للأصل الأول من جذر عمر.

(٢) قول الله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: ١٢٩].

(٣) قول الله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

المدنية سورة النور،[1] وهذا دليل على أن القرآن الكريم منذ المرحلة المكيّة من نزوله كان يوجه النظر، ويثير النفس نحو تحقيق هذا المنهاج الاستخلافي، فالناظر في الآيات المدنية يجد قلة الإشارة إلى هذه القضيّة، وإن دلّ ذلك على شيء فهو دليل على أنها متحققة على أرض الواقع في المدينة، لتمكّن المسلمين أكثر في هذه المرحلة.

فمن الآيات التي تؤكد على الاستخلاف في السور المكيّة قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وكذا في سورة الأعراف فيما أخبر الله به في قصة موسى: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩].[2]

إن تطبيق المنهاج الاستخلافي كما أمر الله تعالى، و تحقيق العبودية لله تعالى في أرضه وعمارتها بسلامة التطبيق لمنهج الله تعالى، يتحقق بما يأتي:

-الجانب الاعتقادي:

وهو الإيمان الخالص والاتصال التام بالله تعالى على مستوى الفرد والجماعة؛ فقد شرّع الله تعالى نُسُكاً وعبادات، لضمان التواصل بين العبد وربه، ليتسنى للإنسان تفعيل المنهاج الاستخلافي على أرض الواقع، وليبقى هذا

---

(١) في الآية التي كانت منطلقي لتحديد معالم هذا المطلب، وهي: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ... ﴾ [النور: ٥٥].

(٢) من الملاحظ في ذكر قضية الاستخلاف في السور المكيّة أنها جاءت من خلال عرض قصصي لأحوال الأمم السابقة، وهذا من أهم الأساليب القرآنية لتثبيت القضايا المعرفية وتقريبها للواقع، انظر فصل أساليب القرآن الكريم فيما تحدّث عن الأساليب التقريبيّة ومنها القصة القرآنية، ومن السور المكية أيضاً سورة هود الآية ٥٧، أما ما ذكر القضية من السور المدنية فاكتفيت بذكر سورة النور الآية ٥٥ التي ابتدأت بها الحديث عن الغايات، وأظن بعد البحث أنه لم أجد غيرها من السور المدينة ذكرت الاستخلاف صراحة.

الإنسان متذكّراً متفكّراً متوكّلاً على من يستحق العبودية التامة، وليتم الربط الدقيق بين الاعتقاد الداخلي والعمل الخارجي لضمان الارتقاء الإنساني على المستويات كافة.

- الجانب العملي:

وهو العمل الصالح الناشئ عن الجانب الاعتقادي؛ ويعني التطبيق والتفعيل للمعتقدات، "بمعنى أن يكون النشاط الإنساني منبعثاً عن رؤية إيمانية صحيحة، قوامها الفهم العميق الناضج للعلاقة بالله والكون والحياة من جهة، وتجسيد عملي سليم لمقتضيات هذا الإيمان في الواقع الإنساني الفكري، والسلوكي، والعملي من جهة أخرى،"(١) وبما أن الله تعالى سخّر كل ما في الأرض للإنسان، والمقصد من ذلك التسخير هو قيام الإنسان بتفعيل المنهاج الاستخلافيّ، فلا بد أن يكون النشاط الإنساني فكراً وعملاً، فرديًّا أو اجتماعيّاً موجّهاً "من أجل تطوير آليات التسخير، وتصعيد عملية التفاعل مع الكون فهماً وانتفاعاً،"(٢) ليتم تحقيق العبودية لله تعالى في كل عمل من أعمال الإنسان، وكل وجه من وجوه الاستخلاف.

وخلاصة القول:

- إن للمنهاج الاستخلافي أهدافاً ومعالم، وسبلاً جاء لتحقيقها، جاءت بها شرائع الله تعالى كلها، ومنها دين الإسلام الذي تلخصت فيه قضيّة استخلاف الإنسان بوصفه منهجاً محدد المعالم، موجَّه الأهداف، متين الأسس، قوي الأركان، مستمر الحفظ إلى يوم الدين.

- وإنّ إقامة المنهاج الاستخلافيّ من الأمور التي تكون في دائرة الفعل الإنساني، فإذا أقامها بما كان من محددات إلهية، وأسس شرعيّة ومنهجية،

---

(١) برغوث، **منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة**، مرجع سابق، ص٩٣.

(٢) المرجع السابق، ص٩٣.

لتحقيق غايات نهائية، كان ما يختص بفعل الله تعالى قائماً بعدها بإحداث قضيّة التمكين؛ لأنه وعد الله الذي لا يخلف المعياد، والمتمثل في الآية (٥٥) من سورة النور،[١] فبعد الاستخلاف لمن حقق الإيمان والعمل الصالح[٢] تتحقق شروط قيام خير أمة، وهي فئة اجتازت الاختبارات والابتلاءات إلى أن أصبحت على قدر الانتقال لمرحلة التمكين بوصفه وعداً من الله تعالى لمن أقام نهجه في الحياة خلال فترة الاستخلاف بكل وجوهها.

- وإن ارتباط عملية التغيير بكل مستوياتها (فرداً وجماعة) بالمنهاج الاستخلافي، والتمكين بيّنة واضحة، فالتغيير حقيقة عملية إعداد الفرد والجماعة القادرة على القيام بتحقيق المنهاج الاستخلافي على أكمل وجه، وأتم صورة، وعدم تحقيق عملية التغيير يوجب قيام سنة الاستبدال للأقوام، وهي في حقيقتها مرحلة متقدمة من مراحل سنة التغيير، فهذه السنة تعني الاستبدال لمن لم يحقق المنهاج الاستخلافي القويم، كما أمر الله تعالى.

ت- التمكين:

فعند إعمال الفكر في معنى كلمة (تمكين)، فإن الفكر ينصرف إلى أصلها الذي هو من (المَكْن)، وقد اندرج تحت ثناياها عدّة معانٍ، فاللفظ (مَكَّنَ) حمل معنى القدرة والاستطاعة والظفر في اللغة،[٣] ومن منظور المفسرين أضاف معنى التمليك.[٤]

---

(١) قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ ﴾ [النور: ٥٥].

(٢) أي للفرد بعد استمراره في الارتقاء الفردي بالتغيير المستمر، وللجماعة بعد استمرارهم في الارتقاء الجماعي بالتغيير المستمر.

(٣) انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة (مكّن)، إلا أنها لا تقتصر على هذه المعاني، فقد ذكرتُ ما يخص الدراسة للاختصار ولعدم خروجي عن مسار البحث.

(٤) انظر: البغوي، **تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل**، مرجع سابق، ج٢، ص١٨١.

وعند محاولة الجمع بين معانيها نجدها أموراً مرتبطة ببعضها ارتباط السبب بالمسبب، فمن أعطي القدرة على عمل استطاع إنجازه، ومن استطاع إنجازه ظفر به، ومن ظفر به فقد ملكه.

وللتمكين عند المفسرين قسمان:

- التمكين العام:

وهو "تمكين الله للجنس البشري في الأرض، بوصفه حقيقة مطلقة، وذلك قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلاً،"[1] ولولا هذا التمكين لما استطاع الإنسان أن يستفيد مما سخّره الله تعالى له في الأرض، وأن يستثمر ويستعمر الأرض، يقول الله عزّ وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]، ويقول تعالى في الإخبار عن قوم صالح عليه السلام لقومه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، وفي هذا يستوي الناس جميعهم صالحهم وضالهم، وهذا مدار الاختبار والابتلاء، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٤]، ويقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩].

- التمكين الخاص بالمؤمنين:

وهي نقطة المفارقة بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل، ويكون بجعل النصر والعاقبة للمتقين المحققين لمنهج الله تعالى في الأرض، بإعطائهم من أنواع التصرف، والتمليك، والقيادة ما يحقق منهج الله تعالى على أوسع مدى، ليظهر دين الله تعالى على الدين كلّه، ويتحقق العدل والقسط في الناس كافّة، والإحسان في التصرّف، وتحقق القدرة للإصلاح في الأرض.

---

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، م٣، ج٨، ص١٢٦٢.

إن التمكين الخاص بالمؤمنين هو خاتمة معركة الخير مقابل الشر في الدنيا، ولا بد لتحقيق التمكين من عناصر هامة:

- تغيير الفرد ليكون القائد المتقي المطبق لمنهج الله تعالى:

ودلّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فأن يورث الله تعالى الأرض لمن يشاء هو نفسه التمكين لمن يشاء، وقد بيّن في القرآن الكريم أن الفئة التي سيتم التمكين لها هي الفئة الملتزمة بتقوى الله مع استمساكها به خلال فترة الامتحان والابتلاء، وفي هذه الآية إخبار عن ماضٍ ومستقبل، فالماضي هو أن الله تعالى بيّن أن ما حصل لقوم موسى هو التمكين لفئة المتقين بعد صبرهم؛ إذ جاءت آيات أخرى تبيّن أن قوم موسى مكّنوا في الأرض بعد هلاك فرعون، والمستقبل هو القياس على هذه السنة الإلهية، والقانون الرباني بأن كل من كان على تقوى فيما استخلف فيه، فحمل الأمانة وأداها خير أداء فالعاقبة له في معركته؛ لأنه طرف للحق مهما علا زبد الباطل.

وجاء النداء في القرآن الكريم للمؤمنين للالتزام بالتقوى، لإحداث التغيير الذي هو من فعل الله تعالى، كما أمرهم في إصلاح حياتهم فرداً وجماعة بعد أن تقوموا بما عليهم من إصلاح، ويوجّهوا إرادتهم، لتحقيق ما يريد الله تعالى، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، ففي قوله: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ﴾، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ إسناد إلى الله بأن الصلاح والغفران حاصل بحصول التقوى من العبد، وفي هذا الصلاح وهذه المغفرة فوز من الله تعالى؛ إذ وُصف هذا الفوز بأنه عظيم لأنه شامل لأمر الدنيا والآخرة، وقد اعتنى المنهج القرآني بإيجاد مقوّمات التقوى في الفرد والجماعة، فالتقوى فعل العبد بما استخلفه الله تعالى به.

كما أن التقوى هي من أهم مضامين منهج القرآن الكريم الذي يضمن إحداث التغيير في النفس الإنسانية، فانظر مثلاً إلى قول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥]، فأسلوب الشرط في الآية جاء مبيناً لقانون التغيير، فمن قواعده أن من يتغيّر إلى تقوى من الله ورضوان يغيّر الله تعالى من حاله بتكفير سيئاته، وجعل الأجر العظيم جائزته.

أما إحدى صور قانون التغيير قاعدة النصر لله تعالى، فقد جاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]؛ أي "إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار، ويفتح لكم،"[(١)] ويكون نصر الله تعالى بإقامة حق العبودية كما يحب الله ويرضى، لذلك "جعل نصر العبد له مقدماً على نصره للعبد،"[(٢)] "إذ لا بدّ لحصول النصر من تحصيل سببه كما هي سنّة الله،"[(٣)] وسببه حسن إنجازه مهمة الاستخلاف، "فكانت حقاً عليه ووعداً كما بيّن ذلك قوله: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠]، وإنما يكون كمال النصر... على حسب الإيمان والتقوى،"[(٤)] قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١]، فشرط التمكين توجيه إرادة الإنسان فرداً وجماعة لتحقيق ما يريد الله تعالى، "وإن لله شريعة ومنهاجاً للحياة، تقوم على قواعد وموازين وقيم، وتصور خاص للوجود كله وللحياة، ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها دون استثناء، فهذا نصر الله في واقع الحياة."[(٥)]

---

(١) الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، مرجع سابق، ص١٦٤١.

(٢) الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج٣١، ص٣٣٧، بتصرف.

(٣) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٥٥.

(٤) المرجع السابق، ج١٢، ص١٨٢.

(٥) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٦، ص٣٢٨٨.

- تغيير ميزان الحكم العقلي ليهدف إلى تحقيق العدل والقسط بين الناس:

فالقسط والعدل هما من أوامر الله تعالى في كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. ويقول جلّ ذكره في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، فكان التعليل في إنزال الكتاب لقيام القسط بين الناس، يقول الطبري في تفسير هذه الآية: "ليعمل الناس بينهم بالعدل،"[١] وكأن معنى الآية الكريمة أي: "أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم الكتاب... ليتعامل الناس بالحق، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾، وليرى ناصر دينه وناصر رسله بالغيب."[٢]

- النتيجة والثمرة تمكين دين الله تعالى من تفاصيل الحياة (صبغة الله):

وهي ظهور دين الله تعالى على الدين كلّه، وعلى الأهواء كلها، وعلى الموازين كلها، رغماً عن كل من حبك كيده، لإخفاء الدين أو تشويهه، فيقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]، وهي من أجلِّ الغايات المتحققة في الحياة الدنيا، وعندها يكون ظهور الحق كما بيّنه الله تعالى في سورة الرعد التي احتوت على آية من آيتي التغيير ظهوراً جليًّا دائماً، قال تعالى في تمثيل هذه الحالة: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧]، فتكون الخاتمة والنتيجة بتحقيق سنة الله تعالى ووعده كما تحقق في السابقين، فقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ

---

(١) الطبري، **تفسير الطبري جامع البيان**، مرجع سابق، ج١١، ص٦٨٨.

(٢) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٠٠١، بتصرف.

﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥]، وهذه الآية دليل على أن التمكين هو أن يجعل الله تعالى لعباده المتقين ما في الأرض لأداء أمانة الله تعالى، فهم استحقوا ذلك؛ لأنهم أحسنوا في حفظ أمانة الله التي كلّف الإنسان بها، والتي أبت السماوات والأرض أن تحملها لعظمها، والتي هيّأ الله تعالى الإنسان استعداداته كافة للقيام بأدائها على أكمل وجه، وليكونوا حافظين للميراث الذي مكّنهم الله به في الدنيا ابتلاء واختباراً.

وأخيراً -خلاصة القول-: إن التمكين في الأرض هو التغيير الإنساني للأمة المتحقق بفعل الله ووعده، وهو صبغ الحياة الإنسانية بصبغة الله تعالى عند قيام الأفعال الإنسانية بحسب مقتضيات المنهج الإلهي في القرآن الكريم، وإن تحقق فعل الإنسان بتغيير ما في نفسه على مستوى الفرد والجماعة، يكون ذلك بالالتزام بمنهج الله كما يريد الله، فبالقرآن يكون تغيير الإنسانية جمعاء من سيادة الباطل إلى سيادة الحق، وتغيير حالة الانحطاط والدنوّ، ليسود مكانها حالُ الرفعة والسموّ، وتغيير حالة الهزيمة، والذل، والانهيار، ليقوم محلَّها العزّة بالانتصار، ويتبدل الخوف أمناً لتَمَكُّنِ دين الله تعالى في الأرض، فلا خوف من ظلم ظالم، ولا رهبة من جور جائر، فتتحقق العبودية لله وحده، ويتحقق التوحيد عندها بمسمى الغاية الأسمى في الأمة والجماعة، ليعود كل شيء لله كما بدأ من الله جل جلاله، فتتوحد الجماعة نحو توجيه العبودية لله وحده، وبها يصبح نظام سير الإنسانية موافقاً لمرضاة الله تعالى، والأمة تعكس طبيعة دينها، ولون صفاء كتابها، فقال تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

الفصل الثاني

أسس المنهج القرآني في التغيير الفردي

أولاً: أسس المنهج القرآني في التغيير الجوهري[١] للفرد

يتشكل منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي -بشكل عام- من سُلَّم أسس لها أولويات متعددة، يستلزم بعضها بعضاً، وتتدرج في الصعود الفكري للإنسان، والاعتقادي، والأخلاقي، والسلوكي، منتهياً -المنهج- بارتقائها إلى أعلى الدرجات الموصلة إلى أفضل العمل المكمّل لجمال صنعة الإنسان بحسن عمله، حتى يوصلها إلى حد يسمى بالكمال الإنسانيّ النسبيّ.[٢]

ركّز القرآن الكريم على قضيّة البناء التأسيسيّ لجوهر الفرد المتمثل بعقيدته، وجعلها قاعدة، لما يلحقها من مراحل ومقياساً أوّلياً، فمن الآيات التي تبيّن أهمية الأسس ما جاء في سورة التوبة عندما جاءت المقارنة بين مسجدين[٣] فقال

---

(١) وجوهر الشيء: أصله وكنهه، وأصل النفس في عقيدتها، والأسس الجوهرية أي الأسس الأصيلة (العقيدة) التي تنطلق منها باقي الأسس في المنهج، أما الارتقاء زيادة على الأصل؛ أي زيادة على أصل الاعتقاد عند القيام بأداء الحقوق والواجبات بانعكاس الاعتقاد على السلوك، والزيادة على ذلك مع الحفاظ على الأصل هو سبيل تحقيق ما يسمى بكمال الالتزام، والذي قُصد من مصطلح الكمال الإنسانيّ النسبيّ؛ أي نسبة الإلزام هي المحدد للكمال.

(٢) سيتم التعريف بالمقصود من الكمال الإنساني النسبي في المبحث الثالث من هذا الفصل بإذن الله تعالى.

(٣) جاءت الآية في سياق الحديث عن المنافقين يوم عملوا على بناء مسجد بهدف الإضرار بالمسلمين، وسمّي بمسجد الضرار، فأظهر الله مكرهم فأنزل فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾ [التوبة: ١٠٧]، واختلف العلماء في تحديد المسجد الذي بني على التقوى من الله، فمنهم من يقول إنه مسجد قباء، ومنهم من يقول إنه مسجد النبي ﷺ.

الله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٩]، "فالتأسيس وضع الأساس، وهو أصل البناء وأوله... ويستعمل بمعنى الإحكام،"[١] كما أن الأساس هو "القاعدة التي يبنى عليها الشيءُ."[٢] يقول الآلوسي: "أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة هي التقوى، وطلب الرضا بالطاعة خير، أم من أسس على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها، فأدى به ذلك لخوره، وقلة استمساكه إلى السقوط في النار."[٣]

وعلى ما سبق فإن المقصود من مفهوم التغيير الجوهريّ هو: المرحلة التكوينيّة، واللبنة الأوّليّة التي تبدأ باستبدال اعتقاد باعتقاد، لتحقق التحول من كل ما هو سلبيّ إلى كل ما هو إيجابيّ، كالتحول من الشر إلى الخير، ويكون بالتحول من الجهل إلى العلم، والتفكير السقيم والعشوائي والمنحرف إلى التفكير السليم المستقيم المنهجي، ويترتب عليه إحلال الخُلق الحسن محل الخُلُق السيء.

وهذه المرحلة هي قواعد يقوم عليها البناء القرآني في النفس، والارتقاء يكون في زيادة الإيمان المؤدي إلى القيام بأحسن العمل، فيكون البناء الداخليّ مستنداً إلى مراحل حياة الفرد العلْمية والعمَلية، وهي مرحلة إعادة تنظيم البناء النفسي للفرد وتصوره عن الله تعالى، ولقد تكفَّل القرآن بتحقيقها فقال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]، "وكون هذا القرآن نوراً يدل على أنه هو الذي يكشف

(١) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، م٤، ج٥، ص٢٢.

(٢) ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي. **تفسير اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: عادل عبد الموجود ومحمد عوض، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٢١١.

(٣) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، ص٣٢.

ظلمات الجهل، ويظهر في ضوئه الحق، وتمايز عن الباطل، ويميز به بين الهدى والضلال، والحسن والقبيح."[1] وتقوم أسس التغيير الجوهري على ما يأتي:

١- الأساس الفكري المنهجي (تأسيس طريقة التفكير المنظم)

إنَّ للأساس الفكري بمنهجيّته السليمة دوراً مهمّاً في عمليّة التغيير، كأهميّة الجذر للنبتة، فهو المغذّي الأساسي لعمليّة التغيير الفردي بكل جوانبها، والإنساني بكل مراحله، والعامل الرئيس في تحقيق الثبات والانضباط لهذه العملية -التغيير- وفق منهج القرآن الكريم، كي لا تُجتث عملية التغيير من أساسها ولا تضطرب في عملها؛ لأنها في الأساس عملية معرفيّة، تقوم على تغيير المعارف والمدركات التي تستند إليها النفس في تنفيذ سلوكها بحسب ما عندها من معطيات، والفكرة "قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم،"[2] "والتفكير إعمال العقل في مشكلة ما للتوصل إلى حلها،"[3] فهو متعلق بإحداث خبرة الإنسان، وإيجاد الفرضيات المتنوّعة للخروج بقرار مناسب للموقف، من خلال التعامل مع عدّة أفكار، والتفكّر "هو إحضار ما في القلب من معرفة الأشياء"[4] أو هو "تردُّدُ القَلْب في الشَّيء"[5] خلال عملية إيجاد الحل لأية مشكلة؛ إذ إنه لا يقال إلا فيما له صورة في القلب؛[6] لأنه شامل "للجوانب العاطفية، والانفعالية، والإدراكيّة؛

---

(١) الشنقيطي، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، مرجع سابق، ص١٥١٥.

(٢) الأصفهاني، الراغب. **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، تحقيق: صفوان عدنان، دمشق: دار القلم، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص٦٤٣.

(٣) مصطفى، إبراهيم وآخرون. **المعجم الوسيط**، أخرجه: إبراهيم أنيس وآخرون، إشراف: حسن عطية ومحمد شوقي، بيروت: دار الأمواج، ط٢، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٦٩٨.

(٤) الجرجاني، **التعريفات**، مرجع سابق، ص٦٧.

(٥) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج٢، ص ٣٢٨.

(٦) الخازن، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، مرجع سابق، ج١، ص٣٣٢.

أي يشمل كل أنشطة الإنسان النفسيّة والمعرفيّة والروحية،"[1] وبما أن معنى المنهج هو الطريقة،[2] فإن قيام الأساس الفكري يكون بإيجاد طريقة التفكير السليم والقويم، والمنطلق من أسس منطقيّة ومبادئ سليمة ثابتة، وهو ما يسمى بالتفكير المنهجيّ، فمن ملك الطريقة السليمة وصل إلى الحقيقة الخالصة، وبهذا يتكوّن الفكر، فهو: "فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها،"[3] يقول جفري لانغ: "وإذا ما اتخذت القرآن بجدية فإنه لا يمكنك قراءته ببساطة، فهو يحمل عليك، وكأن له حقوقاً عليك! وهو يجادلك، وينتقدك ويُخجلك ويتحداك ... لقد كنت على الطرف الآخر، وبدا واضحاً أن مُنزل القرآن كان يعرفني أكثر مما أعرف نفسي ... لقد كان القرآن يسبقني دوماً في تفكيري، وكان يخاطب تساؤلاتي ... وفي كل ليلة كنت أضع أسئلتي واعتراضاتي، ولكنني كنت أكتشف الإجابة في اليوم التالي ... لقد قابلت نفسي وجهاً لوجه في صفحات القرآن."[4]

إن من أهم القضايا التي اعتنى بها المنهج القرآنيّ هي توجيه الأساس الفكري وجهة سليمة بوصف هذا الأساس مرحلة التهيئة النفسية للفرد، الفاعلة في تشكيل أسس العقيدة عنده، وتفعيل الجانب الفكري في كل الأمور ينمّي "العقل المقياس القادر على إدراك علل الأشياء... والقادر على التمييز بين الوسائل والغايات، وحِكم التشريع..."[5] كما أن الجانب الفكري يعدّ القناة التي تصل كل مراحل التغيير وجوانبه وأسسه بعضها ببعض، فإذا تحققت المنهجية

---

(١) بدري، مالك. **التفكر من المشاهدة إلى الشهود**، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١م، ص٣١.

(٢) كما مرّ في مطلب تعريف المنهج لغة واصطلاحاً.

(٣) الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص٦٤٣.

(٤) لانغ، جفري. **الصراع من أجل الدين؛ انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام**، ترجمة: منذر العبسي، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤١٩ھ/١٩٩٨م، ص٣٤.

(٥) خليل، عماد الدين. **حول إعادة تشكيل العقل المسلم**، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميه، سلسلة كتاب الأمة، ط١، ١٤٠٣ھ، ص١٢-١٣بتصرف.

القويمة فيه؛ كان الانضباط في مصارف هذه القناة "يفتح للإنسان أبواباً من العلم بالله تعالى وسننه التي لا نهاية لها،"[1] فهو يعمل على إعادة بناء الأفكار، ويوصل إلى تأسيس الأصول الدينية والحياتية من خلال تشكيل التفكير الشامل بدل الجزئي، ليصبح العقل الإنساني عقلاً بيانيًّا "قادراً على تحقيق الانسجام، وتقدير الحجوم والأبعاد، وترتيب الأولويات، والتمييز بين الأمراض والأعراض"[2] في أكثر من مجال، فيجعل من تفاعل الإنسان بكل ما حوله سبيلاً لتقدّمه وارتقائه، كما أن تدريب الفكر وتفعيله يعلم الإنسان الفصل بين الأمور المتشابهات، والربط بين المختلفات، لينتج عن هذين؛ التدريب والتفعيل، قواعد التمييز بين الحق والباطل، والفصل بينهما.

وانظر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢] فهو نهي صريح يحث النفس على مزاولة التمييز بين القضايا والفصل بينها لتميز بين الحق والباطل وتفصل بينهما؛ لأن اللبس في أصله "يدلُّ على مخالَطَة ومداخَلة،"[3] وسبب المخالطة والمداخلة عدم التمييز بين الدقيق من الأمور، وعدم التمييز راجع إلى خلل في التفكر، تشويش في التفكير، مما يكفل أن يقف ذلك اللبس عائقاً أمام سير عملية التغيير في نفس الفرد.

إن قضيّة التفعيل الفكري تتم من خلال استثارة التفكير وتنبيهه وتحفيزه، وهي كلها عمليات "داخليّة نفسيّة، تستثير النفس، بطريقة الاستمرار، لتحقيق تغيّرات داخلية في طبيعة الدافع؛[4] لإعادة التنظيم الادراكي الذي ينتج عنه تنظيم السلوك."[5]

---

(١) رضا، محمد رشيد بن علي. **تفسير القرآن الحكيم المشهور بالمنار**، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م، ج٤، ص١٩٦.

(٢) خليل، **حول إعادة تشكيل العقل المسلم**، مرجع سابق، ص١٢.

(٣) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٦٩.

(٤) الدافع: أي ما يكون سبباً لقيام فعل ما، أو سلوك مسلك ما.

(٥) أبو حطب، فؤاد عبد اللطيف، وعثمان، سيد أحمد. **التفكير؛ دراسات نفسيّة**، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٢م، ص١٠٢-١٠٤، بتصرف.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المرحلة التأسيسيّة هي مرحلة تشمل تغيير الفرد، بإيجاد أصول الدين عنده، مع وجود التأسيس لتفريعاته، لبناء عقيدة متصلة الجوانب في نفس الإنسان، تربط جوانب العقيدة والتشريع ببعضها، لذا فإن التدرج فيها تدرج تداخليّ يقوم على إدراج لفكرة كليّة تنبني على فكرة كليّة أخرى سبقتها، فالتذكير بسابقتها تذكير لما انبنت عليه، مما يحقق إعمالاً للعقل في إيجاد الرابط بين أصول الدين وفروعه، وهكذا إلى أن يقوم أساس البناء القرآنيّ متكامل الجوانب، مترابط الأسس، ينبني بعضه على بعض، لا ينفك ولا ينفصل، وبناء على ذلك يتحقق نفي التعارض بين عقيدة الدين وتشريعاته -أي أصوله وفروعه-، فيكون من وظائف البناء الفكري تنظيم الأصول العقدية تنظيماً دقيقاً، يحقق الانسجام بين النفس ومرادها، وبينها وبين قضايا الدين المنسجمة بذاتها، مراعياً الأولويات في الاعتبار. وقد نهج القرآن في تحقيق المنهجية الفكرية ما يأتي:

- **تقرير العجز الفكري والسلوكي لتصفية العقل من مسببات الانحراف وتخلية النفس من العناد:**

لقد جاء القرآن الكريم ليبني إنساناً متوازناً، قادراً على القيام بأعباء الخلافة، ولم يكن ذلك قد تحقق في عصر الجاهلية، لفقدانهم المنهج الرباني الذي لا يستقرّ حال الإنسانية إلا بوجوده، فلو فكّر إنسان ما في السؤال التالي: كيف أثار القرآن رغبة الإنسان في التغيير؟ لكان الجواب من جهتين باعتبار أحوال المستقبل للمنهج القرآني:

الأولى: إثارة رغبة التغيّر في النفس المستسلمة للواقع، اليائسة من وجود ما يخرجها من سوء حالها، مع سخطها على الواقع الذي تحياه، فإنك لو تأمّلت حال هذه النفس لوجدتها تُخفي رغبة شديدة للتغيّر، إلا أن هذه الرغبة مقترنة بالخوف من الصعوبات والمشكلات التي ستنجم في حال حاول هذا الإنسان أن يخرج عن العادة التي فرضها عليه هذا الواقع، وهذا هو حال العرب قبل مجيء

القرآن الكريم، حياتهم تنقضي وهم يفرّون من الصعوبات لِمَا في عقولهم من تحجّر يجعل النفس واقفة دون السعي إلى ما يغيّرها، وهكذا تُجْتَثّ عملية التغيير من أساسها في النفس، لشعور الإنسان بالعجز أمام المشكلات والانحرافات الكثيرة المسيطرة على الواقع، ولربما كان مسمى النفوس الاستسلامية هو ما يصوّر حال النفس في مواجهتها لأحداث الواقع، ففي الحقيقة شعور الإنسان بالعجز عن تغيير الواقع المليء بالانحرافات المسيطرة هو ما يمنع الإنسان القيام بالمحاولة؛ لأنها داعية لليأس المنتج للعجز.

الثانية: ولما كان العجز النفسيّ لمواجهة الصعوبات سائداً، كانت الحكمة من نزول القرآن معجزاً للناس، ومذكّراً بقدرة الله الذي لا يُعجزه شيء سبيلاً لكسر حاجز العجز أمام الواقع، الذي استقرّ في نفوس الناس حينئذ؛ فالإنسان في طبيعته لا يتغيّر إلا إذا واجهه ما يستدعي ذلك، والأمر الذي يواجه الإنسان يكون عاملاً خارجيًّا يعمل بوصفه مثيراً للرغبة في التغيير، فإذا كانت النفوس ذات الطابع الذي ذُكر في الجواب الأول؛ أي: النفوس الاستسلامية، يتوجه ذاك الاستسلام من استسلام للواقع إلى استسلام للقرآن المعجز؛ لأنه أعجز الإنسان عن الاتيان بمثله، وفي الوقت ذاته رفض الواقع المنحرف، فوجه استسلام النفس نحوه، وأعطاها ما يوافقها من حلول تتناسب مع فطرته، وتقنعه بالحق، فلا تحاول التحدي والمعارضة، بل تلجأ إلى المناداة بالحلول التي جاءت بالقرآن آملة النجاة مما فيها.

أما إذا كانت من أصحاب النفوس المعاندة، فهي الفئة المسيطرة التي كان انحراف الواقع من صنعها، والموجة للانحراف، كي يخدمها ويحقق مصالحها، ولما جاء ما يعارضها ويعجزها كانت المحاولات المتتابعة لإيجاد طريقة للتفوّق على القرآن الذي أعجزها، وكلما زاد العجز عن التفوّق زادت الرغبة في التوجه نحوه، وصار معها لهذا الكتاب المعجِز مكانة وإجلالاً، وكلما كان له مكانة كان الاستسلام لما جاء به ألزم للنفوس، وأقوى حجة أمام المعاندين، وكلما لزم الاستسلام للقرآن كان وجوب التغيير بمنهجه أوجب.

ومن هنا: فإن الإنسان لا يتغيّر إلا إذا ابتدأت عملية التغيير بشعوره بوجود أمر أعجزه، فإما أن يقف منكسراً أمام هذا الأمر، وإما أن يقف متحدّياً له، وكلما كان التحدي مشعراً بالعجز أمام القرآن الكريم ومستمًّرا، ازدادت الرغبة والرهبة لكتاب الله تعالى.

لقد كان من الحكمة أن يقوم المنهج القرآني بالتأسيس للبناء الفكريّ؛ إذ إن محوَ الأفكار السقيمة الموجودة في العقول هو أساس البناء الفكري، وقد استقر في العقول أن القويّ لا معجز له، وأن الظلم لا رادّ له؛ لأن الأفكار السقيمة نتاجِ سوء التفكير، ونتاج المعتقدات الفاسدة التي رسّختها البيئة الفاسدة، وطَرْدها من العقول من أهم المراحل التي لابد أن توجد في بدايات التأسيس لأي أمر يراد تغييره.

لقد تدرج القرآن الكريم في تخلية العقول من الأفكار الفاسدة من خلال التأكيد على ربانية المنهج القرآني، وقدسيّة القرآن الكريم وإعجازه، انطلاقاً من مبدأ "العجز عن درك الإدراك إدراك"[(١)] وكان هذا العجز النفسي (فكراً وسلوكاً) متحققاً بأنّ القرآن الكريم دائم التذكير بأن الإنسان مفطور على العجز عن قيامه بأموره، وحاجته إلى من يعينه ويكمّل نقصه ضرورية: فوردت الآيات الكريمة تؤكّد على أن القرآن جاء من عند الله بالمنهج الهادي للفطرة، والموجه للإنسانية نحو الحق الإلهي، وأنه هو دليل صدق النبيّ ﷺ؛ فشعور الإنسان الفطري بالنقص الذاتي، وقيام داع نفسيّ يؤكد وجود ذات كاملة الارتقاء به، وأن النفس البشرية لا تستطيع معرفة شيء ببداهة وتأكيد أكثر من معرفتها بوجود الله تعالى،[(٢)] ينشأ عنه شعور الإقرار والاعتراف بوجود عناية فوق العناية البشرية،

---

(١) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، م٤، ج٥، ص١١٦، وقد نسب هذا قول لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) ديكارت، رينه. **تأمّلات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى**، ترجمة: كمال الحاج، بيروت: منشورات عويدات، ط١، ١٩٦١م، ص١٦٢، وانظر كيف كان يبحث عن إله، وكيف كان يستشعر هذا النقص ويحاول البحث عن تلك الذات التي تكمّل نقصه، وكيف كانت فطرته تُلحّ عليه في ذلك.

تمتاز بالقدرة التي يعجز عنها الإنسان، ولا بد من طريقة توصل الإنسان إلى معرفة حقّة بالله الكامل الصفات، المتصرّف بأمور الإنسان والاستدلال عليه.

ولما عجزت النفس عن الإتيان بمثل هذا القرآن، كان قد استقرّ فيها الرغبة الكاملة للتغيّر، واليقين التام بأن ما جاء في القرآن الكريم هو الطريق الوحيد الموافق للشعور الفطري، والموصل لإكمال النقص الذاتي، فيؤدي إلى قيام المكانة الخاصة له، يقول عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، فإذا لم يكن للقرآن مكانة في النفوس واعتبار، فكيف يتغير هذا الإنسان وهو لا يعدّ أن القرآن هو الأصلح لتغييره؟ فيكون وجود مكانة للقرآن في النفوس نابع عن التوافق والانسجام بينه وبين الفطرة، دليلاً تلقائيًّا على صدق النبي الكريم ﷺ فيما دعا إليه، وهذه المكانة الخاصّة لهذا الكتاب هي من أهم الأسباب للخضوع له، والانصياع لأوامره، قال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ [النجم: ٥٩]، ووجه الدلالة في الآية العجب ممن كفر بهذا الكتاب العزيز الذي تشهد له النفس أنه لا يأتي إلا بما يوافق فطرتها، فكتاب له هذه المكانة التي تستسلم لها النفس استسلام الفطرة الصافية لا يكون إلا داعياً للإيمان والاستسلام والانصياع لأمره، فتخلية الفكر باستمرار الشعور بالعجز يذكر الإنسان بأن يعود إلى الفطرة السليمة، وهذا التذكير أحد أسس البناء المنهجيّ للفكر الإنساني الذي من خلال يكون تغيير معتقدات الفرد.

ومتحققاً كذلك بالتحدي لضمان استمرار الشعور بالعجز: وللتحدي دور في التأكيد على العجز، وللعجز دور في تخلية الفكر الإنساني من انحرافات الشرك التي تراكمت مع مرور الزمن، وهذه التخلية سبيل لطرد أي فكرة تؤدي لوجود غير الله في اعتقاد الفرد، ولقد جاء القرآن الكريم بالتحدي بكل حرف من حروفه من خلال عدّة اتجاهات:

الأول: التحدي بالإيجاد والخلق: قال الله تعالى في سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ

ﭐجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣]، فمن لا يقدر على خلق أقل الكائنات لا يقتدر بداهة على خلق ما هو أعظم، لذا فإن خلق الإنسان مظهر من مظاهر التحدي القرآني، وكذا خلق السماوات والأرض، وسائر المخلوقات؛ ولذلك كان الاستدلال بها كآيات على وجود خالق عظيم لإقامة العجز الإنساني عن الإتيان بأقلها، فعدم قدرة الإنسان على الخلق يعني حاجته إلى الذي خلقه، وتوجيه هذه الحاجة إليه، وهذا التوجيه هو بداية التغيير في النفس، فقال تعالى: ﴿ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٤]، لتنتهي سلسلة الاعترافات بالعجز للوصول إلى معرفة الله مقترنة بتأكيد شعور العجز في النفس، والقرآن يهدف إلى تغيير النفوس بتنقيتها من كل ما يخالطها من شرك بالله جل وعلا، أو اعتماد على غيره في كل حالات النفس، ومن هذه الوجهة كان للتحدي بالخلق دوراً في هداية النفوس إلى معرفة القادر على كل شيء جل وعلا وتوحيده، وهذه الهداية هي تغيير لما في النفس.

الثاني: التحدي الفكري: لقد بيّن القرآن الكريم العجز عن الخلق والإيجاد، وأقام الحجة على ذلك، وبما أن الإنسان هو المخلوق الأكثر تميزاً من بين المخلوقات، وله من قدرة الكلام، والتفكير، والعقل، واتخاذ القرار ما ليس لغيره، فما بال الإنسان القادر على التحدث ببلاغة القول وفصاحته عاجزاً عن قول كلمات ببلاغة القرآن الذي جاء بكلمات من كلماتهم، وما بال التفكير المستمر قد عجز عن صياغة نظم مثل نظمه، وهو قد نزل على قوم اعتقدوا أنهم وصلوا القمة في ذلك، ليأتي داحضاً ذاك الاعتقاد فيدركون أنهم لم يبلغوا شيئاً من البلاغة والفصاحة أمام كلمات الله؟ ليدرك الإنسان عجْزاً آخر يجعل منه مسلوب القدرة الفكرية، والإقرار بعدم القدرة يصل إلى درجة كسر الاستعلاء النفسيّ لوجود من هو أعلى؟ فوجود العجز الفكريّ بكل ما تضمّن من مراحل هو أحد أهم مظاهر الإفراغ الفكري، وتخلية النفس من قناعات الجاهلية لإعادة تشكيل التفكير المنهجي السليم المغيّر لاعتقاد الفرد، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ

﴿فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤]، "ففي قول الله: ﴿.. وَلَن تَفْعَلُوا۟ ..﴾ إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم، ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها،"[١] كما أشار الرافعيّ بأن "العقيدة قد محته -القرآن- من قانون التحوّل والتغيير وجعلته في ذلك قانوناً وحده،"[٢] ليكون مغيّراً دون أن يتغيّر، ويكون القرآن في قمّة الثوابت المغيّرة للإنسانية كلها.

فالقرآن الكريم عندما يفرغ العقول من القدرة مع وجود المحاولات لمعارضته، واليقين بسلب قدرة الجوارح من العمل الحالي والمستقبليّ، بكامل العجز الإنساني، يحقق أمراً مفصليًّا بدايةً للتغيير وهو الاستسلام النفسيّ للفرد من عناد الكفر والضلال، وكسر الاستعلاء الكامن في النفس المانع من تغييرها، فينقاد -بعد معترك مع نفسه- مع فطرته السليمة التي تبدأ من الشعور بالنقص، وترغمه أن يبحث عن كل ما يحقق له التقدم والارتقاء، فالعجز عن الإتيان بمثل القرآن يعدّ بداية لتحقيق الهدف المنهجيّ البيانيّ، وذلك هو أول الأمور الموجِّه نحو التغيير الفردي، والمقيمة لأسسه؛ إذ إنه عملية تحفيزّية باعثة لشعور الاستسلام النفسيّ للإنسان فرداً أو جماعة، وهذا الاستسلام يجعل لديه الاستعداد للانقياد للأوامر الربانية في القرآن الكريم، كما أن كثرة المحاولات للإتيان بمثل القرآن، يعني محاولة الإحاطة بما جاء فيه، ومحاولة التعرّف إلى ما فيه سبيل أمثل، ليستمع الإنسان لما جاء فيه، وإتاحة الفرصة أمام العقل أن يفكّر فيما يأمر به وينهى عنه، وهو سبيل لمعرفة النفس بالحق القادم فيه.

---

(١) القرطبي، عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. **الجامع لأحكام القرآن**، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٢٠١.

(٢) الرافعي، مصطفي صادق. **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، تحقيق: عبد الله المنشاوي، القاهرة: مكتبة الإيمان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، المقدمة ص٩.

- **توجيه التفكير توجيهاً منهجيًّا لإقامة البناء الفكريّ السليم:**

لقد استخدم القرآن الكريم في إعداد جاهزيّة التفكير وتوجيهه للفرد للاعتقاد السليم عدّة قضايا أساسيّة، من أهمّها:

• **استخدام الفرضيات العقلية لإيجاد القدرة على اتخاذ القرار المناسب السليم:**

إنّ طريقة إيجاد الفرضيات، وإجراء المقارنات، والجمع بين مجموع الأفكار الخارجية، وإيجاد العلاقات بينها من تناقض أو توافق، للخروج بصحّة أحد الفرضيات دون غيرها، سبيل لتخلية الفكر، وطريقة مهمة في إقامة البناء الفكريّ المنهجيّ، الذي بقيامه يعني اتخاذ القرارات المتناسبة مع منهج القرآن الكريم.

وقد استعمل القرآن الكريم هذه الطريقة في بناء قواعده، وأسسه العقدية، فمثلاً عند تثبيت فكرة إعجاز القرآن يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢]، فافتراض أن القرآن ليس من عند الله يؤدي إلى النتيجة الحتمية وجود اختلاف كثير؛ أي لن يجدوا القرآن بما فيه كما هو، فهذا كفيل لإعطاء القرآن الكريم المكانة الخاصّة في النفس، لتخليتها من أي مؤثر على قراراتها، أما في فكرة وحدانية الله تعالى قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فافتراض أكثر من إله غير الله يؤدي إلى نتيجة ظهور الفساد، وهذه الفرضيّة موصلة لتغيير النفس من الشرك إلى الوحدانية لله وحده.

إن التفكير باستخدام الافتراضات يؤدي إلى قيام عملية التفكير بمقارنة بين مجموع الأفكار السقيمة المترسبة في عقل الإنسان، بالأفكار السليمة التي أتى بها القرآن، والمقارنة بينهما تؤدي إلى نتائج صحيحة، وقرار سليم، وكلها تنتهي بالاستجابة للحق الذي يقبله المنطق العقليّ، وبهذا يكون للتفكير الفرضيّ دورٌ هامّ في تحريك التغيير نحو الاستجابة للقرآن الكريم من خلال المقارنة بين الحق والباطل مقارنة منطقيّة منهجيّة.

• **تشكيل منهج البحث الكيفي:**

وأقصد بالبحث الكيفي هو طلب المعارف من خلال توجيه سؤال (كيف) في التفكير الداخلي، ومحاولة الإجابة عن هذا السؤال عند البحث عن المعرفة التي وُجّهت النفس إليها. فمثلاً إن قلت: كان النبيّ ﷺ أحسن الناس خلقاً، فإنك إن أردت أن تصل إلى المعرفة الحقّة فإنّك تسأل نفسك؟ كيف كان النبيّ ﷺ أحسن الناس خلقاً؟ فتأتي للبحث في سيرته لتجده كان يقوم في خدمة أهله، وكان يدفع بالتي هي أحسن، وكان رفيقاً بالضعفاء، وكان صادقاً أميناً... إلى آخر أوصافه وأعماله وأخلاقه ﷺ، فتجد نفسك قد وصلت إلى حقائق دقيقة شاملة لمنهج النبيّ ﷺ الخلُقي، وتجد نفسك قد خضت بالتفاصيل لتزداد بالقضية المطروحة، والأسباب، والأحوال التفصيلية لها.

ولم يكن هذا البحث إلا دعوة قرآنية منهجية تراها في آيات الكتاب الحكيم، فمثلاً منها ما يكون من خلاله توجيه التفكير نحو كيفية الحدث وسببه لا الحدث نفسه؛ إذ تعدّ هذه المرحلة من التفكير ذات أهميّة لإيجاد التحوّل الفكري، والعقدي، والأخلاقي عند الفرد، فهي تُعمل القدرة على التوصل للمسبِّبات من خلال التفكير في كيفية الأسباب، وردّ كل الأمور العظيمة إلى مسببها وهو الله، لدحض شعار التقليد الفكري، والتحجر العقلي، ولإيجاد عقلية ناقدة ذات منهجيّة استفهاميّة قائمة على أسس التفكير المستقيم، فعندما يردد الإنسان قول الله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، معناه "عرفنا يا إلهنا ما في كل شيء من كيفية دلالته على ذاتك وصفاتك وقدرتك وعلمك،"[١] ومثال التفكير في كيفية الحدث لا الحدث نفسه قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٢١]، فقد صرف التوجيه القرآنيّ التفكير من النظر إلى التفضيل إلى التفكير في كيفية التفضيل ليصل الإنسان في تفكيره إلى المعرفة الحقة لسنة الله تعالى في تفضيل بعض الناس على بعض.

---

(١) الرازي، **التفسير الكبير "مفاتيح الغيب"**، مرجع سابق، ج١، ص٢١٨.

إنَّ التفكير في الكيفية موقظ لملكة التمييز والتفريق، ومحفّز لموهبة الربط الدقيق بين المعلومات، وترتيبها تحت أصل واحد، لإيجاد ميزان حكميّ سليم على الأمور، وكذلك الأحداث والمعلومات والأشخاص، فمعرفة الإنسان لكيفية الأحداث تؤدي به إلى معرفة أسبابها، وطريقة الحياة ومعناها، ومتطلبات الاعتقاد السليم، وإقامة القرار السليم القائم على اعتبار ما يقدر الإنسان عليه وما يعجز عنه، وبهذا يتقدم الإنسان نحو تحقيق التوازن الفكري والسلوكي، وهذا كله نقلة من نقلات التغيير لما في النفس.

إن لهذه الوجهة من التفكير أصولاً قرآنية، فللقصة القرآنية دلالات على التفكير في الكيفيّة؛ لإحداث التحوّل الفكري عن طريق التبيّن، الذي بدوره يحقق العلم الموصل إلى اليقين المستقر في النفس، وهذا العلم كفيل لتغيير النفس إلى ما أراد الله تعالى في كتابه.

فمما ورد في سورة البقرة عن قصة الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، ما دلل على قدرة الله تعالى على الإيجاد والبعث عندما يتأمّل الإنسان في كيفية الإيجاد؛ إذ إن البحث الكيفي سبيل هامّ، لتحقيق الهدف البياني في الاكتساب والتوجيه، كما قال تعالى: ﴿... وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، فقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾ دليل على أنه عندما عرف الكيف وصل إلى البيان، وعندما وصل إلى البيان وصل إلى إقرار نفسيّ بضرورة الإيمان، وهذا القرار هو تغيير لما في النفس.

وقد أدرك إبراهيم عليه السلام أهمية وجود دعامة التفكير في الكيفية بوصفها منهجيّة سليمة لبناء الأسس العقلية، وتدريب العقل على إيجاد الحلول للمشكلات الحياتية، ومدى فاعليته في تثبيت دعائم الإيمان إلى درجة ارتقائها حتى الوصول إلى الاطمئنان، ولقد دعا ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى، وجاء قوله تعالى مبيِّناً ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي...﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وفي هذه الآية ملمح هامّ أن الإنسان إذا تبيّن من أمر ما يؤدي هذا البيان الحاصل إلى تغيير نفسه حتى وصولاً به إلى الاطمئنان القلبي

والإيمان اليقيني، وهذا من مقاصد البيان القرآني، وهو إيصال النفس المأمورة بالتغيير إلى الإيمان اليقيني من خلال الاطمئنان القلبي الناشئ عن تبيان الأمور والتبصّر في الحقائق، وهو دليل على وجود قاعدة عدم الإكراه في الدين، وأيضاً دليل على وجود كامل لإرادة الإنسان في اختيار طريقه، وهي من أهم الأمور المقيمة لدعائم الاعتقاد، والمنظمة للعلاقة بين العبد وربه على الطواعية.

كما أن البحث في كيفية نشأة الخلق وإعادته، وكيفية وجود المخلوقات التي سُخّرت للإنسان، وكيفية الأحداث الكونية... إلخ، كلها دلالات واضحات على ضرورة إنشاء منهجيّة التفكير من خلال الاستفهام الكيفيّ في الحقائق والأحداث، لتغيير ما في النفس تغييراً سليماً، يبدأ من بناء الفكر على استقبال تعاليم القرآن الكريم، فقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩ - ٢٠][1] دلالة على أن النظر في كيفية بداية الخلق وإعادته استدلال على قدرة الله تعالى المطلقة، وفي مقابلها عجز الإنسان المطلق، وهذا يولد شعور الإجلال، والانصياع للقدير الذي لا يُعجزه شيء، ووجود الرغبة في التوجه إلى من مَلَكَ المُلْك بالطاعة والاستسلام.

فكل الآيات السابقة أدلة على التفكير الكيفي الذي يسهم في البحث المستمر المنضبط -بالمنهج القرآنيّ- لموجد الخلق، وإذا توصل الإنسان إلى معرفته معرفة سليمة خالية مما تسرّب إلى العقل من أسباب الانحراف الفكريّ في الاعتقاد؛ بدأ تأسيس العقيدة القرآنية عندها، وبدأ معه تغيير الإنسان وتوجيهه نحو الإقرار بعبوديته لله تعالى، فبإعطاء العقل المجال للبحث والتنقيب في إيجاد العلاقة بين الإنسان والكون والحياة؛ لإنشاء التصور الذاتي

---

(١) والآيات في ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧]، ففيها دلالات للتفكر في كيفيّة خلق هذا الكائن، ليرى الإنسان من كمال قدرة الله في الخلق، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان: ٤٥]، دلالة في التفكير في كيفية هذه الظاهرة.

العملي، عندها يتسنّى له تنظيم الجزئيات المعلوماتية الواردة، وترتيبها حسب مقتضيات هذا التصوّر عن قدرة الخالق لإيجاد الخلق، مع مراعاة التمييز بين المعلومات صحيحها وسقيمها.

فجواب السؤال (كيف) يجعل الإنسان يفصل بين القضايا التي يستطيع إدراكها والتي يعجز عن إدراكها، فلو تساءلت النفس (كيف يستوي الله على عرشه) لوجدت أنها من الأمور والقضايا التي تستوجب العجز عن الإدراك، ولذلك فإن الإيمان بها يقتضي الالتزام بما وصف الله به نفسه في كتابه الذي ينظّم منهجية التفكير في قضايا الاعتقاد على الالتزام بما أمر الله تعالى في كتابه، وكذا التعامل مع الأمور الغيبية ليكون البحث الكيفيّ ممنهج على التسليم الخالص فيما يعجز الإنسان عن إدراكه، أما الجواب عن سؤال (كيف) فيما لا يتعلق بقضايا الغيب فهو كفيل بأن ينتج المعارف التي تتقدم بها النفس وترتقي في أمور الدنيا، وكذا أمور الدين، فيكون الإنسان منضبط المنهج في تفكيره عند التعامل مع القضايا والأحداث والأحوال ما دام منهج القرآن الكريم الداعي إلى البحث في الكيف هو الضابط لطريقة التعامل والإدراك، والضابط لطريقة التوصّل إلى نتائج التفكير المنهجيّ وانعكاس هذه النتائج في النفس وعلى السلوك.

إنَّ إهمال البحث عن إجابة لسؤال (كيف) في العقل البشريّ يؤدي إلى عدم استمرار نتاج التفكير المنهجي بوصفه دعامة من دعائم التغيير؛ بسبب التشتيت الحاصل للنفس لشتات المدخلات ونتائج التفكير، فالتفكير هو المغذي الأول لقيام الأسس الأخرى، والرابط بينها، وعدم انتظامه يؤدي إلى تجميد عملية التغيير، بسبب عدم وصول الفائدة من الأساس المحرك لعملية التغيير وهو: (التفكير)؛ إذ يكون سبب هذا التعطيل انتفاء التكامل في عمل استعدادات الإنسان المعرفية، وانتفاء انسجامها أيضاً.

كما أن للتفكير الكيفيّ منهجاً تربويّاً واقعيّاً تغييريّاً، فيوجّه القرآن الكريم الإنسان للنظر المتأمل في كيفية عقاب من استحق العقاب، وإثابة من استحقّ

الثواب، وذلك لمعرفة سنن الله تعالى الجارية في الإنسانية، والتي تشكّل الدور التربوي في التحفيز النفسي للفرار من مسببات العقاب، فجاء القرآن بلفت النظر إلى كيفية العقاب في آيات كثير منها قوله تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥]؛ فالنظر في الكيفية له دور أساس في الاقتناع العقلي بما جاء في القرآن؛ لأنه -البحث الكيفي- بحث شامل لمعارف كثيرة؛ منها الوصول إلى زيادة المعارف في الحياة، والبحث في الأسباب، وعندها يقرر الإنسان طريقه بالإيمان أو الكفر والانتماء لواحدة من الزمرتين.

- الضبط المنهجي لإرادة الإنسان وفق سنن تحكم الإنسانية فيقدّر نتائج أفعاله من خلالها، وهو تنظيم نمط التفكير السنني:

إن ضبط إرادة الإنسان وفق قوانين يقدر الإنسان على توجيهها، وتسييرها في الحياة هو من أهم القضايا التي ركّز على تفعيلها المنهج القرآني، ليضمن للفرد والجماعة سلامة وجهتها، واستقامتها.

لهذه المسألة عدّة جوانب تظهر في الإجابة عن المسألتين التاليتين: المسألة الأولى: ما العلاقة بين إرادة الله تعالى وإرادة الإنسان؟ والمسألة الثانية: ما دور كلّ من الإرادتين في الحياة؟

أما جواب المسألة الأولى، فالعلاقة بين إرادة الله تعالى وإرادة الإنسان لها عدّة جوانب يتضمنها جانب الربانية والعبودية؛ أي ما أراده الله بنا، وعندها هي إرادة تشمل كل شيء، ومن هذا الجانب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: ١]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [الحج: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿... وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وعليه فإن العلاقة بين الإرادتين أشبه براكب سفينة، وهذه السفينة تتابع مسيرتها في البحر، فالراكب حر مختار في السفينة، يفعل بإرادته ما يشاء، ولكنه مجبر مسيّر هو وسفينته بعوامل خارجية تحيط به وبالسفينة، كالأنواء، والعواصف

وغيرها، مما يتصل بسلامة السفينة وقوة احتمالها،[1] وكذا الإنسان في حياته، حر في تصرفاته، ولكن عندما تُذكر في مجال عبوديته لله تعالى، فإن إرادة الله تعالى هي التي تسيّرها.

ولو سأل سائل عن دور كلّ واحدة من الإرادتين في تحريك الحياة والتأثير فيها، فيكون جوابه: إن الانضباط وفق قانون يجعل لإرادة الإنسان المجال لتأخذ دورها في تحريك الحياة، وكذا فإن لإرادة الله تعالى دور في تحريك الحياة، وتحريك الحياة سنة مشتركة بين الإرادتين، وهذه السنة هي تشريع ربانيّ حكيم. وبمعنى آخر كذلك، هناك قواعد تنظم حركات الإنسان الإرادية، ولهذه القواعد افتراضان رئيسان:

الافتراض الأول: إذا قام الإنسان بعمل ما، أو امتنع عن عمل ما، وهذا العمل من أوامر الله تعالى، فإن إرادة الله تعالى تقتضي مقابلة الامتثال بأوامر الله تعالى أنه يريد بالإنسان اليسر، ولا يريد العسر، ويريد أن يتوب على الإنسان، ويريد أن يخفف على الإنسان، ويريد أن يكون مقابل الامتثال لما أمر الله تعالى ما يكون مناسباً له، والنتيجة إذا أحسن الإنسان أحسن لنفسه؛ لأنه ملاقيه.

الافتراض الثاني: إذا قام الإنسان بعمل ما، أو امتنع عن عمل ما، وكان هذا العمل مما نهى عنه الله تعالى. وعندها يريد الله تعالى لهذه الفئة من الناس ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة، ويريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم... إلخ فتكون النتيجة أن مَن أساء فإنما أساء لنفسه؛ لأنه ملاقيه.

وهذه الجوانب كلها ضمن سنة إلهية شرّعها للإنسانية كي تستقيم، وهذه السنة جاءت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١]. فمثلاً انظر قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ [التغابن: ١١]، تجد أن الجانب المختص بتحريك إرادة الإنسان في حياته ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ فهو لما آمن

(١) الخطيب، عبد الكريم. **التفسير القرآني للقرآن**، القاهرة: دار الفكر العربي، (د. ت.)، ج٤، ص ٢٧٩، بتصرف.

كان ذلك بكامل إرادته لم يكرهه أحد على ذلك، ومن ثم تنتقل الآية الكريمة إلى تحقيق دور الإرادة الإلهية في أن من آمن ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾، فنتيجة الإيمان أنه قد اهتدى، والإنسان إذا اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، وقس عليها كل آية فيها دور للإنسان في العمل، ودور لأمر الله تعالى في مقابلة هذا العمل.

إن الضبط والتنظيم لإرادة الإنسان وفق قوانين شرّعها الله تعالى يجعل الإنسان ذا معرفة لطريقة سيره، ودراية بنتائجها، فيكون الإنسان قادراً على قيادة نفسه وفق هذه السنة وهذه القوانين، فإرادة الله تعالى "هي السلطان الآمر للإنسان، والموجّه لكل أعماله وأقواله، فإذا غيّرت النفس اتجاه مسيرها، تغيّر تبعا لذلك سير الإنسان في الحياة، وفى إضافة التغيير إلى اللّٰه سبحانه وتعالى، إشارة إلى أن إرادة اللّٰه سبحانه وتعالى هي التي أجرت هذا التغيير الذي أحدثه الإنسان، كما أنها هي التي حركت إرادة الإنسان نحو هذا التغيير... ومعنى هذا أن إرادة اللّٰه سبحانه وتعالى إرادة شاملة، تدخل فى محيطها كل إرادة، فلا إرادة لمريد، إلا تبع لهذه الإرادة... وأن إرادة الإنسان إرادة متحركة عاملة في محيط إرادة اللّٰه العامة الشاملة... ولكنها لا تخرج فى تحركها وعملها عن إرادة اللّٰه... وفى هذا يقول اللّٰه سبحانه: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾[الروم: ٤] ويقول سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]."[١]

والخلاصة: أن نتاج البناء الفكريّ السليم متمثّل فيما يأتي: إرساء قواعد التفكير المنهجيّ من إفراغ للعقول بإظهار عجزها. وإيجاد قدرة التفكير المنهجي السليم باستخدام الفرضيات العقلية، وتوجيه التفكير نحو كيفية الأحداث وأسبابها. والضبط المنهجي لإرادة الإنسان وفق سنن تحكم الإنسانية.

يشكّل الفكر المستعد للاستقبال والمعالجة السليمين، دوراً هامّاً في عملية التغيير؛ إذ إن اجتماع سلامة استقبال المعارف، وسلامة معالجتها يؤدي إلى ضمان سلامة تشكيل البناء العقدي المُحكَم لأصول الدين، بوصفه جذراً متيناً لا

(١) المرجع السابق، ج٧، ص٨٢.

يجتث في نفس الإنسان، وهذا البناء يكون على نحوٍ يستدعي النهوض بالفرد من الحضيض الإنساني، وظلمات الجهل، والشرك، متوجِّهاً به ضمن أسس إلزاميّة ارتقائيّة نحو النور المتمثل بالسمو والرفعة الإنسانيّة الأساسيّة، لينتقل الإنسان بعد الالتزام الداخليّ إلى دائرة الالتزام الخارجيّ في سلوكه، ليكون هذا السلوك انعكاساً عن عقيدته التي بُنيت بالمنهج الرباني، في وجهة عليا إلى تحقيق الكمال الإنسانيّ كما يمثله المنهج القرآنيّ في التغيير.

٢- قواعد بناء التصور الاعتقادي السليم عن الذات الإلهية

إن بناء العقيدة السليمة في النفس الإنسانية هو الأساس الأهم في التغيير الفردي؛ فلا بد للإنسان أن يَعْرِف الآمر قبل أن يَعْرِف الأمر، كما لا بد أن يكون هذا البناء العقدي منضبطاً بالمنهج القرآني؛ أي أن يُبنى بالطريقة التي وردت في القرآن دون تأثّر بأي مؤثّر؛ أي وجود أيّة معلومة مدسوسة من فئة أو جهة، فللبحث في الأسس العقدية ناحيتان: "إحداها إلهية والأخرى إنسانية، فالإلهية قوامها معرفة حق الله تعالى في أن يُعرف على الوجه الصحيح بتصوّر سليم عن ذاته، والناحية الإنسانية تقوم على رفع مستوى الإنسان، ليؤدي وظيفته في الوجود؛ أي الارتقاء به على نحو يتفق مع شرف نسبه وأصل خلقته؛"[١] إذ ترتبط الناحية الثانية بالأولى ارتباط الفرع بالأصل، لتكون الأولى قوامها، "فالتصور الاعتقادي هو أداة التوجيه الكبرى، إلى جانب النظام الواقعي الذي ينبثق منه، ويقوم على أساسه، ويتناول النشاط الفردي كله، والنشاط الجماعي كله، في شتى حقول النشاط الإنساني،"[٢] فمعرفة الله تعالى تكون من خلال معرفة آياته القرآنية، أو آياته الفعلية في الخَلْق، أو آياته الفعلية في أحوال العباد، ومعرفة أيٍّ منها يفضي إلى معرفة الأمور الأخرى لوجود العلاقة الوثيقة بينها.

لقد بدأ القرآن الكريم عند تغيير عقيدة الفرد من "الحقيقة الإلهية التي يصدر عنها الوجود، ثم يسير مع هذا الوجود في كل صوره، وأشكاله، وكائناته،

---

(١) الغزالي، محمد. **كيف نفهم الإسلام؟**، دمشق: دار القلم، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص١١٢-١١٣ بتصرف.

(٢) قطب، سيّد. **خصائص التصوّر الإسلاميّ ومقوماته**، (د. م.): (د. ن.)، ط٢، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص٤.

وموجوداته، مع العناية الخاصة بالإنسان بوصفه خليفة في هذه الأرض، ثم يعود بالوجود كله مرة أخرى إلى الحقيقة الإلهيّة التي صدر عنها،"[1] ليشمل تصوّره دقائق الكون، والإنسان، والحياة مبتدءاً ومنتهىً.

كما أرسى القرآن الكريم القواعد الأساسية في بناء تصوّر سليم عن الذات الإلهية المستحقة للعبادة والتوحيد، واستخدم لذلك الأساليب المتنوّعة، بهدف التوصل لتحقيق الهدف البيانيّ في هذه القضيّة، وسعى لتقويم نفس الفرد متصلاً بكل لحظاته بجذور عقيدة متينة، باتصال أمره كله بإله أول كل شيء وآخره؛ إذ لابد من الاعتصام بحبل الله المتين، ليتحقق وعد الله بالجزاء والنعيم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٥]. ويحتوي هذا الأساس البنائي لعقيدة التوحيد على عدّة قواعد مرحليّة منها:

- عدم إكراه الإنسان على التغيير العقدي (التغيير الطوعي):

إن بناء الدين على قاعدة عدم الإكراه أو الإجبار يحمل أبعاداً تغييريّة في حياة الفرد، تمتاز بانها طويلة المدى، وينبني عليها اعتبارات تجعل من الثبات على عقيدة القرآن الكريم الواردة في منهجه أمراً محتَّما، كما أن أول المسؤوليات التي يتحمّل الفرد نتيجتها في عملية تغيير النفس هي الاختيار للعقيدة السليمة بعد تحقق البيان الإلهيّ بالقرآن الكريم، والسنة النبويّة الشريفة؛ إذ إن الاختيار الطوعي يعني الالتزام الطوعي لتعليمات المنهج القرآني، فقال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فقوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ هو دليل على تحقق الهدف البياني الذي يحتّم على الإنسان أن يتغيّر نحو منهج الله تعالى الذي امتاز بالرشد، وقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾؛ أي إن من أخذ التغيير منه مأخذاً فقد وصل

---

(١) قطب، محمد، **منهج الفن الإسلامي**، بيروت: دار الشروق، ط٦، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٦، بتصرف.

كل أموره بعقيدته التي امتازت بأنها العروة الوثقى، يقول الرازي في معنى العروة الوثقى:[1] "العروة هي الشيء الذي يتعلق به، والوثقى تأنيث الأوثق، وهذا من باب استعارة المحسوس للمعقول؛ لأن من أراد إمساك شيء يتعلق بعروته، فكذا هاهنا من أراد إمساك هذا الدين تعلق بالدلائل الدالة عليه، ولما كانت دلائل الإسلام أقوى الدلائل وأوضحها، لا جرم وصفها بأنها العروة الوثقى،"[2] وهذه العروة تمتاز بأنه لا انفصام لها؛ أي لا انقطاع يشوبها ما دام الإنسان مستمسكاً بها، فالاستمساك بعروة الدين طواعية تضمن اتصال "العمل بالباعث، وتصل الباعث بالله،"[3] وإذا كان باعث العمل متصلاً بالله فقد اتصلت أعمال الفرد كلها بعقيدته، وعندها يتحقق التغيير الفردي في تحقيق التوحيد الخارج من أعماق النفس الإنسانية.

وقد جاء التصريح القرآنيّ بهذه القاعدة في سورة مدنية، وهذا لا يمنع من وجود المبدأ في العهد المكي، من خلال التطبيق قبل التصريح، فقد نزلت الآية بعد أن قام الإسلام عليها، فلم يُذكر أن النبيّ ﷺ قد عمل على إكراه أحد لدخول الإسلام عمليًّا، وهذا دليل على قيام الدين على هذا المبدأ منذ بدايته.

وقد بيّن القرآن الكريم بالغ العجب من عدم توجه الناس إلى منهج الله تعالى، فقد أعطاهم الإرادة والاختيار بعد أن تبيّنوا بأنفسهم أن التغيير إلى منهج الله هو الحق بعينه دون أدنى شك أو ريب، فقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، "والهمزة في: ﴿أَفَغَيْرَ﴾ للإنكار والتنبيه على الخطأ في التولي والإعراض،"[4] فقد كان من تكريم الله تعالى لهذا الإنسان أن تركه يختار المنهج الذي يضمن له السعادة بعد معرفته.

---

(١) مرّ سابقاً معنى العروة في التمهيد عند التعليق على الحديث: "ليُنقضنّ الإسلام عروة عروة".

(٢) الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج٧، ص١٥، تفسير سورة البقرة ٢٥٦.

(٣) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج ٤، ص٢٠٩٤.

(٤) أبو حيان، **تفسير البحر المحيط**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٣٧.

ويترتب على قيام الدين على هذا الأساس عدّة مسوّغات نفسية، وسلوكية. أمّا المسوّغات نفسية: فتقوم عقيدة الفرد على أساس الرغبة لا الرهبة، تمهيداً لارتقاء إيمانه وزيادته، وتحقيقاً لتفعيل الالتزام الذاتيّ عنده، فهو بمثابة تعاقد مبنيّ على رضا الطرفين، لقيام تجارة لن تبور، لضمان النجاة والسعادة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الصف: ١٠ - ١١]، فيكون قيام الدين بالنسبة للفرد على أساس تحمّل مسؤولية اختياره، ويكون الدين مغيّراً للنفس بتفعيل الإرادة في اتخاذ القرار من أول خطوة في اتباع منهجه، مقترناً بالشعور بالمسؤولية. وأمّا المسوّغات السلوكيّة: فتعني خروج ما بني على طيب النفس بطيب النتاج، وبما أن السلوك نتاج النفس فيكون ما بني على اعتبار الرضا النفسي، والاختيار الطوعيّ منتجاً للسلوك الطيّب الدائم، قال تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٨]، فدخول الفرد في الدين هو لحظة التغيير المبنيّ على الرضا النفسيّ بالهدي القرآنيّ المنتج لطيب القول والعمل الأخلاقيّ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٢٤﴾ [الحج: ٢٤].

- البناء المنهجيّ للتصوّر الاعتقاديّ السليم عن الله تعالى:

التصوّر هو النظرة الشاملة،[1] و"فعل التصوّر هو حصول صورة الشيء في العقل، أو إدراك ماهية الشيء، من غير أن يحكم عليها بنفي أو إثبات،"[2] ويكون تشكيل هذا التصوّر مرتبطاً باستحضار الصور الحسية، فهو درجة الانتقال من الحس إلى العقل، وهو نهاية عملية التفكير.

إن ما في الواقع الحاليّ بما فيه من انقسامات نتيجة الانحرافات الفكرية على المستويات الفردية والجماعية كافة، من أكثر سبل الانحراف الذي يدسّ الانحراف العقدي في النفس الإنسانية بدسّ الأفكار السقيمة والخاطئة، لتنتج

(١) مجمع اللغة العربية. **المعجم الفلسفي**، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٨٣م، ص٤٥.

(٢) الحفني، **المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة**، مرجع سابق، ص١٩٧.

تصوراً خاطئاً، وهذا ما جعل لأعداء الدين مدخلاً فسيحاً للتغيير ضد منهج الله تعالى، وهو الوسيلة التي تعدّ سلاحاً لإحياء الانحراف المسبب للفرقة في الاعتقاد، إلا أن حفظ سلامة المنهج الرباني المتمثل بحفظ القرآن من التحريف والتبديل، هو السبيل الوحيد في تعديل مسيرة العقيدة في نفوس الأفراد والجماعات، وضبطها وفق المنهج القرآنيّ القويم، فهو المنهج المغيِّر المحفوظ من التغيير، الحافظ للعقيدة السليمة، والتصوّر السليم عن الله عزّ وجل، وقد غيّر القرآن التصور عن الذات الإلهية "الله" من خلال عمليات تصحيحيّة وبنائية، وعلى ذلك التغيير العقدي كان قيام السلوك الإنساني منضبطاً بما ورد في الآيات البيّنات في كتاب الله تعالى، "ولقد أبدى عمر بن الخطاب ﷺ تخوفه مما وقع فيه الناس اليوم... فقال: ستنقض عرى الإسلام عروة عروة،"[١] قيل وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: "إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية."[٢]

ويقوم بناء التصور الاعتقادي السليم على تصحيح التصوّر عن الله تعالى، وتخلية العقول مما ترسب إليها من انحرافات تؤدي بالإنسان إلى الشرك والضلال، وهذه الانحرافات المترسبة مصدرها ما ورد إلى الأمة من اليهودية أو النصرانية أو الحضارات الأخرى.

إن العملية التصحيحية في هذا الجانب هي من صلب موضوع التغيير في القرآن الكريم؛ لأن هدفها تعديل التصوّر للفئة التي تعرف الله تعالى، ولكن معرفة منحرفة تنتج سلوكاً منحرفاً، فقد هدفت الآيات القرآنية في كثير من المواضع إلى تصحيح مقدمات ينبني عليها قيام التصوّر السليم عن الله جل وعلا، ورفض الخلط والخطأ والانحراف في تصوّر الإنسان عن الذات الإلهية، ومواجهته بعدّة أساليب، فقبل نزول القرآن الكريم تراكمت الأفكار المختلفة، بعضها صحيح نابع من الديانات السابقة، وبعضها التبس الحق فيه بالباطل، وما تسلسل عنها من تصورات

---

(١) عُرَى الإسلام: أي حُدُوده، وأحكامه، وأوامِره، ونواهيه.

(٢) باشميل، محمد أحمد. **كيف نفهم التوحيد؟**، المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٤٠٨هـ، ص٢٧، ولم أجد لهذا القول ذكراً في المتون.

فاسدة خلال المدة الزمنية التي كانت ما بين النبي عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ، وكلها عوامل كفيلة بإيجاد انحرافات الفكر الإنساني في تصوّره للذات الإلهية، والذي بدوره يكون منبعاً للأحكام المنحرفة، وتطوّراً للخطأ والأوهام، وما ينتج عنها من اعتقادات فاسدة وعبادات زائفة؛ ليكون عصر الجاهلية الأولى[1] هو عصر اختلال الموازين والأحكام، واختلاط الأفكار السقيمة بالصحيحة، والخبيث بالطيب، والحق بالباطل، والخلق الذميم بالحسن، دون وجود ميزان إلهيٍّ يجتمع الناس عليه،[2] أو موجِّهٍ يلتف الناس حوله على كلمة إله واحد كما هي سنة إرسال الرسالات السابقة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [المائدة: ١٩].[3]

وقد ركّز القرآن الكريم على القضيّة المحوريّة، وهي التغيير العقدي بتعديل الفكر الإنساني، وذلك يكون بإيجاد تصوّر عن الله عزّ وجل ببلوغه "المثل الأعلى في صفات الذات الإلهية، وتضمّن تصحيحاً للضمائر وللعقول في تقرير

---

(١) ولا يتميّز هذا العصر كثيراً في الانحراف العقدي وصولته في الواقع الحالي، ففي الجاهلية الأولى لم يكن القرآن قد نزل بعد، أما جاهلية هذا العصر فهو انحراف رغم وجود الأصل المتين، والكتاب البيّن في كل قضايا العقيدة، والإشكالية العظمى في انحراف تفسير الآيات المخبرة عن الله ذاتاً وصفة، وفي هذا المعترك تنشأ جاهلية هذا العصر بعقيدة القرآن الكريم الصحيحة، والتي جاءت بها الألسنة والتأويلات ليلتبس الحق بالباطل، فأصبح هذا العصر أيضا عصر اختلال الموازين والأحكام، واختلاط الأفكار السقيمة بالصحيحة، والخبيث بالطيب، والحق بالباطل، والخلق الذميم بالحسن، ولكن مع وجود ميزان إلهيٍّ يجتمع الناس عليه.

(٢) وإن كانت هناك ديانات إلا أنها فِرَقٌ متفرقة بأتباعها، كلٌّ منها يرى نفسه على حق قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ [البقرة: ١١٣].

(٣) وهذه الآية جاءت في سياق الحديث عن اعتقادات النصارى الضالة المضلة بأنهم أبناء الله وأحباؤه، والبيان القرآنيّ بأن هؤلاء الذين يقولون على الله غير الحق ما هم إلا بشر ممن خلق، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء...

ما ينبغي لكمال الله بقسطاس الإيمان وقسطاس النظر والقياس،"[1] وقد سار هذا التصحيح -وهو تغيير عقديّ- للأفكار باجتماع عدّة أوجه، هي:

الوجه الأول: تصحيح الأفكار المنحرفة والسقيمة وتغييرها:

وهذه الأفكار المنحرفة كان مصدرها -وما زال- من فئتين:

الفئة الأولى: الأفكار المنحرفة التي ترسبت من الديانتين اليهودية، والنصرانية المحرَّفتين:

ومن أمثلتها قولهم بنسبة الولد أو الشريك أو الزوجة... إلخ لله جَلَّ وَعَلَا عن ذلك؛ إذ إن هذا الاعتقاد هو سبيل حصول الشرك الذي لا يغفره الله تعالى لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، والشرك في حقيقته انحراف عقديّ ناشئ عن اختلاط المعارف السليمة بالسقيمة المنشئة للتصور عن الله تعالى، فجاءت الآيات لتنزيه الله تعالى عن النقائص التي ترسبت من أفكارهم المنحرفة، فمنها عند النصرانية ديانة التثليث،[2] وقد توالت الآيات القرآنية في إنكار هذا الانحراف، وتنزيه الله عنه؛ لتنفي هذه الفكرة كليًّا من أساسها كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: ١٧١].

---

(١) العقاد، عباس محمود. **"الله" كتاب في نشأة العقيدة الإلهية**، القاهرة: دار المعارف، ط٧، ١٩٧٦م، ص١٥٥، بتصرف.

(٢) والنصارى مع فرقهم مجمعون على التثليث ويقولون: إن الله جوهر واحد وله ثلاثة أقانيم، فيجعلون كل أقنوم إلها ويعنون بالاقانيم الوجود والحياة والعلم، وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس، فيعنون بالأب الوجود، وبالروح الحياة، وبالإبن المسيح، في كلام لهم فيه تخبط، ولتفصيل آراء النصارى في التثليث، انظر:

- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. **الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح**، القاهرة: مطبعة المدني، (د. ت.)، ج٢، ص٩٢-١٠٦.

كما كان للقصة القرآنية دور في الإخبار عن موقف عيسى عليه السلام تعريفاً يثبت حقيقة انحرافهم؛ لنقض تلك الانحرافات واجتثاثها، فقال تعالى مخبراً عن موقف عيسى عليه السلام من انحرافهم: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦ – ١١٧].

وقد بيّنت الآيات أن اعتقاد اليهود والنصارى بادعاء ابن لله –تعالى عن ذلك– هو من أقوالهم التي لا تستند على قاعدة دينية، إنما قاعدتهم مردُّها إلى الهوى والضلال، مقلّدين من سبقهم، هادفين إطفاء نور الله بأفواههم، محرفين الكلم عن مواضعه، مريدين الضلال والإضلال[1] فقال تعالى:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠ - ٣٢]، لذا فقد أشار القرآن في عدّة مواضع إلى تحريف بني إسرائيل الكلم عن مواضعه، منها قوله تعالى: ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ... ﴾ [النساء: ٤٦].

وجاءت الآيات الكريمات لدحض اعتقاد اليهود والنصارى بادعائهم الخصوصية بما قرره القرآن الكريم من كرامة تعمّ الإنسانية كلها، فقد اعتقدوا أنهم أبناء الله تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، فجاءت الآيات القرآنية ببيان واضح لانحراف هذا الاعتقاد السقيم، وبيّنت المساواة لجميع الخلق في الاعتبار الإنسانيّ، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ

---

(١) وهذا مندرج تحت ما أسميته بمعركة الحق والباطل التي ذكرتها في التمهيد من قبل، انظر التمهيد.

﴿ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨ ﴾ [المائدة: ١٨].

كما أن القرآن تضمن تصحيحاً للفكرة الخاطئة بأن الله يحتاج إلى واسطة لعبادته، باتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، "فالكمال الإلهي ليس له حدود، وكل ما ليس له حدود فلا عازل بينه وبين موجود،"[(١)] فالاعتقاد بأنه لا مانع يقف في وجهه، ولا عائق يعيق التواصل معه، ولا من قادر يقدر على أن يحول بين الله وعباده؛ لأنه هو من بيده كل شيء، ولا رادّ لأمره، كلها تزيل من النفس شعور اليأس، لوجود ركن أمين تركن إليه النفس إنابتها، لذلك قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ... ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال أيضاً على لسان يعقوب عليه السلام ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]، فالإله المعزول عن عبيده فكرة منحرفة نفاها القرآن، وبيّن أن الله هو الإله القريب، ويترتب عليها تقرير الوحدانية لله في كل أمر، لتتوجه العبودية له وحده، وليس لأحد أيّة واسطة للاستمساك بالعروة الوثقى المتمثلة بسلامة الاعتقاد بكماله وتنزيهه عن كل النقائص المدسوسة في الاعتقادات المنحرفة.

الفئة الثانية: الأفكار التي ترسبت من الحضارات الأخرى (الديانات الوثنية):

لم يتأثر العرب -الذين نزل القرآن فيهم- في جاهليتهم باليهود والنصارى فحسب؛ إنما كان -وما زال- للموقع الاستراتيجيّ للبلاد العربية، واتصالها بالحضارات الأخرى أثر كبير في تحريف الفكر الإنساني، وتلويث الحضارة العربية بالأفكار السقيمة المستقرَّة في النفوس الخبيثة، المنتجة للعمل الفاسد والخلق البذيء، فقد انتقلت العبادة الوثنية لبلاد العرب -على حسب الروايات- عن طريق عمرو بن لحي،[(٢)] سابقاً، أما الآن فسهولة التواصل بين الحضارات كفيلة بتأثر الفكر الإنسانيّ بسموم أفكارهم.

(١) العقاد، **"الله" كتاب في نشأة العقيدة الإلهية**، مرجع سابق، ص١٥٦.

(٢) الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب. **كتاب الأصنام**، تحقيق: أحمد زكي، القاهرة: الدار القومية، ١٤٤٣هـ/١٩٢٤م، ص٢٠.

وعرف العرب الأوثان والأصنام متأثرين بالحضارات الأخرى، فمثلاً الآلهة الثلاث "ود" وهو: القمر، "اللات" وهي: الشمس، و"العزى" وهي: الزهرة، وهو نفسه ما كانت تدّعيه الحضارة البابلية، فالإله "سين" القمر، و"شمش" الشمس، و"عشتر" الزهرة،[1] والتشاؤم والتفاؤل بالحيوانات والجماد والنبات... إلى آخره من اعتقادات تقود للإشراك بالله تعالى.

وجاءت الآيات الكريمة برفض الشرك من أساسه، ونادت بنبذه، فقد عرضت أسماء الآلهة التي كانوا يعتقدون نفعها، وبيّنت أنها مجرد أسماء اتبعها الآباء، لا سلطان لها، مصدرها الظن الخاطئ والهوى المائل؛ وهذا البيان القرآني جاء لتخلية عقول الناس مما اعتادوا عليه من عبادة غير الله تعالى، وتغيير هذا الاعتقاد السقيم، فقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٣]، وقد بيّن القرآن حقيقة العناد في الاعتقاد بتلك الآلهة، وضلالهم وإضلالهم الذي لازمهم، وذكر سوء أقوالهم فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾ [نوح: ٢٣ - ٢٤].

إن أهمية ما جاء به القرآن الكريم من دحض لتلك المعتقدات المترسبة في العقول من الديانات والحضارات الأخرى لهو من المنهجية القائمة على التفريغ الفكري من الاعتقاد المنحرف، وهذا التفريغ تخلية تعنى إيجاد الفكر الإنساني خالياً من كل الشوائب التي تكدّر اعتقاد الإنسان؛ لكي يتم التحكم بعمليّة التأثّر بالبيئة الخارجيّة، وهذا التحكم يعنى السيطرة على عملية التغيير الفردي، لضمان

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٥١، هذه معاني الآلهة عند اليونان، إلا أن إطلاقات العرب على أسماء الأصنام كانت بنفس المسمى، ولكنهم كانوا يقصدون بها أمكان خاصّة بهم يتعارفون عليها بهذه المسميات، ولمعرفة مقصدهم من أسماء الآلهة التي ذكرتها الآيات انظر:

- الجارم، محمد نعمان. **أديان العرب في الجاهلية**، القاهرة: مطبعة السعادة، ط١، ١٣٤١/١٩٢٣م، ص١٤٣- ١٥٨.

توجهها نحو الحق الذي جاء به القرآن الكريم، وليميز الله بذلك الحق من الباطل، والطيب من الخبيث، فيتم تأسيس البناء العقدي تأسيساً قائماً على الحق المبين والفكر المتين، والاعتقاد الذي يمتاز بأنه عروة وثقى لا انفصام لها.

الوجه الثاني: البناء على المفهومات السليمة:

إن معتقدات اليهود والنصارى لم تكن كلها سقيمة، فقد تأثر العرب بما هو صحيح منها أيضاً تأثرهم بالسقيم، وقد جاء القرآن مادحاً أهل الكتاب الملتزمين بالحق المتبعين له، قال تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، لذا فإن من آمن منهم، ودخل في الإسلام، كان له دور في التصحيح تارة، وفي التأييد والنصرة لما نزل به القرآن الكريم في أخرى.

فمن المعتقدات السليمة التي تأثر بها العرب وجود نبيّ سيرسل، وله صفات، وأن ما سيأتي به هو الحق، وأن على من عاصره اتباعه، وقد أوضح القرآن ذلك مع بيان موقف أهل الكتاب من هذا النبيّ، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الصف: ٦]، فيكون لهذا التبشير الدور التشويقي للنفوس الآملة بأن تتغير الحال بالخروج من الظلمات إلى النور.

كما كان أصحاب الديانات مؤمنين بالله تعالى، إلا أن إيمانهم مشوب بخلل فكريّ وانحراف اعتقاديّ، فمثلاً لم يكن عند اليهود أن يعبدوا أحداً مع الله تعالى من تماثيل وأصنام، فقد كانوا يؤمنون بوحدانيته، إلا أن عبادتهم له كانت باعتقاد وجود الواسطة التي توصلهم إلى الشفاعة من الله، وهذه الواسطة هم الأحبار، وهذا أحد جوانب تعديل المفهومات التي مرّت سابقاً.

الوجه الثالث: تشكيل البناء المعرفي الخاص بمنهج القرآن الكريم:

وجاءت الآيات الكريمات بالبيان الذي يجعل المعرفة التامة عن الله تعالى معرفة منهجية بصبغة قرآنية، ويكون ذلك بالحقائق الآتية:

حقائق الإيمان بالله تعالى:

أما حقائق الصفات الإلهية كما هي في القرآن الكريم: فهي "كل صفة يمتنع أن يوصف بها غير الباري جل وعلا،"[1] وهي من الممكنات العقلية التي لا يدرك العقل أحداً موجوداً بمثلها حقيقة غير الله، ولقد جاءت الآيات القرآنية بتعريف تامّ وشامل للإله الحقيقيّ المعبود بوصف دقيق عما يليق به جل وعلا قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الشورى: ١١]، فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فيه تخلية للعقول من وجود المثيل له، وإتباع هذه التخلية بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فيه إثبات للسمع والبصر دون تشبيهه بخلقه، ولا تكييف ولا تعطيل، وعلى هذا يقوم التوازن البنائي للعقيدة الإسلامية، وهذا من أهم قضايا التغيير؛ إذ إن الاعتقاد بوجود الله بما وصف نفسه في القرآن، واستشعار هذه الصفات يعطي الإنسان من الإيمان بالله ما يعينه على إقامة حياته على عقيدة الإسلام، كما يدعم جانب الرقابة الذاتية في النفس الإنسانية، لتتحقق مرتبة الإحسان التي جاءت في الحديث الشريف: "قَالَ مَا الْإِحْسَانُ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ،"[2] وبتغيير اعتقاد النفس إلى أن تصل إلى هذه المرتبة يعنى نماء الرقابة الذاتية التي تضمن ربط الدين بالحياة في أدق التفصيلات.

---

(١) السنوسي، أبو عبد الله. **شرح السنوسية الكبرى**، تحقيق: د. عبد الفتاح بركة، الكويت: دار القلم، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص١٧٢.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الإيمان، بَاب سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ، م١، ج١، ص٨٩.

الحقائق الوحدانية، بيّن القرآن الكريم إنكار كثير من الناس لها، منها ما جاء في سورة الأعراف ما قالته عاد لنبيّها، ومن استمساكهم بانحراف سابقيهم، فقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، والتأكيد على الوحدانية سبيل كل الرسل، فقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فنفي وجود إله إلا الله تعالى يتحقق بنفي النفس تأليه ما سواه، والجزم بانفراده بكامل الصفات، ويشير الرازي إلى أن معنى قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢]، "إشارة إلى كونه واحداً، بمعنى نفي الشركاء والأنداد والأضداد."[1]

وقد كان من أكثر الموضوعات التي حازت على أكبر قدر من التأكيدات في القرآن وحدانية الله في أكثر من موضع، وباستخدام أكثر من أسلوب؛ لأن الوحدانية لله هي المبدأُ والغاية النهائية للتغيير كما بيّنه الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم، "فأعظم العاقلين عنه -الله- العارفين به، وأعظم الناس عقلاً الذين أقروا بالعجز أنهم يبلغون في العقل والمعرفة كنه معرفته،"[2] كما أنه "هو مبدأ الاعتقادات كلها، ولأن من لم يؤمن برب واحد لا يصل إلى الإيمان بالرسول أو بأركان أخرى؛ إذ الإيمان بالله هو الأصل، وبه يصلح الاعتقاد، وهو أصل العمل."[3]

وعند التوصل إلى وحدانية هذا الإله العظيم لا بد من "الإيمان بتنزيه جهة الأمر -الله- عن الخطأ والقصور، والثقة بعلمه وقدرته على إنجاز وعْده ووعيده، وهذا من شأنه أن يزيل حوافز الاعتراض، ويسيّر عملية الاستجابة

---

(١) الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج١١، ص٣٦٣.

(٢) المحاسبي، الحارث بن أسد. **شرف العقل وماهيته**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٦٨م، ص٣٣.

(٣) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، م١، ج١، ص٢٦٢.

ويدفع بها قُدُماً نحو آفاق جديدة في طريق تمثّل أخلاق الكمال الإنسانيّ،"[1] وكلها نقلات تحتويها عملية التغيير الفردي في المنهج القرآني؛ إذ عمل القرآن الكريم على إيجاد تفاصيل الإقناع بوحدانية الله تعالى باستخدام الاستدلالات العقلية، وبالتنبيهات للأمور الفطرية، والوعيد لمن أشرك بالله تعالى.

واتخذ القرآن الكريم من فطرة الإنسان مدخلاً للتذكير الدائم بوحدانيته، فقد أشار إلى فطرة الإنسان المتغيّرة عن أصلها الموحّد لله، عند الرجوع إليه بشعور خارج عن الإرادة، باللجوء وطلب العون من الله وحده إذا ادلهمّت الخطوب، وسُدّت الأبواب، فيقول تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ... ﴾ [الزمر: ٨]، وضرورة الإقرار بالله وحده دون الشريك؛ لأنه يملك النفع والضر للإنسان دون غيره، وبما أن الإنسان مفطور على توحيده وجبت رجعته للخالق.

جاء في الآيات القرآنية ما يكوّن في النفس شعور التعظيم لله تعالى كقوله تعالى: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣]، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣]، فهذه الآيات تشعر الإنسان بالحدود التي وضعها الله تعالى للعقل الإنسانيّ، لإيقاف التفكير عندما يتجرّؤ على الله تعالى في تخيّل ما لا يليق بجلاله، وغالباً تأتي هذه العبارات بعد ذكر أقاويل الضالين في تشبيه أحوال الإله بالمخلوقين، أو الافتراء في نسبة الصاحبة والولد... إلخ التي تستدعي وجود الذات الإلهية متفرّدة منزّهة عن كل ما يعتري المخلوقات من أفعال.

إن الاقتناع العقلي بالعجز عن تصور الذات الإلهية، يؤدي إلى شعور بتعظيم الله المنفرد بهذه الصفات، وعند المقارنة بين صفات الله الواردة في القرآن، وصفات من دونه، فإن النفس تُقرّ بأحقيّة القيام بعبادة لله تعالى، المنزه عن كل نقص، فالتوجه إليه في كل الحوائج والأمور، وتغيير اعتقاد الفرد بأن هناك غير الله يقضيها، ذلك كله من أهم الأمور المتغيّرة بمنهج القرآن.

---

(١) برغوث، **منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية**، مرجع سابق، ص١٠٥.

حقائق البيان القرآني لصفات الله تعالى:

ومن هذا البيان آيات الصفات في القرآن الكريم، فالقرآن جاء بمنظومة بيانية تجعل من العقل الإنساني متوقّفًا عند فهم صفات الله تعالى، فالصفات الإلهية التي جاء القرآن الكريم مخبراً بها تشكّل التصوّر السليم عنه وردت بعدّة أوجه.

الأول: الإخبار صراحة عن صفات الله تعالى: كما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣ - ٢٤]، وهذا له دور في تعريف الإنسان بصفات الله جل وعلا، ليعلم أن الله ليس كمثله شيء، فكل آيات الصفات تجمعها آية واحدة تبيّن كمال الله تعالى، وعظمته ورفعته، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

والثاني: الاستفهام الذي يستلزم جواباً يشير إلى صفات الله تعالى ودوره إيجاد الاقتناع العقليّ بوجود إله له من الصفات ما لا يوجد في مخلوق، ومثاله ما جاء من آيات بينات تشير إلى صفة الرحمة التي تشمل المخلوقات، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦ - ٤٧]، ووجه الدلالة على صفاته التي تضمنتها الآية الكريمة هو الرحمة المتمثلة في الله الذي يمنح الإنسان استعدادات من سمع وأبصار وقلوب، ثم هذا الإنسان يصدف عن ذكر الله والإيمان به، ومن رحمة الله أنه يمهل الإنسان، إلا أن هذا الإله شديد العقاب أيضاً وهذا ما دلّت عليه الآية (٤٧) التي عقبت بالفئة التي ستهلك؛ لأنها لم تستعمِل ما آتاها الله تعالى من رحمته في شكر نعمته وهي فئة "الظالمون".

ودور هذا العرض لصفات الله تعالى التوازن في معرفة صفات الإله المستحق للعبادة، فيتغير التصوّر عند استشعار صفات الرهبة مقابل الرحمة مثلاً، والإحياء مقابل الإماتة... إلخ.

وأمّا الثالث: فالزجر والتبكيت لمن يدعي صفات النقص وينسبها إلى الله سبحانه، ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ...﴾ [المائدة: ٦٤]، وهذا إظهار لقدرة الله تعالى على المفترين، وتحقير لمن تسوّل له نفسه وصف الله بما لا يليق به لتنزيهه.

والرابع: التسلسل في إنشاء التصوّر لصفات الذات الإلهية: ومنها ما بيّنه القرآن الكريم من صفات القدم والبقاء... إلخ، فمثلاً: إن لصفة قدم الله تعالى وبقائه ووصفه بأنه الأول والآخر اعتبارات مغيّرة للتصوّرات عن الذات الإلهية، فكونه أولٌ وآخرٌ "بمعنى لا ابتداء ولا انتهاء له في ذاته من غير استناد لغيره فهو الواجب القدم المستحيل العدم،"[1] فيوقن الفرد أن بدايته من الله ونهايته إليه، وبما أن منه المبدأ وإليه المنتهى يكون هو المالك لكل شيء، فهو قبل كل شيء، راجع إليه كل شيء، ومن المعروف أن من يملك الشيء أحق به، إذن فهو أحق بالتصرف بكل شيء، يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣]، وهذا كله يوصل الفرد إلى الاستسلام بأنه ملك لله وأنه إليه راجع، فيتحقق في النفس اعتقاد جازم بمضمون الآية الكريمة: ﴿...إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فيتغيّر الإنسان من فرد يظنّ ألن يقدر عليه أحد إلى إنسان يعلم أن لا قدرة له إلا بإذن واحد أحد، ويولّد توكّلاً عليه في كل أمر هو فيه.

والخامس: كثرة التأكيدات على تشريف صفات الله تعالى، وتتضمن:

العلم الإلهيّ المطلق: وقد كثر التأكيد على هذه الصفة بعدّة أساليب، بل إن القرآن أورد في بعض الآيات أن بعض ما يحدث في هذا الكون يكون مقصده العلم بأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، فشمل بعلمه كل ما يحقق للإنسان السعادة والاستقامة في الدنيا والآخرة، ووضع له المنهج الذي يكون الإنسان موازناً فيه بين فطرته وحاجاته وغرائزه، فعند ورود لام التعليل في لفظ ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ

(١) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، ج١، ص٢٠٧.

وَٱلْقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٧]، فعلمه "يتأتّى بكشف الأمور والإحاطة بها على ما هي في الواقع أو ما ستكون عليها في المستقبل."[١]

وقد أشارت آيات القرآن الكريم إلى أن علمه من قبل الخلق وإلى ما بعد الخلق، كما قال للملائكة قبل خلق آدم: ﴿... قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، وأكّد على ذلك بعد خلق آدم فقال ﴿... قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٣]، ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء كما بيّن في قوله ﴿... يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ...﴾ [البقرة: ٢٥٥]، و"كونه عالماً" كما جاء في كثير من مواضع القرآن ذكر هذه الصفة كقوله تعالى: ﴿... وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [النور: ٣٥]، فهو عالم "بعموم تندرج فيه الكليات والجزئيات؛"[٢] أي: "علمه النافذ في جميع الكليات والجزئيات[٣] الواصل إلى جميع ذوات الكائنات والممكنات... فكونه تعالى خالقاً إشارة إلى صفته بأنه عالم،"[٤] "فنبّه تعالى -في القرآن- بعلمه بما في السموات والأرض بالكلية الشاملة، ثم بعلمه بما يسر العباد وما يعلنونه أي بكل ما في النفس، وهي جزء مما في الأرض، ثم بعلمه بكل ما أكنَّتْه الصدور، وهي جزء مما في النفس، على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء،... فابتدأ بالعلم الشامل للعالم كله، ثم بخاص العباد من سرّهم وإعلانهم، ثم ما خص منه، وهو ما تنطوي عليه صدورهم من خفيِّ الأشياء وكامنها،"[٥] فقال عزّ وجل: ﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤]، ففي هذه

---

(١) البوطي، محمد سعيد رمضان. **كبرى اليقينيات الكونية**، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٦٩م، ص١٢٠.

(٢) أبو حيان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، مرجع سابق، ج٤، ص٢٩.

(٣) معنى الكليات: العلم الشامل لكل الموجودات، والجزئيات: العلم بتفاصيل الأمور ودقائقها، انظر:
- الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، م٤، ج١٢، ص٤٧٤.

(٤) المرجع السابق، م٤، ج١٢، ص٤٧٤، بتصرف

(٥) أبو حيان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، مرجع سابق، ج١٠، ص١٨٩.

الآية يعدّ أبو حيان أن العلم المذكور فيها في معنى الوعد والوعيد؛ إذ هو تعالى المُجَازِي على جميع ما يعلم مما يسرون وما يعلنون بالثواب والعقاب.[1]

وقد بيّن القرآن الكريم العلاقة القائمة بين علم الله تعالى واختيار الإنسان؛ إذ إن قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٣]، إشارة إلى أن علم الله تعالى بحال الإنسان قبل خلقه وبعد خلقه سرّه وعلانيّته وما سيكسب في حياته، دليل على علمه بما سيختار الإنسان في حال كونه مختاراً، وعلى هذا يكون عالماً بمن سيهتَدي ومن سيضِل، وبناء عليه يكون الله عالماً بأهل الجنة وأهل النار، لعلمه المسبق باختيار الإنسان، بعد أن هيَّأ للناس كل أسباب الاختيار السليم، بإيجاد الاستعدادات المناسبة، وإنزال القرآن تبياناً لكل شيء، وإرسال الرسول عليه السلام، وتشريع الأحكام... إلخ، وعلى هذا فلا مناص للنفس، ولا عذر لها ولا مفرّ ولا حجة، ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزمر: ٥٧]، وعند بيان هذا الأمر يستشعر الفرد ضيق الأمر في الدنيا قبل الآخرة، ليكوّن الشعور النفسي الناتج عن الخسران في الدنيا والآخرة، فيتوجّه الإنسان إلى إعادة النظر في الأمور، لتغيير وجهته ومنهجه الحياتيّ.

اتصاف الله بالقدرة المطلقة: وقد بيّن الله تعالى بأنه على كل شيء قدير؛ إذ "تتأتّى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه وتكييفه،"[2] فالقدرة صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، وقدرته على الخلق من أكثر المواضع القرآنية بياناً لقدرته قال تعالى ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧]، فآيات الخلق بيان على قدرة الله تعالى، فالإيجاد متعلق بها.

---

(١) لقد عدّ أبو حيان هذا الموضع وعيداً فقط –انظر المرجع السابق نفس الاقتباس–، إلا أن ما يظهر لي من الآية –والله تعالى أعلم– أن العلم مطلق يفيد الوعد لمن آمن لنيل الثواب، والوعيد لمن ضل لنيل العقاب، فلا ينحصر في الوعيد دون الوعد، وقد جاء في سورة التغابن التعريف بالله تعالى وبنعمه، والتعريف بالإنسان من إذ اختياره بين الهدى والضلال، فعندما قال تعالى في الآية الثانية من السورة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ... ﴾ دليل على علمه بسرّ الإنسان وما يعلن من خير أو شرّ، فيكون العلم المذكور في الآية للوعد والوعيد حسب حال الإنسان، فالإنسان يخفي خيراً ويُظهر خيراً، كما أنه يخفي شراً ويُظهر شرًّا.

(٢) البوطي، **كبرى اليقينيات الكونية**، مرجع سابق، ص١٢٢.

إن الدلائل الكونية على وجود الله تعالى تتضمن تلقائيًّا ما يدل على وجود موجد واحد يتصف بقدرة فوق قدرة البشر، وتتعلق القدرة في الإيجاد والإبداع، "فمن قدرته القدرة التي لا يمتنع عليه معها شيء أراده، ولا يتعذر عليه فعل شيء أراد فعله."[1]

إن اعتقاد الفرد بوجود قدرة الله تعالى كما وصفها القرآن الكريم تُغيّر اتجاه النفس من الشعور بحاجة غيره لتسلك مسلك التوجه إليه في كل الأمور، وهذا التوجه هو مرحلة هامّة في عملية التغيير النفسي، فغنى الإنسان عن الخلق، وحاجته إلى الخالق لهي من أهم الأمور التي تحقق إيماناً ثابتاً دائماً بدوام طلب توجه هذه الحاجة لله عزّ وجل، وما سعي القرآن الكريم بمنهجه لتحقيقه إلا توجيه الحاجات إلى من يقدر على قضائها، وإلى من يملك أمر الخلق أجمعين، وهذه إن أقرّت بها النفس وصلت إلى مرحلة متقدمة من مراحل الوصول إلى التوحيد في النفس الذي بتحققه، بكل جوانب الإيمان بالله تعالى، وصفاته، يصل المؤمن إلى مرحلة اليقين بأنه لا يوجد أحد عالم قادر رحيم رحمن... إلخ إلا الله وحده لا شريك له، فإذا حاول الإنسان أن يطغى ردّه اعتقاده لوجود قادر عليه، وإذا حاول أن يظلم ردّه اعتقاده بأن الله سيقدر عليه، فمن يحسب أن لن يقدر عليه أحد يكون مختل العقيدة، مختلّ التصوّر لصفات الله تعالى القادر عليه، ومن هنا فإن اعتقاد هذه الصفة يضبط النفس لئلا تعتدي أو تتجاوز حدود الله تعالى.

وأمثلة بيان أثر هذه الصفة في القرآن كثيرة، فالعبد عندما يستشعر أن هناك من هو أقدر منه، وهذا القادر يقدر أن يحييه أو يميته، يقدر أن يرفعه أو يحطّ منه، يقدر أن يبطش به أو يرحمه، يقدر أن يرزقه أو يمنع عنه... إلخ من مظاهر القدرة، ويستسلم له، ويخشاه، وينظر في غضبه ورضاه... إلى غير ذلك من مظاهر الشعور بذات قادرة، وسأضرب مثالاً لأكثر الناس تجبّراً وتكبّراً وطغياناً وهو فرعون، فعندما جاء موسى بالبيّنات، وأسلم السحرة الذين كان إسلامهم ظهوراً للحق على الباطل، استمرّ فرعون في طغيانه، وتجبّره، فقتل دليل الحق وهم السحرة، كي لا يؤثروا في الناس، وزاد طغياناً يوم لحق بموسى ومن معه ليُنهي أمرهم كما فعل بالسحرة، كل ذلك كان دليلاً على استمساكه بضلاله، ولكنه أعلن تغيّره في

---

(١) الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، مرجع سابق، ج١٠، ص٣٠.

حالة بيّنتها الآيات في قول الله تعالى: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٠ - ٩٢]، فالناظر لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ يجد أن فرعون أعلن إيمانه، ومعنى إعلانه لإيمانه أنه أعلن تغيّره عن البغي والعدو الذي أصرّ عليه. كما أن هذا الإعلان كان مقترناً بقوله: ﴿ءَامَنتُ﴾ فعندما أدركه الغرق، وتيقّن أن هناك من قدر عليه، ووجد نفسه ضعيفاً أمامه، وأدرك أيضاً أنّ هذا القادر كان يملك حياته في تلك اللحظة، وأنه كما ملك حياته فهو يملك قدرة إماتته وإهلاكه، وعندما تمكّنت تلك المدركات منه، أعلن تغيّره نحوه، واعترف بقدرة هذا القادر عليه، إلا أنه أدرك هذا الأمر بعدما انتهت مدّة إمهاله في الدنيا، وبعدما لم يكن أمامه إلا ملك الموت قابضاً روحه، لذا كان وقت إدراكه المتأخّر هو المانع من قبول توبته.[1]

---

(١) ومن خلال هذه القضية لا بد من الإشارة لملحظ هام، هو أن التغيير لما في النفس له مدّة محددة لتحققه أي إنه مشروط بأمرين بغير وجودهما لا تُقبل عند الله تعالى:

الشرط الأول: أن يتغيّر الإنسان، ويغيّر ما في نفسه قبل غرغرة الروح، فإذا غرغرت الروح كان تغييراً غير مقبول والحساب على كل ما كان قبل هذه الغرغرة، وجاء في سنن الترمذي، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ)، قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ الْعَقَدِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِهَذَا الْإِسْنَادِ نَحْوَهُ بِمَعْنَاهُ، انظر:

- الترمذي، **سنن الترمذي**، مرجع سابق، كتاب الدعوات عن رسول الله، بَاب فِي فَضْلِ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَمَا ذُكِرَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ لِعِبَادِهِ.

أما الشرط الثاني: فإنه يجب على الإنسان أن يتغيّر قبل طلوع الشمس من مغربها، في حال طال به العمر إلى ذلك اليوم، للحديث الذي جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا فَذَاكَ حِينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ولما جاء في صحيح مسلم من قول النبيّ ﷺ: "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا"،
انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب تفسير القرآن، باب لا ينفع نفساً إيمانها.
- النيسابوري، **صحيح مسلم**، كتاب التوبة، بَاب قَبُولِ التَّوْبَةِ مِنْ الذُّنُوبِ وَإِنْ تَكَرَّرَتْ الذُّنُوبُ وَالتَّوْبَةُ.

وما بقي من صفات تختص بها ذاته جلّ وعلا منشؤها الإيمان بهذه الصفات الأساسية للذات الإلهية، فالصفات المترتبة على الإيمان بحقائق وجود إله واحد، هي الإيمان بأنه: (الحق، والنور، والظاهر، والباطن ومالك الملك، والملِك)، وما يترتب على الإيمان بصفة العلم من صفات: (اللطيف، والخبير، والشهيد، والحسيب، والمحصي، والواجد، والسميع والبصير، والرقيب، والمهيمن، والواسع، والمؤمن)، أما صفة القدرة فيترتب على الإيمان بها الإيمان بأن الله هو: (القوي، والمتين، والواجد، والعزيز، والمقيت، والوارث، والقاهر).[1]

والسادس الأخير: بيان أن من مستلزمات الإيمان بالله الإيمان بباقي الأركان:

إن اليقين بوجود الله إلهاً واحداً عالماً قادراً يستلزم الإيمان بكل ما أمر به، واجتناب كل ما نهى عنه، وبما أن الإيمان بالله إلهاً واحداً هو من أسمى الغايات التي سعى القرآن لتحقيقها، فالإيمان بكل ما يوصل الإنسان إلى هذه الغاية واجب بداهة؛ إذ كيف يعرف الإنسان ربّه إلا من خلال وجود رسائل منه، ورسل يوصلونها؟ لذا قال تعالى آمراً: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]، فكلها مستلزمات تتبع الاعتقاد الإيمانيّ بالله تعالى، فالإيمان بالله مرسل للنبيّ ﷺ بكتابه وكلامه وهو القرآن الكريم، ومنها يتم التصديق بكل ما جاء به الوحي، فالقرآن والسنة هما المنهج الإلهي الباني للعقلية الإيمانية، والموصلان إلى حقائق الذات الإلهية بكل ما يليق بها، وهما المحددان القويمان لكل ما وصف الله به نفسه، وما بيّنه من أسس اعتقادية تستقرّ في جوهر الفرد، وهذا الجوهر هو نفسه التي أُمر أن يغيّرها، فيقوم بناء الشخصيّة الإنسانية الفردية والجماعية على الاعتقاد بكل ما وصف الله به نفسه، تمهيداً لقيام أمة تحمل عقيدة الإسلام الصحيحة المصححة، لتكون خير أمة أخرجت للناس؛ هي أمة العقيدة القرآنية.

---

(١) الميداني، عبد الرحمن حبنكة. **العقيدة الإسلامية وأسسها**، دمشق: دار القلم، ط٧، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص١٣٩- ١٥٢.

فمن خلال توجيه فطرة توحيد لله تعالى، بتعامل مع المنهج الذي يعطي العقل التصوّر السليم عن الذات الإلهية، يجد الفرد نفسه أمام إله عظيم، ليس مدركاً بالبصر، ولا يدرك بالعقل، إنما مستقر الإيمان به يقيناً متجذّراً في القلب، وبعد أن تشهد له دقائق الأمور وعظائمها بأنه ليس كمثله شيء، كما قال تعالى في وصف نفسه: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وله المثل الأعلى كما وصف نفسه جل وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، يكون تصوّر الذات الإلهية تصوّراً لا يدرك إدراكاً عقلياً؛ لأنه لا يُشبّه بأحد، إنما هو إيمان يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، فيكون دور العقل موصلاً إلى الاقتناع، ودور الفطرة في التغيير هو الاستشعار الهادي لوجود الله، ودور القلب في استقرار اليقين بوجوده وجوداً سابقاً أبديًّا لا تحدّه حدود، ولا تصفه عقول، إلا ما جاء بكتابه الكريم.

إن حدّ الاستعدادات التي وضعها الله تعالى في الإنسان بحدود في أمور العقيدة، وإعادة النظر في تثبيت الحقائق السليمة عن الله الواحد المعبود كما جاء في منهج القرآن الكريم، لا يكون إلا بثبات الحقائق السليمة في النفس التي أمر الله بتغييرها، ومن خلال استقرارها واطمئنانها بوجود الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء، وبهذا تكون مستعدّة لتنفيذ أمر الله العظيم واجتناب نهيه، فإذا كان ذلك كذلك، تم ضمان سير الفرد سيراً قويماً كما أراد الله الحكيم.

إن قيام المعرفة فيما سبق، يوجد قيام الهدف الأساسيّ الأول المراد تحقيقه من عملية التغيير الفردي، وهو توحيد الله في المرحلة الأولى من مراحل الإنسانية، بإيجاد الفرد الموحّد لله تعالى المستعد للالتزام بكل ما أمر به، واجتناب كل ما نهى عنه، واجتماع الفهم لذاته وصفاته، والبيان لهما كما جاء في القرآن يجعل الاعتقاد مبنيًّا على أسس سليمة وقواعد متينة، وفهم البيان القرآنيّ خصلة يشترك فيها كل من امتلك الاستعدادات الفطرية، والخلْقية من حسيّة، وعقليّة، وشعوريّة،[1]

(١) المحاسبي، **العقل وفهم القرآن**، مرجع سابق، ص٢٠٨-٢٠٩.

والروحية كذلك، "فالبيان يسمى عقلاً؛ لأنه عن العقل كان،"[1] وبوجود الفهم والبيان لذات الله تعالى وصفاته كما وردت في كتابه، لا كما تمليها الأهواء، وتعتقدها النفوس الهوجاء، وتفعيل الاستجابة لهما تكون الاستجابة من الفرد بأول ركن من أركان الإسلام وهو ركن الشهادتين، "وهكذا تَرُدُّ العقيدة الصحيحة الناس إلى الوضوح والاستقامة في تقدير الأمور، وتَرُدُّ قلوبهم إلى اليقظة والتدبر فيما يقع لهم أو حولهم،"[2] فتكون شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله عقيدة ينطقها اللسان أولاً، وهي بمثابة إعلان عن قدرة التغيير على تحقيق إحدى مراحله، فالشهادة إذن إعلان تغيير النفوس من الظلمات إلى النور، والخروج عن أحكام الدنيا إلى أحكام الدين، والالتزام بمنهج الله تعالى دون غيره، هي أول هدف مرحليّ من أهداف التغيير حققه القرآن الكريم، ليرتقي الإنسان بعد استقرارها في جوهرة إلى جعلها مسلكه في حياته، عند العمل بمقتضياتها.

ثانياً: الأسس القرآنية الارتقائية، والكمال الإنساني النسبي للتغيير الفردي

١- الأسس الارتقائية لإحداث التغيير الفردي الإلزامي

إن من سنن العالم المحسوس التي تستدعيها طبيعة الحياة وحركة المخلوقات فيها، النظرة للتقدم الحياتيّ لمواكبة حركة الحياة المتغيّرة، ليكون التغيير ظاهرة طبيعية تُسخَّر لها جميع مظاهر الكون انبثاقاً من البُعدين المكاني والزمانيّ اللذين يشكلان هذه الظاهرة، وجَعْلُ هذه النظرة -للتقدم- عَمَلِيًّا غير مؤطرة بحدود، وغير ممنهجة المسيرة عند التقدم، يكون بمثابة ارتفاع لحْظِيّ ينتهي بالإنسان إلى تراجع بالانحطاط في دركات التغيير السلبي؛ لأنها عندئذ تقوم على عشوائية الحركة، كما أن التقدم والتطوّر السليمين يشملان تقدماً محدد الحركة داخل إطار ثابت وهو المنهج القرآنيّ، وتُطْلَقُ حول محور ثابت وهي عقيدة القرآن، لضبط التغيير والتقدم وفق أسس تقوّم الحركة وترتقي بها،

(١) المرجع السابق، ص٢٠٩.

(٢) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، م ٥، ج١٩، ص٢٦٤٤.

وهذا طابع الصنعة الإلهية في الكون كله، وبالنسبة للنفس الإنسانية فهي ضرورة من ضرورات صيانتها عن التغيير السلبيّ الذي يعني التراجع بها إلى ما لا يليق بطبيعتها التي جُبلت عليها.[1]

ثم إن النبي ﷺ قد أوضح في أحاديثه الصورة العامة عن الإسلام أصولاً وفروعاً عند بيان منهج القرآن في إقامة الارتقاء، بل استخدم أجلى الأساليب في تثبيت الفكرة العامة في الأذهان، وقد مثّل على ذلك بقوله: "ضرب الله مثلاً صِراطًا مستقيمًا، وعن جَنْبَتَي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً، ولا تعوجّوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك. لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم،"[2] وهذا الحديث الشريف عرض شامل للإطار الذي يحكم حركة الإنسان، والمحور الثابت الذي تدور حوله بحركتها، ومعرفة هذا الإطار تتيح للإنسان اتباع أحسن العمل.

وبما أنّ لفظ الارتقاء يدلل على الصعود،[3] فإن المقصود بالأسس الارتقائية القرآنية هي: الأسس التي تجمع بين الاعتقاد والعمل بمقتضياته، وهي ارتقاء

---

(1) قطب، **خصائص التصوّر الإسلامي ومقوماته**، مرجع سابق، ص٨٣- ٨٥.

(2) رواه الترمذي في سننه، وقال: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ"، وأحمد في مسنده. انظر:

- ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، مسند الشاميين من حديث النواس بن سمعان الكلابي الأنصاري رضي الله عنه، ج٢٩، ص١٨١-١٨٢.

- الترمذي، **سنن الترمذي**، مرجع سابق، كتاب الأمثال عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في مثل الله لعباده، حديث رقم ٢٨٥٩، ص٦٤٢.

(3) هذا المعنى اللغوي للجذر (رقي)؛ إذ إن له ثلاثة أصول متباينة الأول منها هو الصعود، والآخر عُوذَةٌ يُتعوَّذ بها، والثالث بقعةٌ من الأرض. انظر:

- ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج١، ص٤٨٠.

الاعتقاد بظهوره على سلوك الفرد، متأثراً بالعقيدة الكامنة في النفس، كانعكاس عنها؛ إذ يكون هذا الانعكاس بمثابة مقياس لمدى ولوجها في القلب، وهذه الأسس "جلية الخطر، فليس يدرك مكانتها إلا حكيم معنيٌّ بالأهداف العليا للتربية الدينية؛"[(١)] إذ إن في فصل الاعتقاد عن العمل فصل للدين عن حياة الفرد. وهذه الأسس متمثلة بقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥]، فيكون سلوك الإنسان في دائرة الحسن، ولكن الانتقال والتغيّر يكون من الحسن إلى الأحسن، حتى يزداد حسناً في إيمانه وسلوكه.

إن قيام حياة الإنسان على جوانب ماديّة ومعنوية، وارتباط هذين الجانبين بعلاقات التأثر والتأثير المتبادل، الناتجة عن التكامل الخلقي والنفسي للفرد، ذو أثر واضح على التغيير الارتقائي في حياة الفرد؛ فلا بد من الصعود المعنوي للنفس، لبلوغ أعلى درجات اليقين والاطمئنان القلبي، النابع من عمق الإيمان اليقيني بالله جل وعلا، أو بمعنى آخر زيادة الارتقاء بقيام الفرد بالالتزامات المفروضة عليه من الله بزيادة تفعيل الإرادة الإنسانية ضمن حدود منهج الله، فالإيمان القلبي وزيادته في النفس له انعكاس ملموس على السلوك، فهو يصل بالفرد إلى مرتبة الإحسان العملي، ومن هذه النظرة نجد أن النبي ﷺ فرّق بين مراتب الإسلام، والإيمان، والإحسان؛[(٢)] ليتسنّى للناس[(٣)] التنافس والسعي الحثيث، للوصول إلى درجات ارتقائية، "ليسير الإنسان على شعاع هاد من

---

(١) الغزالي، محمد، **كيف نفهم الإسلام**، مرجع سابق، ص١١٦.

(٢) سبق تخريج الحديث الشريف ص١٤٢، والحديث طويل عن أبي هريرة: "... وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَام فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا قَالَ صَدَقْتَ قَالَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ صَدَقْتَ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ..." إلى آخر الحديث الشريف.

(٣) أو بمعنى آخر حينما يتجسد التغيير بوصفه عقيدة ارتقاء في نفس الفرد فيسعى لطلب الأكثر كلما أنهى مرحلة متقدّمة في مسيرته المادية والمعنوية.

الكمالات الإلهية وراء مثله العليا، ويرقى في السلوك الإنساني كله رقياً تتحقق فيه المعرفة والفضيلة، ويتنزه به عن الدنايا والرذائل، ويبتعد به أتم البعد عن الخرافات والأباطيل،"[1] لضمان إقامة العقيدة في المجتمع المؤطر بأسس العقيدة الإسلامية القائمة في نفس كل فرد.

كما أن هدف القرآن الكريم إيجاد التقوى في القلوب لقوله جل في علاه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣]، وعلاقة التقوى بالتغيير علاقة متينة؛ إذ إن التقوى هي حفاظ على عقيدة الفرد التي تأصّلت في نفسه، فيُقال: "وَقَيْتُ الشيء أَقِيه إذا صُنْتَه وسَتَرْتَه عن الأذى... وحميته،"[2] و(تَوَقَّ) أي تجنّب،[3] والحفاظ على سلامة عقيدة الفرد يعني تثبيتها في النفس، وهذا التثبيت لا يخلو من زيادة الإيمان لقوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ [مريم: ٧٦]، وانتقال مرحلة الإيمان بالله من الاقتناع إلى الاستشعار بمراقبة الله تعالى، فالتقوى هي: "ملكة نفسانية تناسب الإسناد لمن قامت به (المتقي)، وهي العظة الحاصلة من استماع القرآن المثبطة عن المعاصي... بانتفاء فعل القبيح،"[4] ولا تكون إلا عند "ترك حظوظ النفس، ومباينة النهي؛"[5] لأنها تقوم على"الاحتراز عما لا ينبغي"[6] مما لا يوافق المنهج المنظِّم للحياة، وعلى ذلك جاء القرآن الكريم بتعريف للملتزم بالتقوى (المتقي) في مواضع فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨ - ٤٩]، فإذا سأل سائل: مَنْ هم المتقون؟ فإن الجواب:

---

(١) الغزالي، **كيف نفهم الإسلام**، مرجع سابق، ص١١٤.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة (وقي).

(٣) انظر: المرجع السابق الصفحات نفسها.

(٤) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، ج٨، ص٧٦٦، بتصرف.

(٥) الجرجاني، **التعريفات**، مرجع سابق، ص٦٩.

(٦) الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، م٩، ج٢٦، ص٤٣٢.

هم، ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥]، فالمتقي في الآية السابقة هو ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ...﴾، وفي اجتماع الآيات الذاكرة للتقوى والمتقين فيه إنشاء التصور للسلوكيات المحققة لهذه الصفة.

إن نتاج التغيير الحاصل في النفس هو قيام الإنسان بالسلوك المناسب للعقيدة التي اعتنقها، وإن قول جعفر بن أبي طالب لملك الحبشة[١] هو تصوير مقارِن بين واقع الإنسان قبل نزول القرآن الكريم، وواقع الإنسان بعد أن تغيّر بالقرآن، وذلك يعود إلى أن شمول التنظيم القرآنيّ لحياة الناس، من خلال فرض التزامات وجبت على كل من اعتنق عقيدة القرآن أن يعمل بها، وهذه الإلتزامات دقيقة المسلك، عميقة المعنى. وهي:

أ- تغيير النظرة للإنسان بإيجاد إلزاميّة التكريم للكيان الإنساني:

لقد جاء المنهج القرآني بتقرير الكرامة للناس أجمعين، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وأوضح القرآن الكريم كيف أتى على عالم ساد فيه ظلام وظلمات، فقال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، فالجاهلية اشتهرت بظلمات الظلم بهتك كرامة الإنسان قبل الإسلام، وقيام الأحكام الدنيويّة دون منهج ضابط لها، وكان ميزان العقل في الحكم على الناس ميزان منصب، ومال، وجمال، وجاه، حتى صارت المناصب والمال والشهوات أساس القيمة الإنسانية في ميزان البشرية، فتقوم قيمة الحياة للإنسان الذي لا مركز له ولا مال على المهانة والذل، حتى نتج عنها السخط النفسي على الحياة، وعمّ الجهل لأسبابها وغاياتها، فتاقت تلك النفوس للخلاص من هذه الحياة، بأمل يتجدد عند انتظار

---

(١) سبق توثيق هذا القول ص٢٢.

رسالة العدل –القرآن– التي انتشر خبر قدومها قبل مجيئها تمهيداً ربّانيّاً للنفس التي سيأمرها بتغيير ما فيها، وتحمّل كل الصعاب للوصول إلى قمم هذا التغيير.

إن الارتقاء في التعامل الإنساني بين الناس هو من أهم أسس التغيير الارتقائي، فالظنّ الذي في الجاهلية بأن هناك السادة والعبيد، وأن السادة هم الذين يملكون حق القتل للنفس والأولاد والاعتداء على الحرمات، وظلم المرأة ووأد البنات، وأكل مال الضعيف واليتيم بغير حق، وأكل الربا وشرب الخمر... إلى غير ذلك من الفحشاء والمنكر، دون رادع أو قانون، كلها وما يترتب عليها من الظلم المادي والمعنوي والنفسيّ، وبما فيها من ظلمات وضلال، كانت كفيلة بأن تجعل لقدوم دين إلهيّ يعطي المكانة لكل الناس دون بعضهم، ويغيّر هذا الاعتبار المادي، القائم على الهوى والشهوة، إلى قيام الاعتبار المعنويّ الذي حصر التفاضل بين الناس في أمر واحد هو التقوى، فقال جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وجاءت حجة الوداع في آخر ما أوصى رسول الله ﷺ المسلمين بقوله: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ قَالُوا بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ قَالَ وَلَا أَدْرِي قَالَ أَوْ أَعْرَاضَكُمْ أَمْ لَا كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَلَّغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ،"[1] ليكون منهج الله تعالى المتمثل في كتابه وسنة نبيّه داعياً لتغيير النظرة للإنسان من مهانة المادة التي تأخذ الناس بالظاهر، إلى كرامة الدين الذي يفضّل الناس بتقواهم لله تعالى، فبمدى صلة الإنسان بربه تكون كرامته، وبمدى سلامة عقيدته يكون مقامه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، انظر:

– ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، في باقي مسند الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ.

لقد كان سبب التغيير الحاصل هو العدل والمساواة بين جميع الناس دون تخصيص أحد منهم إلا بالتقوى، فيحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وجعل في النفس حافزاً لأن تسعى للقرب من رب عدل كريم، وكلّ ما سبق من تغيير يوافقه طبع الإنسان في حب من يوجِد له الكرامة، ويعطيه المكانة، لينصفَ الإنسان من نفسه بداية التغيير، ويكون من أكثر الإلزامات الإلهية قبولاً على النفس هي الكرامة الإنسانية، فيكون التشريع المنهجي في كتاب الله تعالى محققاً للحفاظ على الإنسان في تفاصيل حياته، فيحلّ له ما ينفع، ويحرّم عليه ما يضرّ، ويؤكد على طريقة التعامل السليم مع الآخر، كل ذلك مع ارتباط وثيق بالعقيدة التي بناها القرآن الكريم في جوهر الإنسان، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٢].

ب- إلزامية العبادة لله في تفاصيل الحياة:

فعبادة الله تكون بإقامة النسك المختلفة من صلاة وصيام وزكاة وحج، وقد كان للعبادات الموقع الوسط في علاقات الإنسان عند قيام عملية التغيير الفردي؛ إذ إنها تعدّ الرابط التشريعيّ الذي يحافظ على صلة الإنسان بربه من خلال إقامة العبودية لله ابتداء من النية وحتى انقضاء النسك، وتحافظ على الصلة بين الناس بتوحيدهم على كلمة الله وعبوديته في مواقيت محددة، وأماكن مخصوصة، ومقادير مفروضة، وتحافظ على علاقة الإنسان بنفسه بتقوية الجانب الروحيّ الذي يَنتج من قيام خير علاقة بين الإنسان وربّه؛ إذ تعدّ المورد الأول

للسعادة القلبية والاطمئنان النفسي، كما أنها تعمل على استمرارية ردّ الإنسان لفطرته الموحّدة، والتذكير بالله لعدم حصول الغفلة، وتفعيل المنهجيّة الناقدة عند المحاسبة على الأعمال، ومواجهة النفس بما كسبت للتخلص من شوائب الذنوب والأخطاء، وزيادة على ما كان من خير فيها، وكلها أمور منهجيّة لضمان تغيير النفس الإنسانية نحو الارتقاء في الوصول إلى أعلى درجات الالتزام بما ورد في منهج القرآن.

والعبادات في الأسس الارتقائية تربط بين أركان الإسلام وأركان الإيمان في النفس؛ إذ إن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت ضمن دائرة الإيمان القلبيّ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرّه، الذي يجعل من التواصل بين السلوك القلبي والسلوك العملي علاقة تبادليّة تأثيريّة، وتتلخص هذه العلاقة بمسمّى النيّة، وهي في اللغة التحّول كما جاء في معجم مقاييس اللغة أن: "النون والواو والحرف المعتلّ أصلٌ صحيح يدلُّ على معنيين: أحدهما مَقْصَدٌ لشيء... وهو من النوى المقصود به التحوّل من دار إلى دار... وهذا هو الأصل، ثم حمل عليه البابُ كلُّه فقالوا: "نوَى" الأمرَ يَنويه، إذا قَصَدَ له. وممَّا يصحِّح هذهِ التآويلَ قولُهم: نَوَاه الله، كأنَّه قَصَدَه بالحِفْظِ والحِياطة."[(١)]

كما أن وجوب النية مرتبط بوجوب العبادة؛ لأنها -العبادة- العلة لخلق الإنس والجن في قول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فوجود النية في الأعمال كلها أصل لقيام علاقة الإنسان بربه على قيمة خلقيّة تسمى (الإخلاص)، وهو سرّ بين العبد وربّه لا يفسده الشيطان، ولا يطّلع عليه إنسان، ولا يكتبه الملكان، فهو أصل لدقة العمل، وأساس لمعياريّته التي تقوم عليها الغاية من الخلق وهي العبودية لله تعالى، وقد أمر الله تعالى في القرآن الكريم بالإخلاص كشرط في التعامل معه فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥]، وفرض تكرار العبادة في أوقات معينة بمثابة تذكير مستمر لهذه القيمة الخلقية، فهي تُبعد

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج٢، ص ٥٣٠، بتصرف.

الإنسان عن الغفلة التي تكون سبباً لهلاكه؛ لأنها "تفيد انكسار القلب من هيبة الله تعالى، وزوال التمرد، ودرء الطباع المتراكمة في أوقات الغفلات عن الإنسان، وحصول الانقياد لأوامر الله تعالى والانتهاء عن مناهيه،"(١) كما أنها زوال لظلمة "الشواغل العارضة في أزمنة ارتكاب الشهوات، وجعْل يوم من أيام الأسبوع مخصوصاً للاجتماع على العبادة، وإزالة وحشة التفرقة، ودفع ظلمة الاشتغال بالأمور الدنيوية"(٢) هو سبيل للتوحيد الذي يجمع الأفراد الملتزمين بمنهج القرآن الكريم، لقيام مرحلة جديدة من أهداف القرآن وهي توحيد الجماعة على عقيدة الإسلام، فيكون الإخلاص قيمة خلقيّة بتعامل مجموع الأفراد مع الله تعالى، وترتقي القيمة من الفرد إلى الجماعة بإخلاص العبودية لله بكل أمور الحياة ولحظاتها، على المستويات الفردية والجماعيّة كافة.

إن صدق النية في التعامل مع الله تعالى في أداء العبادات سلاح السالكين في محاربة النفس والانتصار عليها، بالتزام أدائها وفق شروطها، والانتصار على النفس هو التغيير الخاضع لإرادة الإنسان، فالانتصار على النفس مشمول بالنداء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧]، فلا يتم لأحد تهذيب الظاهر قبل إصلاح الباطن، كما أن العبادة تمثّل تذكيراً مستمرًّا لفكرة العجز الإنسانيّ أمام قدرة الله تعالى، "ولا شك أن معرفة العبد نفسه بالعجز والنقص، ومعرفته ربه بالقدرة والكمال من أعظم العبادات."(٣)

وتأخذ العبادة موقعاً أيضاً في قيام تقوى القلوب، ولها دور هامّ؛ لأنها تجعل العمل يتسم بدقة التطبيق لتشريعات المنهج، كما أن التقوى هي"الحذر مما يكره الله، وحصول صفات الكمال التي يجمعها التدين، والغاية من العبادة والنتيجة لها، لذا فإن رجاء حصولها عند الأمر بالعبادة وعند عبادة العابد أو عند

(١) الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، مجلد٢، ج٦، ص ٤٨٢، وقد قال هذا الكلام في سياق الحديث عن الصلاة عند حديثه عن حكم المحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى، إلا أن العبادات دون استثناء تُحقق هذا الأمر في الحقيقة.

(٢) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، ج١، ص٣٨٦.

(٣) المرجع السابق، ج٨، ص٥٢٦.

إرادة الخلق والتكوين واضحُ الفائدة،"[1] قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، فوجود التقوى غاية للعبادة؛ لأنها "أساس الخير في الدنيا والآخرة،"[2] ولأنها "الضمان الأول والأخير، فهي الرقيب اليقظ الساهر على القلوب،"[3] و"الحارس القابع في أعماق الضمير؛ يقيمه الإسلام هناك لا يملك القلب فراراً منه؛ لأنه في الأعماق."[4]

ت- تغيير الأحكام بين الناس إلى أحكام شرعية منهجيّة عمليّة:

لم يقتصر البيان القرآنيّ على تنظيم العبادة الشعائريّة فحسب، إنما أقام أسس تنظيم العلاقات بين الناس بأحكام تفصيليّة، منبعها العقيدة التي تضمن لكل ذي حق حقّه، ولقد تجلّت هذه الأحكام الشرعيّة في بيان الفارق بين الحياة العشوائية التي يحياها كل من أهمل تطبيقها، فاستُبدلت الأحكام السائدة في الجاهلية أحكاماً قرآنية منهجيّة منظمة للعلاقات الإنسانية كافة، سواء أكانت أحكاماً اجتماعيّة تضمن إشباع غرائز النفس مع ضبطها، كي لا تكون مطلقة القيود، تقوم على الاعتداء على الآخرين، فشرّع أحكام إقامة الأسرة بما تتضمنه من دقة الضبط زواجاً وطلاقاً وميراثاً، وأحكام البيع والشراء، وأحكام الكسب والعطاء... إلخ، وأحكاماً شرعيّة تنظم علاقة الفرد بنفسه أو مع غيره، فحرم الانتحار والقتل، وأكل الميتة، وشرب الخمر... إلخ.

إن الإلزام في تطبيق الأحكام الشرعيّة فعلاً وتركاً لهو كفيل بتنظيم الحياة الإنسانية تنظيماً يُنشئ البيئة السليمة التي تحافظ على ضمان بقاء التغيير الارتقائي في الإنسان مستمرًّا، فما احتواه المنهج القرآنيّ من ضمان للارتقاء لم يكن في جعل تطلعات الإنسان للتقدم مطلقة دون حدود، وفي الوقت نفسه لم تكبت تلك النظرة في كيان الإنسان، بل وازنت بين الفعل والترك؛ لأن "ترك المنهيات

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١، ص٣٣٠، بتصرف.

(٢) **المرجع السابق**، ج٧، ص٧٢.

(٣) **المرجع السابق**، ج٥، ٢٨٧٩.

(٤) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، م١، ج٣، ص٣٣٣.

مقدم على فعل المأمورات... فالترك عبارة عن بقاء الشيء على عدمه الأصلي، والفعل هو الإيقاع والتحصيل، ولا شك أن عدم جميع المحدثات سابق على وجودها؛ فكان الترك قبل الفعل لا محالة... وقد يطلق على الترك فعل الضد،"[1] فيكون الترك أحياناً محققاً للتغيير في جعل الأمر على أصله، فيكون الترك أحياناً محققاً للتغيير في جعل الأمر على أصله.

فمثلاً الإلزام بعدم شرب الخمر هو ترك في حقيقته، لإضرار الإنسان بنفسه عند شربه، إلا أنّ له أبعاداً أخرى؛ فهذا الترك يقتضي حفظ أهم الاستعدادات التي وضعها الله تعالى للإنسان لضبط سلوكه، فعدم الإلزام بهذا الحكم غياب للعقل، وغيابه موجب للغفلة، والغفلة مدخل الشيطان الذي يأمر بالفحشاء والمنكر والبغي، فيكون تجاوز هذا الإلزام اقتراف منهيات أخرى، كوقوع زنا أو سرقة أو قتل أو غيرها من انتهاكات حرمات الله، والأمثلة على الاعتداء على حدود الله كثيرة تكشف أستارها الأحداث والوقائع، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩٢]، والاعتداء على حدود الله هو ذاته الخروج عن منهج القرآن الكريم، لذا أمر الله تعالى بالتزام الحدود وحذّر من الاعتداء عليها بالخروج عن منهج الله، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [الطلاق: ١]، وقال في موضع آخر: ﴿... تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]،[2] وحذّر حتى من الاقتراب منها، فمن لم يقترب فالأولى أنه لن يلجها، قال تعالى أيضاً: ﴿... تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

---

(١) الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، م٤، ج١٢، ص٣٤٩، بتصرف.

(٢) من خلال آيات القرآن الكريم تبيّن لي أن التعبير بـ"حدود الله" من تحذير وتوجيه وارد فيما يتعلق بأحكام الأسرة من تعامل الرجل مع زوجته، أو أحكام الميراث، أو الطلاق، ولربما سبب ذلك ما كان من هتك قيمة المرأة في الجاهلية حتى صارت حياتها مجرد متاع متى زال فلا قيمة لحياتها، وكأنها غير معتبرة من البشر، لذا كان للشدة في الخطاب نصيب كبير لئلا يتهاون الناس في ذلك، ولإزالة هذا الاعتقاد السقيم من النفوس، ولإيجاد قيمة الإنسان وكرامته على اختلاف الجنس.

فقد جاء النظر إلى كيفية الحكم على التعاملات الإنسانية في العلاقات القائمة على أداء الحقوق والواجبات بين الناس، وتحديد العلاقات الإنسانية عند قيامها على تعاملات اجتماعيّة يُجبر الفرد على التواصل مع الجماعة بها كما جاءت في القرآن الكريم.

وفي مقارنة بين حياة غير محكومة بمنهج القرآن وحياة كانت أحكامها منهج القرآن، نجد أن الأحكام الشرعية التي توالت منذ نزول القرآن الكريم إلى يوم القيامة لا يمكن حصرها؛ لأن القرآن هو المصدر الأول الذي يقاس عليه أي حكم يصدر، والسنة ما هي إلا أحكام الله تعالى على لسان نبيّه ﷺ، فحصر الأحكام العملية ودورها في التغيير ضمن جزئية واحدة من دراسة، أو إفرادها في دراسة يكون بمثابة عدّ ما لا يُعدُّ، وإحصاء ما لا يُحصى؛ لأن الدين الإسلاميّ جاء مرناً في هذه الأحكام بما يحقق للإنسانية اليسر والمصلحة، لذا فإن الإشارة الشاملة لدورها في التغيير كان هو النصيب الممكن في هذه الدراسة.

ث- إلزامية الأخلاق التعاملية:

تعدّ الأخلاق من أهم مظاهر الارتقاء الإنساني على المستويات كافة، وتنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ما كان إلزاميّ التطبيق، ويترتب على عدم إقامته العقاب؛ لأنه يقع من الدين موقع الواجب، فهو يمثل ارتقاء الفرد من الاعتقاد السليم إلى التطبيق القويم، وهذا مظهر آخر من مظاهر الأحكام الشرعيّة التي تمثل حقيقة العقيدة الإسلامية، وهو ما سيتم بيانه في هذا الموضع.

إن محور الحديث في هذا القسم هو الأخلاق التي يكون ضدّها مدعاةً للإثم والعقاب، فمثلاً خُلُق الكذب هو ضد الصدق، والخيانة ضد الأمانة، والغدر ضد حفظ العهد، وإخلاف الميعاد ضد الالتزام بالوعد... وهذه الأخلاق قد تكون في التعاملات الشرعيّة، وعليها تندرج تحت إلزامية الأحكام الشرعية، وقد تكون في تعاملات إنسانية أخرى كتعامل الكبير مع الصغير مثلاً فليس من حكم شرعيٍّ ضابط إلا بوجود أمر يستوجبه الشرع، فيجب عندها أن يكون التعامل محكوماً بضابط أخلاقيّ يوجب التعامل بإحسان معه.

جاء القرآن الكريم للنهوض بالقيمة، وتغيير اعتبارها من اعتبارات يضعها البشر إلى اعتبارات جاءت من رب البشر، "وإن الواجب الخلقي يقوم على فكرة القيمة التي نستمدها من مثل أعلى، والعقل والوحي مظهران لتلك الحقيقة الأساسية التي تعدّ المصدر الحقيقي للإلزام الخلقي؛"[(١)] إذ إن هذه الإلزامية الأخلاقية نابعة من العقيدة الإلهية؛ لأنها تمثل "الإيمان بالحقيقة الأخلاقية بوصفها حقيقة قائمة بذاتها تسمو على الفرد، وتفرض نفسها عليه بغض النظر عن أهوائه ومصالحه ورغباته، بأن يغذي إيمانه العقلي طاقاته الخلاقة، بوصفه واجباً مقدّساً، فالأخلاق الإلزامية تضع الضمير الإنساني في وضع متوسط بين المثالية والواقعيّة، مما يؤدي إلى تغيير مزدوج ناتج عن الدمج بينهما؛ ليكون نصيب الواقع حدوث الجديد في الاتجاه نحو الأفضل، ونصيب المثالية من التغيير ذاك التعديل لملاءمة الواقع نتيجة الاحتكاك بالحقيقة الحسيّة."[(٢)]

كما أن أهمية وجود إلزام خلقي يعني وجود وجه آخر من وجوه المسؤولية للإنسان، فإذا كان إعطاء الاختيار للإنسان في تحديد طريقه بداية وجه من وجوه تحمل المسؤولية لهذا الاختيار، يكون إلزام الفرد بعدم الاختيار لنظام أخلاقيّ منشؤه القرآن هو قيام درجة أعمق من درجات المسؤولية الفردية، وهي مسؤولية الفرد تجاه الجماعة بإلزامه أداء الحقوق لأهلها؛ لضبط حب النفس في الإنسان، والارتقاء به إلى حب الجماعة لقول النبيّ ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه؛"[(٣)] لأن عدم وجود هذا الإلزام قيام الفوضى، وانحدار في تحقيق العدالة الإنسانية[(٤)]، وهذا ما يميّزها عن القسم الثاني، تعلّقها بالعدل في الإنسانية، ولقد جاء الأمر الربانيّ في القرآن بتصريح وجوب العدل فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ

---

(١) دراز، محمد عبد الله. **دستور الأخلاق دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن**، تقريب وتحقيق وتعليق: عبد الصبور شاهين، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٤، سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، مقدمة الكتاب للسيد محمد بدوي، ص (ي ج - ي د).

(٢) المرجع السابق، مقدمة الأستاذ الدكتور السيد محمد بدوي، ص(ي- د)، بتصرف.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ج١، ص٦٩، حديث رقم ١٢.

(٤) دراز، **دستور الأخلاق**، مرجع سابق، ص٢١.

ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨]، وجاء في موضع آخر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

إن وجود قانون الإلزام الخلقي يُهيّء قيام البيئة المناسبة للحفاظ على النفس المتغيّرة في الفرد من جهة، بعد أن قطع هذا التغيير في نفس الفرد شوطاً ليس باليسير، لقيام عقيدة القرآن فيها، ومن جهة أخرى، فإن القانون الأخلاقيّ يعمل على تفعيل التقويم الجماعيّ لإقامة الارتقاء الفردي، وتأييد الإلزام العقدي، وإيجاد التشجيع والتسلية أمام الصعوبات التي تمنع عملية التغيير من التقدم في نفس الفرد، وضبط النفس بحاجاتها وشهواتها وهواها، فقيام القيمة الأخلاقية على مستوى المجتمع تغيير اجتماعي للعادات والقيم السائدة فيه، وهو ضمان لبقاء الإنسان ضمن دائرة التغيير الإيجابيّ والارتقاء به، وانتقال عملية التغيير من الفرد إلى مستوى الجماعة.

والقسم الثاني منها: ما كان منبعه حب الالتزام الطوّعيّ من الإنسان بما ورد في القرآن، فهو في دائرة المستحب، ويترتب على إقامته الثواب، ولا عقاب على تركه، كالصفح عن المسيء مع جواز الانتقام مثلاً. وهذا ما يسمى بالارتقاء إلى الكمال الإنسانيّ الذي جاء الحديث عنه في المطلب التالي من الدراسة.

٢- أسس القرآن الكريم لإحداث التغيير إلى الكمال الإنساني النسبيّ(١)

شهدت الخليقة منذ الأزل على كمال خلق الله وجمال صُنعه، وقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم، وأكمل صنعة، وأجمل صورة، وجعل منهج

(١) لم أقصد من مفهوم الكمال لإنساني ما قصده ابن عربي في كتابه الإنسان الكامل، فعندما تحدث في معنى الكمال قسم الإنسان إلى درجة الإنسان الكامل والإنسان الحيوان، وقال إن الإنسان الكامل هو "على صورة العلم بالله القديم... وأنه روح العالم كله، والعالم مسخر له حتى الإنسان الحيوان، وإنه العين المقصودة وكل الأسباب وجدت لأجله، لأنه يقف على الحقائق كشفاً وتعريفاً إلهياً، لذلك استحق الكمال، وأن هذه المرتبة هي أعلى مراتب الإنسانية ويعدّ صاحبها ظل الله ونائب الحق..." إلى آخر كلامه الفلسفيّ، أما المقصود في هذه الدراسة من قضية الكمال الإنساني فإن زيادة الالتزام بمنهج الله تعالى يعني زيادة القرب في المنزلة عند الله تعالى، ويصدق عليه قول الله تعالى في سورة الواقعة: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ ﴾ [الواقعة: ١٠ - ١١]. انظر:

- ابن عربي، محيي الدين أبو بكر محمد بن عبد الله. **الإنسان الكامل والقطب الغوث**، جمع وتأليف: محمود محمود غراب، دمشق: مطبعة زيد بن ثابت، ١٩٨١، ص٨.

القرآن الكريم سبيلاً للجمع بين جمال الخِلْقة وكمال العمل، وكان كل ذلك، لتحقيق الكمال الإنسانيّ النسبيّ، لتتكامل جوانبه المادية والمعنوية، وتسير في اتجاه واحد، وهذا الاتجاه هو توجه النفس بكل جوانبها نحو خالقها، وإن من أجمل مظاهر تحقيق الكمال الإنساني هو سليقة الشوق إلى الكمال[1] الملازمة للإنسان خلال مسيرة حياته، ليأتي قول الرسول ﷺ موجّهاً لها بقوله: "أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ،"[2] والتعبير بقوله: "أكمل" دليل على وجود أتم الأعمال وأحسن الأخلاق مع وجود الحسن، لتأتي المفارقة بين الخُلُق الإلزاميّ والخُلُق الأمثل؛ إذ إن الخُلُق الأمثل والعمل الأحسن هو ما يوصف بالكمال، فالفارق بين مبحث طلب الارتقاء وطلب الكمال هو السمو في مراتب مختلفة؛ فالارتقاء سموّ في مراتب الالتزام بالواجبات والمفروضات، أما مراتب الكمال فهي سلّم يسمو فيه الإنسان صعوداً عند الالتزام في مراتب العمل بالمباحات والمستحبات، والفارق بينها كبير بيّنه الحديث القدسيّ فقال النبيّ ﷺ عن ربه عزّ وجل: "... وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي

---

(١) العقاد، عباس محمود. **الفلسفة القرآنية**، القاهرة: دار الهلال، العدد٢٢٩، ذو الحجة ١٣٨٩/مارس ١٩٧٠م، ص٣٠.

(٢) رواه الترمذي وأبو داود والنسائي والدارمي وأحمد، وقال الترمذي هناك: "حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ". انظر:

- الترمذي، **سنن الترمذي**، مرجع سابق، من حديث عائشة زوج النبي ﷺ في كتاب الإيمان عن رسول الله، باب ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه، ص٥٩٤.
- السجستاني، سليمان بن الأشعث. **سنن أبو داود**، تحقيق: رائد بري، دار طويق للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، كتاب السنن باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصه حديث رقم ٤٦٨٢، ص٥٨٦.
- النسائي، **سنن النسائي الكبرى**، مرجع سابق، في كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، ج٥، ص٣٦٤.
- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن ابن بهرام. **سنن الدارمي**، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، كتاب الرقاق باب في حسن الخلق، ص٤٠٠.
- ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة، ج١٢، ص٣٦٤.

يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ..."[1] ومن هنا يكون سلّم الكمالات طلباً لمحبة الله تعالى، ودرجات الارتقاء في المفروضات طلباً لرضا الله تعالى واجتناباً لمعصيته.

و"جعل الله الكمال الإنساني حاصلاً عند حصول جميع الصفات النافعة فيه... ولأن الذوات الكاملة الفاضلة أقل من ضدها -الضار- صارت صفات الكمال عزيزة المنال، وأُحيطت عزتها ونفاستها بصعوبة منالها على البشر، وبما يحفّ بها من الخطر والمتاعب؛ لأنها لو كانت مما تنساق لها النفوس بسهولة؛ لاستوى فيها الناس، فلم تظهر مراتِبُ الكمال، ولم يقع التنافس بين الناس في تحصيل الفضائل واقتحام المصاعب لتحصيلها."[2]

والكمال الإنسانيّ متعلق بحب الجمال، فالكمال الإنساني في القرآن متصل بالتبعيّة للنظام الأخلاقي، أو للقيم الأخلاقية، واجتماع معنى القيمة الخُلُقية والتفكير الجماليّ في الإنسان دافع "بأن يدين الإنسان نفسه بهما؛ لأنه يأبى أن يشين نفسه، ويعدّ الشيْن غاية ما يخشاه من عقاب،"[3] فيكون محاسباً لنفسه على حدود الأخلاق، ومفعّلاً كل استعداداته في زيادة الالتزام الذاتيّ للمنهج الرباني بتلقائية في حياته كهدف يسعى إليه دوماً، فكلما زاد الإنسان تمسّكاً وتطبيقاً لمنهج الله تعالى، كان أقرب للكمال الإنسانيّ الذي جاء المنهج القرآنيّ لتحقيقه، فيتحوّل تفكير الإنسان الجماليّ نحو التمسك بتعاليم منهج الله تعالى وينساق معه، وينضبط بحدود القيمة الأخلاقية المستنبطة من القرآن الموصلة للفلاح، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المائدة: ٣٥]، يقول الآلوسي في معنى الوسيلة "أي

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الرقاق، باب التواضع.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٢٢، بتصرف.

(٣) العقاد، **الفلسفة القرآنية**، مرجع سابق، ص٣٠.

واطلبوا إليه تعالى الزلفى بتحليتها[1] بالأخلاق المرضية"[2]، ووصف الله تعالى الساعين إلى الكمال بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فهذه الآية تشير إلى عنصر المنافسة في القرب من الله تعالى بالأعمال والأخلاق الصالحة.

إن زيادة العمل الصالح هو تغيير ارتقائيّ أسمى، يوصل الإنسان إلى أعلى درجات التطبيق لما جاء به القرآن الكريم، ولهذا الجانب من التغيير طرق، منها:

أ- اختيار الأفضل بين الأعمال فيما يكون الإنسان به مخيّراً:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٨]، وهي القدرة على التنازل عن حظ النفس، باختيار الأفضل من بين الأمور الصحيحة، والأحسن بين الأعمال المباحة، "فليست القوة بفعل الفرد ما يشاء؛ بل القوة الحقيقية في المنهج القرآني بفعل الأفضل بين الخيارات الفضلى، وردع النفس عن الفعل عندما يخالف النظام الأخلاقي كمبدأ قرآني"[3] فيما يكون للنفس فيه حظ، وظهر ذلك جليّاً في ورود صيغة "أحسن، أفضل" لتفضيل هذا الاختيار، ورفعة هذه المنزلة؛ إذ إن هناك حدًّا أعلى من الأخلاق تقرّب النفس من ولوج الكمال الإنسانيّ، وحدّاً أدنى من الأخلاق التنازل عنها تحوّل عن الأساس السليم في المنهج إلى الخلق الذميم؛ لأنه يمثل بداية الانحدار في الضلال، أو هو نقطة بداية الخلق السقيم، فمثلاً طبيعة الغضب في الإنسان مثيرة لكل حظوظ النفس، لذا فقد مدح الله -جل وعلا- الغافرين رغم سطوة الغضب لاختيارهم الغفران، والغفران مقترن بأمرين هما الغضب وهو الداعي الأول للانتقام، و قدرتهم على أخذ الحق ممن ظلمهم وهو الداعي الثاني لدفع الظلم واسترداد الحق، وجعل الله تعالى ذاك الغفران من أجلِّ صفات الإيمان

(١) وتعني التحلية جعل الشيء أحلى مما كان عليه، أو جعل الشيء أجمل مما كان عليه.

(٢) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، ج٧، ص٤٠٢.

(٣) العقاد، **الفلسفة القرآنية**، مرجع سابق، ص٣٠، بتصرف.

لاقترانه بأوصاف المؤمنين في قوله: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٦ - ٣٧]، و الغضب مانع من الارتقاء، بل لربما ينهار بالأسس التي جَهِدَ الإنسان في بنائها زمناً بلحظة غضب لا يعرف أين تؤدي به؛ لأنه معطّل للتفكير، ولما كان ذلك كذلك كانت وصيّة النبي ﷺ للرجل السائل عندما قال له: أوصني، فقال: "لا تغضب،"[١] فالغضب يقود للإثم، ويمنع الارتقاء بالنفس.

ب- جهاد النفس وتزكيتها:

إن قيام أسس التغيير للوصول إلى درجات الكمال الإنساني يكون بداية بوجود جهاد نفسي، لتحقيق الالتزام، حتى يصبح هذا الالتزام جزءاً من النفس يعتاد الإنسان على القيام به برياضتها، وكلما اعتاد الإنسان على الالتزام بأمر ما تلاشى الجهد الناتج عن ضبط النفس تدريجيّاً، ويكون هذا الجهد قائماً ما دام الهوى تبعاً لغير الله تعالى. قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠]، وبهذا يكون الإنسان على أتم الاستعداد لتوجيه إرادته كما يريد الله، دون أن يحسب لحظ النفس حساباً، فيقول جل وعلا فيمن يوجه إرادته توجيهاً فوريّاً وفق إرادة الله جل شأنه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

إن التزكية هي "الارتياض على قبول الخير،"[٢] والمراد من قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤]؛ أي تزكّى بالإيمان،[٣] قال تعالى: ﴿... وَمَن تَزَكَّىٰ

(١) **البخاري، صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، حديث رقم ٩٩٣، ج٧، ص٣٥٧.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٣٠، ص٢٨٨.

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨]؛ لأن "الارتياض على الأعمال الصّالحة شاغل للنفس عن السيّئات، ولأنّ الأعمال الصّالحات ارتقاءات وكمالات فهي معينة لجوهر النفس على الاتّصال بعالَمها الذي خلقت فيه، وأنزلت منه، وبعكس ذلك الأعمال السيّئة تبعدها عن مألوفاتها وتبلّدها وتذبذبها،"[١] وعلى ذلك تكون دعوة إبراهيم عليه السلام في أمة محمد عندما جاء طلبه في الآية: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، فيكون الله قد منّ على المؤمنين بمنهجه الداعي إلى صراط مستقيم يزكي به النفوس لترتقي في مراتب كمال الالتزام، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ت- تحرّي دقة التطبيق لأوامر الله تعالى ودقة الفهم لمقاصده من أوامره:

إن دقة التقدير للأمور، ودقة تحديد موقعها من منهج الله تعالى، ودقة الحكم عليها خيراً أو شراً، له الدور الفعّال في الرقيّ العمليّ نحو كمال الالتزام، ولا يكون كذلك دون ارتباطه بالمعرفة بتفاصيل الأمور والجزيئات والعلم بها، فبقدر العلم يكون الالتزام، وبقدر الالتزام يكون الكمال، لذا فقد كرم الله فئة العلماء الذين صرّح القرآن برفعتهم؛ لأنهم حققوا الإضافة المعرفيّة التي تُوصل الإنسان إلى ذروة السموّ، ومعيارية التطبيق العملي لمنهج الله تعالى في مختلف المجالات والمواقف الحياتية، فقال تعالى: ﴿... يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، فرفعة الدرجات جزاء الرقيّ بالأعمال، فهم الفئة القادرة على بلوغ الكمال الإنسانيّ بذاتها، وإعانة غيرهم، لبلوغ درجات الارتقاء والكمال لوجود القدرة العلمية، والكفاءة المعرفية،

---

(١) المرجع السابق، ج١٢، ص٢١١.

والعملية على ذلك، ولدورهم في تفعيل القدرات الفرديّة الذاتية كافة في تحقيق التنمية وتنظيم قدرات أفراد المجتمع، والسعي إلى الرقي بالمجتمع من خلال دورهم الفعّال فيه، وهذا دليل على أنه كلما ارتقى الإنسان في العلم بتفاصيل منهج الله وتطبيقه، زاد فعاليّة وتأثيراً في مجتمعه، فالعلماء هم الفئة الصالحة المصلحة، والعلاقة بين العلم والارتقاء علاقة طرديّة، فكلما زاد الإنسان علماً، زاد ارتقاءً وإيماناً، وكلما زاد الإنسان ارتقاءً كان أقرب إلى منازل الكمال الإنساني التي يهدف القرآن لتحقيقها في الفرد والجماعة.

"ثم إنّ ذلك الارتقاء النفساني الذي هو من الواردات الإلهية، غايته أن يبلغ بصاحبه إلى الحكمة،"[1] والحكمة من حكم المتضمن معنى المنْع،[2] ومنه "الحُكْمُ وهو المَنْع من الظُّلْم، والحِكمة هذا قياسُها؛ لأنها تمنع من الجهل،"[3] وبما أن الجهل هو سبب سوء تقدير الأمور والحكم عليها، تكون الحكمة إذاً دقة التقدير، ودقة الحُكم على الأشياء والأشخاص والأحداث بناء على تجارب عملية تولّد المعارف الحياتية منبثقة عن أسس منهجية قرآنية تشمل الحياة كلها.

وجاء في التنبيه على تحرّي الدقة والمعياريّة في التطبيق العملي قول النبيّ ﷺ: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالا، يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ،"[4] والشاهد في الحديث بيّنٌ؛ إذ إن عدم الانتباه للتصرفات والسلوكات المخالفة لمنهج القرآن يؤدي إلى اعتياد الإنسان على فعلها، وهذا الاعتياد هو كسر حاجز التقوى من القلوب، وانحدار في دركات التغيير السلبي.

---

(١) المرجع السابق، ج١٢، ص٢١٦.

(٢) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج١، ص٣١١.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٣١١.

(٤) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الرقاق باب حفظ اللسان، حديث رقم ١٣٤٣، ج٨، ص٤٧٣.

ث- حث النفس على طلب أعلى الدرجات للزيادة في التغيير الارتقائي:

لقد عمل النبي ﷺ على توجيه أنظار أصحابه إلى القمم للارتقاء، ووجّه نظرتهم إلى أعلى درجة تحقق السمو والرفعة الإنسانية في الدارين، وحفّز نفوسهم على التنافس والجد والاجتهاد في بلوغ أسمى الدرجات، كل ذلك بقوله: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ،"[1] وقد خصّ الحديث الشريف المجاهدين؛ لأنهم هم الذين يُبدون الاستعداد الفعليّ التام، لإثبات وجودهم، ومكانتهم عند اختيارهم التخلي عن النفس، والمال، والروح في سبيل حفظ منهج الله ممن يريدون أن يطفئوا نوره، فيتنازلون عن الحياة الدنيا؛ لأنهم وصلوا إلى درجة اليقين القلبيّ بأن أنفسهم ليست ملكاً لهم، والاطمئنان بأن الله لا يُضيع أجرهم، وأثبتوا ذلك عمليًّا، كما أنهم ألزموا أنفسهم أن يبيعوا لله كل ما لهم في تجارة بينه وبينهم لن تبور، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، فكانت هذه الفئة من الناس مثالاً للتنازل التام عن الدنيا كلها طلباً للآخرة، وكان لارتقائهم حظ الكمال الإنسانيّ في الالتزام بتفاصيل القرآن، وكل ذلك التخلي جاء عن طيب نفس منهم.

وقد أثبتت الأدلة النقلية أن هناك فئات تحقق هذه الدرجة من التغيير الارتقائي غير المجاهدين، ففي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩ - ٣٠]، فقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ دليل على تغيير حالهم إلى أحسن مما عملوا، فالتعبير بالفعل المضارع

---

(١) المرجع السابق، كتاب الجهاد باب درجات المجاهدين في سبيل الله، حديث رقم ٩٨٦، ج٤، ص٤٠٨-٤٠٩.

﴿يَتۡلُونَ﴾ دليل على الدوام والاستمرارية في التلاوة، وقد ورد عن النبيّ ﷺ دليل على أن هناك من يقوم على كتاب الله، ويكون صاحب الدرجات الارتقائية التي لربما توصله إلى الكمال الإنساني، فقال ﷺ: "يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا،"(١) فالمداومة على قراءة كتاب الله تعني ازدياد المعرفة فيه، والمعرفة تقتضي التطبيق، والتطبيق لكتاب الله هو تطبيق منهجه في التغيير المستمر للارتقاء إلى أسمى الدرجات، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴾[الأعراف: ١٧٠].

وخلاصة القول: إن للنفس التي قامت أسسها على منهج قرآنيّ اعتباراتها بوجود ميزان تسعى من خلاله لتحقيق أعلى درجات السمو والرفعة المذكورة في القرآن، وإن النظرة العليا والكلمة العليا والقيمة العليا لهي من أهم المقومات والأهداف للمنهجيّة القرآنية في مختلف المجالات؛ الفكرية، والنفسية، والسلوكيّة، والأخلاقية، لتكون العقيدة الإسلامية هي عقيدة إيجاد الهمم العليا التي تأبى إلا التغيّر المستمر نحو الكمال الذي رضي به الله لعباده وجَعَل منهج القرآن سبيله، فيكون قول الله تعالى: ﴿... ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[المائدة: ٣] بمعنى الكمال الإلهيّ في التوجيه والتشريع والتغيير من الظلمات إلى النور بما جاء بمنهجه المتكامل، المتمثل بكتابه وصحيح سنة نبيّه، ليكون التطبيق لهذا المنهج هو السبيل الوحيد للوصول إلى الكمال الإنسانيّ بأعلى نسبة التزام حققها الفرد، وليكون هذا التطبيق التام مسبباً ليأس الكفار من النيل من هذا الدين.

(١) رواة الترمذي وأبو داود، وقال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ". انظر:

- الترمذيّ، **جامع الترمذي**، مرجع سابق، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، حديث رقم ٢٩١٤، ص٦٥٥

- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث. **سنن أبو داوود**، تحقيق: محمد عوامة، بيروت: مؤسسة الريان، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل في القراءة، حديث رقم ٢٧٣، ج٢، ص٢٧٣.

الفصل الثالث

أساليب القرآن الكريم المنهجية والتنفيذية للتغيير الفردي

أولاً: أساليب القرآن الكريم المنهجية للتغيير الفردي

الأساليب المعرفية المنهجيّة القرآنية هي: ما اتخذه القرآن الكريم من طرق في تحصيل المعرفة تفصيلاً وإجمالاً فيما ورد في المنهج القرآني فيه من حقائق ماضية وحاضرة ومستقبليّة، من تعريف الإنسان تفاصيل منهجه، وما استخدمه من وسائل لتقريب الحقائق إلى الذهن في الأمور التي عرّف الإنسان بها، بهدف زيادة معرفته، وتشكيل التصوّر السليم غير المنحرف، وإعمال استعدادات النفس في فهم القرآن الكريم، وإيجاد الاقتناع العقليّ، وما جاء به من تأكيدات تؤدي إلى غرس القناعة في قرارة النفس.

لقد هدف القرآن الكريم في مرحلة متقدمة من مراحله إلى تغيير الإنسان من حالة هو عليها إلى حالة أخرى، تمتاز بالأفضلية عن سابقتها، ولا يتم ذلك الأمر إلا عند إقامة المعرفة لدى الإنسان المتغيّر بطريقة منظمة؛ لأن المعرفة هي "إدراك ما لصور الأشياء أو صفاتها أو سماتها وعلاماتها، أو للمعاني المجرّدة سواء أكان لها في غير الذهن وجود أم لا؛ إذ يكون كمالها بمطابقة الإدراك لما عليه المدرَك في واقع نفسه من صورة أو صفة أو سمة أو علامة، أو وجود أو عدم، أو حق أو باطل..."[1] فلا بد من تشكيلها في ضوء التعريف، وهذه المهمة الأولى من مهمات الأساليب في عملية التغيير الفردي؛ إذ إن عملية التغيير في حقيقتها عملية تبدأ معرفيّة وتنتهي بالتنفيذ للأوامر التي تضمن قيام الحياة على المنهج القويم.

---

(١) الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة. **ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة**، دمشق: دار القلم، ط٤، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص١٢٣.

ثم إن العلاقة بين الإبداع الأسلوبيّ للكلام واستعدادات الإنسان علاقة طردية، فكلما شمل الأسلوب الكلاميّ تفعيلاً لأكثر من استعداد في الإنسان في آن واحد زاد إبداع الكلام لتأثّر النفس به، وكلما زاد إبداع الكلام زادت قيمته، وكلما زادت قيمته زاد إعجازه، والمستحيل الذي لا يقدر عليه بشر أن تقوم كل الاستعدادات في الإنسان فطرية كانت أو خَلْقيّة أو شعوريّة[1] بالعمل في آن واحد بسبب كلام مهما كان إبداعه، وهذا أحد جوانب الإعجاز القرآني النفسي؛ إذ إنه يستقلٌّ باحتوائه على وجود القدرة الكاملة في طريقته لإحداث نهضة معرفية وعملية في الإنسان بكل ما آتاه الله من معِدّات خَلْقية، ودقائق عملية، ولا تتعامل مع استعداد واحد -عقلي مثلاً- دون آخر ومجيء كلام يتعامل مع النفس بتكامل يناسبها لهو دليل عظم قائله، وشمول لما يحرّك النفس ويجذبها، فهو إذن أرقى من أن يكون كلام إنسان يجهل حقيقة نفسه أصلاً، ونهاية المطاف تستسلم الاستعدادات الحسيّة للمدركات العقلية، بعدما تجري فيه المعاني من إدراك وتفكير وتخيّل وتذكّر وتصوّر... إلخ، عسى أن يجد نقداً عليها، أو مدخلاً يسوّغ له رفضها، أو داعياً يؤدي به إلى الانتقاص منها، وكلما حاول البحث عن النقص ازداد يقيناً بمراتب الجمال في الكلام، وهذا يدلّ على كمال قائله، فيقف مستسلماً عاجزاً أمام كلمات جمعت بين المعاني والمباني جمعاً لا يقدر عليه قادر من البشر، فيشهد لها مع أنه حاول الانتقاص منها، فيسلِّم أمرها لإحساس النفس بالمعنى، فيجد الإحساس قد استسلم أمام صدق تلك المعاني، وعذوبة انسياقها مع النفس، وحسن جمالها المؤدي إلى راحة واطمئنان، فتعلن النفس استسلامها، وترفع راية عجزها عن المعارضة لإقرارها بإبداع الكلام، وتستجيب للقرآن بكامل القناعة، وهذه الاستجابة هي التغيير الذي يهدف القرآن إليه.

---

(١) يعني أنه لا يوجد كلام يثير الفطرة، ويثير كل ملكات العقل، ويثير كل ملكات الشعور والوجدان، ويصل في تعامله إلى الاستعداد الروحي في الإنسان في نفس لحظة المقال، إلا عند سماع القرآن؛ إذ تتجاوب كل ملكات الإنسان واستعداداته مع كلمات القرآن قولاً ومعنىً في آن واحد.

إن الأساليب هي طريقة تعامل المغيّر -الله- مع المتغيّر -الإنسان-، والمبدع لشيء أعلم بطريقة عمله، والله مبدع الإنسان، وقد أبدع من الكلام ما يتمم إبداعه في الإنسان، ويضمن تواصل الإنسان مع ربه، كما يضمن أيضاً استمرار عملية التغيير في النفس دون أن تفتُر، وهذا الأمر من أسرار الشعور باللذة دون إرادة عند سماع القرآن يتناغم مع تفاصيل الإنسان مهما كان جنسه ولغته.

إن ما في القرآن من تآلف عباراته وبراعة أسلوبه ما يستجلب النفس، فترى النفس من إبداع الخطاب القرآنيّ، وتقف عند جمال أسراره، وله من الأسلوب ما يحفّز النفوس مع ما بين الناس من فروق فردية، وتباين نفسيّ، فمن يغلب عليه عمل أحد الاستعدادات كان له نصيب من الجمال الأسلوبيّ القرآنيّ، مثلاً من كان ذا نفسيّة عقلانية أخذ القرآن من عقله مأخذاً؛ لما فيه من فنون الخطاب العقليّ، ومن كان ذا عاطفة جيّاشة كان القرآن متناغماً مع عاطفته، يقول دراز: "وفي النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير وقوة وجدان. وحاجة كل منهما غير حاجة أختها، فأما أحدهما فتنقّب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجّل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفّي لك هاتين الحاجتين، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظّها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً،"[1] وهكذا هو القرآن في آياته ومنهجه وإبداع بيانه.

إن أساليب البلاغ القرآنية للناس أجمعين قبل اختيارهم للإسلام ديناً، تقوم على التعريف بداية، ثم تثبيت ما تم تعريفه من خلال أساليب تحتوي على سلسلة بيانية مترابطة، تؤكّد المعاني، وتقرّبها، وتأخذ في النفس الإنسانية مأخذها، لما فيها من التوافق التام بينهما، ولما يحقق الاقتناع العقليّ الموصل إلى القناعة القلبية. فجاءت المراحل الأسلوبية المتدرّجة في القرآن وتطبيقاته المنهجية البيانية لإحداث التغيير الفردي كما يأتي:

---

(١) دراز، محمد عبد الله. **النبأ العظيم**، اعتنى به وخرّج أحاديثه: عبد الحميد الدخاخني، الرياض: دار طيبة، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص١١٤.

١- أساليب المنهج القرآني في التعريف المنهجي

إن من بالغ الحكمة أن يتخذ القائل أساليب تعريفيّة تُخبر عن مراده، وتنقل السامع في صنعة البيان من معنى إلى معنى، أو من فكرة إلى فكرة في المعنى الواحد،[١] فالتعريف "ذكر شيء تستلزم معرفته معرفة شيءٍ آخر،"[٢] ومقصد القائل من كلامه إيصال معرفة معيّنة لتؤدي غرضاً معيّناً، ومقدار الحكمة في ذلك يكون بقدر معرفة القائل بالسامع، أما من وجهة نظر السامع فمن الطبيعيّ أن ينظر إلى ذات القائل بداية؛ لأن قيمة الكلام من قيمة قائله، والكلام تعبيرٌ دالٌّ على حقيقة المتكلم، ولا بد للكلام لكي يكون مسموعاً مستحسناً بجودة لفظ أن يكون له "جهة معلومة وعلّة معقولة،"[٣] وأن يكون هناك سبيل للتوصل إلى جهة القائل من خلال العبارة، وأدلة تثبت العلة، وهدفها إيجاد المعرفة المسبقة القائمة على الأدلة اليقينية للتوصل إلى نتيجة للمعلومة، قائمة بمنطق عقلي سليم، وانظر قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[النمل: ٩٣]، فإنّ المعنى: "لله الحمد الذي لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة،"[٤] بإقامة "معرفة تدلكم على الحق والباطل، فلا بد أن يريكم من آياته ما تستنيرون به في الظلمات؛"[٥] ليتحقق قوله تعالى: ﴿... لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ

---

(١) المرجع السابق، ص١٨١-١٨٢.

(٢) الجرجاني، **التعريفات**، مرجع سابق، ص٦٦.

(٣) الجرجاني، عبد القاهر. **دلائل الإعجاز**، تعليق: محمود شاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٥، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص٤١.

(٤) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٣٥.

(٥) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: محمد عبد الرحمن مرعشي، قدم لها: القاضي عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٧٣٠.

عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٢]؛[1] فالبيّنة لا تكون إلا بعد المعرفة، وعندها يلقى المسيء الهلاك الذي عرفه، أما المحسنون فينجز وعده لهم الذي عرّفه لهم في قوله: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴾ [محمد: ٦]، ليكون أسلوب التعريف مثبتاً بالأدلة القرآنية، وقد تحقق هذا التعريف المنهجيّ من خلال إلقاء المعاني بطريقة الحكمة الأسلوبية في الخطاب الإلهي: إن للحكمة في اتخاذ الأسلوب المناسب لمراعاة حالات النفس وتقلباتها دور هامّ في عملية التغيير؛ إذ إن استخدام الخطاب المباشر للناس كانت له حالاته في القرآن الكريم، وقد كثرت أساليب الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم من باب الحكمة في التعامل مع نفوس الناس لتغييرها على النحو الآتي:

أ- توجيه الأمر للنبيّ ﷺ:

لا بد من توجيه الخطاب بأسلوب يراعي الحالة النفسيّة للمتلقين أثناء استقبال المعلومات التي عرّف القرآن بها، ولا بد من إيجاد الرغبة الذاتية من النفس للتحوّل نحو المنهج القرآني بوصفه بداية للتغيير، فمن حكمة الله تعالى في أول ما نزل من القرآن -بوصفه مثالاً على هذه الحكمة-، أن جاء الأمر موجّهاً لسيدنا محمد ﷺ في ظاهره، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ [العلق: ١ - ٥]، وجاء الأمر توجيهيّ لحاسة البصر بوصفه مدخلاً للمعرفة، بقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وهذا من الحكمة؛ فلو كان هذا الأمر في أول ما نزل من القرآن مخاطباً للناس فما هي ردّة الفعل التي ستنتج من النفس؟

---

(١) هذه الآية جاءت في سياق سورة الأنفال، ولو سأل سائل ما علاقة سياق سورة الأنفال التي جاءت بذكر يوم الفصل في الدنيا بين المسلمين وقريش" لكان الجواب: أن سياق هذه السورة جاء سياقاً تعريفيًّا بأحداث المعركة، وما تفضّل الله به على المسلمين من نعم كثيرة تنتهي بنصر المؤمنين، وتعريف بسنة الله في التغيير، بسبب ورود واحدة من آيتي التغيير فيها، وكلها أمور تُعرّف الإنسان بطريقة استجابة الإنسان، وكيف تكون إرادة الله محققة لنُصرة المستجيب، وفيها نداء للمؤمنين يشمل أمر الله تعالى بالاستجابة لله ورسوله إذا دعاهم لما يحييهم.

إنّ من طبيعة النفس أن لا تكترث لخطابٍ صادر عمن لا مكانة له فيها، ومن طبيعتها أن لا تستجيب إلا لمن كانت الاستجابة له تحقق منفعة ما، سواء أكانت المنفعة مادية أم نفسية، وإذا عظُم مقدار قيمة المنفعة الحاصلة ازدادت سرعة الاستجابة للخطاب، وانظر إلى حال الناس في الجاهلية كيف كانوا يستجيبون ليحققوا منافع لهم، فما هو الأسلوب الذي سيأتي به القرآن ليحقق استجابة الناس لمنهجه؟ فالناس لا يعرفون حقيقة المخاطِب، كما أنهم لا يرون تلك المنفعة المتحققة خصوصاً ما كان مادياً، فالإنسان يريد تلك المنفعة عاجلاً فهو مفطور على ذلك لقوله تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

لذلك كان من حكمة الله تعالى أن يبدأ بتوجيه الخطاب عند بداية نزول القرآن إلى النبيّ ﷺ، وكان من الحكمة -أيضاً- التعريف بالله تعالى، موجِّها للنبيّ ﷺ آمراً له، بوصفه أوّل مكلّف في هذا المنهج الربانيّ، كما كان من الحكمة -أيضاً- الابتعاد بداية عن أمر الناس كي لا تنفر من هذا المنهج القويم، فهم في مجتمع يقوم على طبقيةٍ ذات قسمين؛ فئة آمرة، وهذه الفئة لن تسمح لغيرها آمراً، وفئة مأمورة، وهذه فئة مقهورة لن ترضى أن تستجيب لأوامر من لا تعرفه عندما تقابله بينه وبين من تعرفهم من آمريهم، فابتدأ نزول القرآن الكريم عندها بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ [العلق: ١]... إلى آخر الآيات الكريمات.

وهناك أمر آخر لا بد من بيانه وهو أن التغيير عملية معرفيّة، والقراءة هي الأداة التي تزيد المعارف سواء أكانت هذه القراءة لكتاب الله المنظور في الكون بالتأمل والنظر، أم قراءة القرآن، أم قراءة غيرهما مما يزيد به الإنسان من معارفه، فالقراءة إذن هي الوسيلة للتغيير، والهدف من نزول القرآن الكريم التغيير، إذن فإن نزول أول كلمة من القرآن ﴿ٱقْرَأْ﴾ دليل على أن القراءة هي السبيل للتغيير ووسيلته، فمن أول كلمة نزلت من القرآن الكريم دعوة للتغيير في الفرد، وأن التغيير هو عملية معرفيّة فكرية بداية تنتقل إلى مراحل سلوكية.

ب- استخدام أسلوب التعجّب في خطاب النبيّ ﷺ للتعريف:

إن أسلوب الخطاب بإثارة العَجَبِ فيه تنبيه للاستعدادات، وإثارة للمدركات؛ إذ إن للتعجب دوراً في تعريف الإنسان بأهمية القضايا التي جاء بها القرآن الكريم؛ لتوليد الانتقاد لكل ما يخالف الحق، ولتوجيه المنطق العقلي للاقتناع بالأمور التي عرّف بها القرآن الكريم، فمثلاً استخدام أسلوب التعجب للتعريف بقضية اليوم الآخر والتعريف بشذوذ من ينكرها بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: ٥]، "فقولهم عجيب حقيق بأن يُتعجب منه؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدّد عليك من الفِطَرِ العظيمة ولم يعي بخلقهنّ، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب."[(١)]

ت- أسلوب الاستفهام بوصفه سلسلة متتابعة لإيجاد الإقناع العقلي:

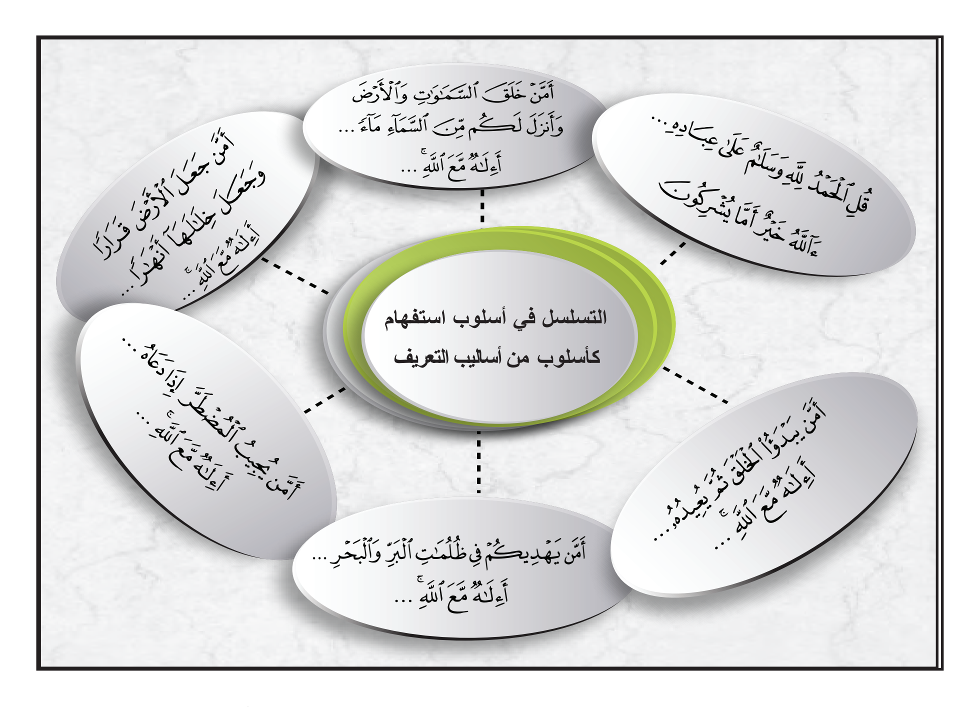
ومن أهم الأساليب إثارة للتفكير المنهجي المنضبط في تتابع أسلوب واحد في أكثر من معنى، أسلوب الاستفهام في التعريف والإقناع بما تم تعريفه، والاقتناع العقلي إذا تمّ قطعت النفس في إحداث التغيير لما فيها شوطاً كبيراً، فالاستفهام بدوره إعمال لكل الملكات النفسية، مع التعمق في التفكير، وزيادة تأثير هذا التعمق في النفس، من خلال سلسلة استفهاميّة متينة، تجول بالفكر بين القضايا والحقائق، لإحداث إضافات تعريفيّة جديدة متتابعة.

ومثالها من سورة النمل؛ إذ ابتدأت تلك السلسلة بأمر للنبيّ ﷺ، ثم تتابعت السلسلة الأسلوبية الاستفهامية في تعريف المخاطبين بالله تعالى، والتأكيد على قدرته، وتقرير النفس بوجوده، وإقناعها بأحقيّته بالتوحيد فيقول عز وجل: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) الزمخشري، **الكشاف**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٠٤.

وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ – ٦٤].



إن لأسلوب الاستفهام قوة في الإقناع؛ إذ إن له دوراً في تقرير النفس بالصواب، فمَن أراد إثبات أمر له دلائل كثيرة لمنكر، يتوجّه بالسؤال عن تلك الدلائل ليتوصّل إلى إثبات ما أراد من خلال تقرير المنكر نفسه عن الحقيقة، فيتولد الاقتناع؛ لأن ما يُطرح لديه من دلائل مثيرة لحركة التفكير، فيبدأ الفكر بالذهاب إلى أي مدخلٍ يثبت خطأ تلك الدلائل، فلا يجد سوى التصديق لها، وكلما حاول الباحث عن فرصة للإنكار وجد تصديقاً آخر... وهكذا، وكل تصديق

بمثابة توكيد للمعلومة المتاحة أمامه، فإذا أظهر العجز عن إيجاد حجة للإنكار، كان هو الاقتناع العقلي، ولا حجة للنفس إذا لم تتبع ما عرفت أنه الحق، فللحق سطوة على النفس المفطورة على الخير، وموافقته إياها، فهذا الأسلوب هو بمثابة قيام حجة على النفس في عجزها عن إيجاد فجوة تنكر ما تم التعريف به، وإذا تم الاقتناع العقليّ لا بد من تأثير مغيّر وموجه للنفس يحركها نحو التقدم إلى التزود من خير ما عرفت من الحق، وهذا التوجّه هو حركة التغيير في النفس.

إن تقييد الإنكار النفسي، وإيجاد الاقتناع العقلي، وقطع الطريق أمام تفلّتات النفس، وسدّ ثغرات الشك، كلها من أهم العوامل التي تُحدث التغيير، ومدى تأثير أسلوب الاستفهام في تحقيق هذه العوامل يدعم عملية التغيير لتستقرّ تفاصيل المنهج القرآني في النفس الإنسانية.

٢- أساليب القرآن الكريم للتقريب المعرفيّ

التقريب: "هو سوق الدليل على وجه يستلزم المطلوب،"[(١)] وأقصد بأساليب التقريب: الطرائق التي اتخذها القرآن الكريم لإيجاد الرابطة بين القضايا القرآنية، وإقامة العلاقة بين الأمور التي تم التعريف بها والتأكيد عليها، وتقريبها للأفهام، لإقامة التصوّر السليم عنها مجتمعة، وإحداث المقابلة المعرفية لتحديد موقع كل أمر منها في الحياة، وتحديد الأولويات العملية بينها، من خلال ضرب الأمثلة القصصية والأمثال الفكرية، والتصويرات الفنية، والتشبيهات البيانية؛ لإتمام المعرفة الشاملة بحدود الدين ككل من خلال إجمالها، وتشكيل تصوّر لجزئيات القضايا المعرفية الواردة في القرآن الكريم من خلال تفصيلها، مع اقتران هذه الأساليب بالإقناع العقليّ والبناء المنطقيّ، وتفعيل الشعور بالمعارف القرآنية، بإيجاد التقييم للأحداث، والمواقف، والأشخاص الناتج عن المقارنة، بهدف ارتقاء معرفة الإنسان في تنظيم قراراته وفق سنن الله في خلقه، وضبط قدرته في محاكمة الأحداث، والأشخاص في الحياة، من خلال ميزان عقليّ للحكم سويّ.

---

(١) الجرجاني، **التعريفات**، مرجع سابق، ص٦٨.

يعتبر أسلوب التقريب للمعارف وسيلة لفهم خطاب القرآن الكريم، ومعرفة ما يترتب على الالتزام به، وما يترتب على مخالفته، وجاءت الأساليب التي تعمل على تقريب المعارف كالآتي:

أ- التقريب بضرب الأمثال:

تعدّ الأمثال الواردة في القرآن الكريم محاكاة تستجلب شعور الإنسان عند إيجاد قوانين حياتية؛ هادفة إلى إيقاظ ملكة التمييز، واستثارة التفكير بمنهج قويم، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، فمن عرف الحق من الناس آمن؛ لأنه ميّز الصواب فاتبعه، والفئة الأخرى ضلت في تمييز مقاصد ورود المثل والخطاب القرآني؛ إذ "يُطلب المثال حتى يخرج الصواب؛"[(١)] لأنه عندما يبيّن الأشباه "فإن حجج الله تعالى تصبح أقرب إلى أفهامهم،"[(٢)] "كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً، ينفذ أثره إلى قلبه، وينتهي إلى أعماق نفسه."[(٣)]

يقول الآلوسي في فائدة المثل بوصفه أسلوباً للتقريب المعرفيّ: "لضرب المثل شأن لا يخفى، ونور لا يطفى، يرفع الأستار عن وجوه الحقائق، ويميط اللثام عن محيا الدقائق، ويُبْرِزُ المتخيل في معرض اليقين، ويجعل الغائب كأنه شاهد، وربما تكون المعاني التي يراد تفهيمها معقولة صرفة، فالوهم ينازع العقل في إدراكها حتى يحجبها عن اللحوق بما في العقل، فبضرب الأمثال تبرز -المعاني- في معرض المحسوس، فيساعد الوهم العقل في إدراكها، وهناك تنجلي غياهب

(١) القرطبي، **الجامع الأحكام القرآن**، مرجع سابق، م١، ص٩١٤.

(٢) المرجع السابق، م٢، ص٢١٢٣، بتصرف.

(٣) رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، بيروت: دار المعرفة، ط٢، ١٣٩٣/ ١٩٧٣م، ج١، ص٢٣٦.

الأوهام ويرتفع شغب الخصام،"[1] وتصبح القضايا التي صارت قريبة حقائق لا تخفى على أي إنسان.

إن الهدف من ضرب الأمثال إيجاد التكامل الفكريّ، من حفظ القضايا التعريفيّة في الذاكرة وتثبيتها، لبناء الخبرة الإنسانية كما قال تعالى بعد ضرب المثل في الكلمة الطيبة: ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم:]، فضرب المثل له دوره في التغيير "لما فيه من تصوير المعقول بصورة المحسوس تأثيراً بليغاً في تسخير النفوس،"[2]، وهو خادم لغايات القرآن الكريم المرحلية والمحوريّة؛ إذ إن سعيه بالغ الأثر في تحقيقها.

والسؤال في هذا الجانب من الأساليب: كيف تتعامل النفس مع الأمثال فيتغيّر ما فيها؟

يكون هذا المثل دافعاً لإعمال الفكر في ماضي الإنسانية وحاضرها ومستقبلها، مستجمعاً الإنسان كل طاقاته في اتخاذ القرار الذي يضمن له السلامة، فبالأمثال "يرتفع التنازع بين الحس والخيال،"[3] ويبدأ قياس الأعمال على من ذُكِر حالهم، وعلى القاعدة التي قيس عليها المثل، ومن هنا تكون بداية حساب النفس وفق سنن إلهية بيّنة؛ إذ يقوم المثل "بتشبيه الخفيّ بالجليّ، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقاً للعقل وذلك في نهاية الإيضاح،"[4] فيتكامل عمل النفس، وتتغذى الخبرة الإنسانية من خلال عرض تجارب الأمم الماضية، فإذا نمت تجربة الإنسان تغيّرت قناعاته وأفعاله، وزادت معارف الإنسان وتوسعت مداركه، وهذا ما ترمي إليه الأمثال بوصفها أسلوباً من أساليب القرآن؛ إذ إن تلك الجدّيّة في القول، وتصوير أهمية الفعل للأمر الممثل به، وخطورة المواقف، لهو أمر ثائر في النفس عند استشعارها أهميّة القضيّة المطروحة، وكفيل بتحفيز سرعة الاستجابة لها.

---

(١) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، مرجع سابق، ج١، ص١٦٥.

(٢) المرجع السابق، ج٥، ص١٢٥.

(٣) المرجع السابق، ج٥، ص٢٠٢.

(٤) الفخر الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مرجع سابق، ج١، ص٣١٢.

ب- التقريب من خلال القصة القرآنية:

إن كلمة "قصّ" تحمل معنى تتبع الأثر... والتساوي، فإذا قيل قصصت الشيء إذا سويت بين أمرين كأن الثاني تابع للأول،[1] وعليه فقد ورد أثر السابقين في القرآن الكريم من خلال أسلوب عرض قصصي للتعريف بحال الأمم الماضية خيرها وشرها، وللتنبيه على قيام العدل والمساواة بين الناس أجمعين، وبيان القاعدة القرآنية في التعامل الرباني مع الناس كما جاء في قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠] فتكون القصة ميزاناً يحكم به الإنسان على نفسه، ويعدل سلوكه من خلاله.

إن دور القصة القرآنية في التغيير الفردي دور بيانيّ شامل، وهذا الدور البيانيّ يقوم على تعريف الإنسان بالسنن الإلهية الجارية في الإنسانية من بداية الخلق إلى نهايته تفصيلاً وإجمالاً، وهذا التعريف يسهم في إغناء خبرة الإنسان، وإيجاد قدرته على اختيار الطريق الأسلم عند إرادة التغيير، ويضمن محافظة النفس على ارتقائها لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، والاتعاظ الناتج عن عرض تجارب الأمم الماضية ونهاياتهم.

فالقصة القرآنية لا تقتصر على أسلوب واحد في العرض، إنما تحمل في ثناياها أساليب عدّة مجتمعة ومتكاملة، كالنداء، والدعاء، والاستفهام، والتشبيهات، والإخبار، والاستثناء، والنفي، والنهي، والتقديم والتأخير... من أساليب ما توافق التكامل العملي لاستعدادات النفس الإنسانية.

إن الإحياء الذي تبعثه القصة القرآنية، وتخييل العواطف، والانفعالات للمواقف والأشخاص، والجمال الأسلوبي المتبادل في عرض شخصيات القصة، والتكامل التصويري الانفعالي للخير وأهله، وتلك المفارقة بينهم وبين الشر وأهله، الآخذة بالحس، والمستجلبة للخيال فيرسم المشاهد وكأنها مرئية، من غير فجوة بين الأفكار، مع تناقلات تعريفية إضافية، لهو من سمات الأسلوب

---

(١) انظر: ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٦٣.

القصصي القرآنيّ في توجيه النفس نحو ضرورة التغيير من حالها، والإلحاح بإيجاد التوافق بينها وبين بارئها.

والشكل البياني الآتي يُبيّن كيف يتم التقابل بين المواقف والأشخاص والأحداث من خلال القصة القرآنية، ليقرّب إلى الأفهام مقاصد المنهج القرآني، ويبيّن الجزاء والمآل، لتقام الحجة على النفس، ولا يكون لها سبيل للإنكار أو الحجة بأنها لم تتعرف إلى مقاصد الخطاب القرآني:

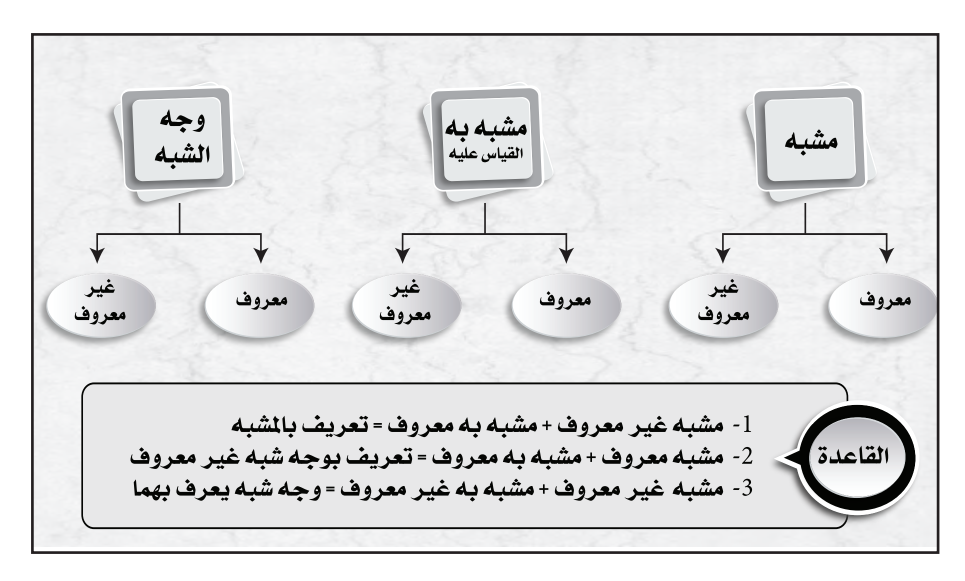


الشكل البياني يبين التقريب من خلال مقارنة الأحداث في القصة القرآنية

ت- التقريب التعريفي الضابط للفكر من خلال التصوير بالأساليب البيانية التمثيلية:

إن المنطق العقلي عملية بحث عن الحقيقة عن طريق النظر المستقيم والتميز

الصحيح،[1] ودور الأساليب التمثيلية هو إقامة التمييز الصحيح باستخدام قُدْرَتَيْن هما؛ المنطق لقيام الرابط، والخيال لقيام صورة هذا الرابط. ثم إن دور التمثيل التعريف بأحد أجزائه غير المعروف في حال كون الآخر معروفاً،[2] أي أن يتم التعريف بالمشبّه غير المعروف ذاتاً أو حالاً من خلال استغلال معرفة المخاطب بالمشبه به أو حاله، لتتم المعرفة من خلال التقريب،[3] أو أن يتم التعريف بوجه الشبه غير المعروف من خلال المشبه والمشبه به المعروفين للمخاطب، كما في الرسم المبيّن أدناه:



وفيما يأتي **تطبيق لقاعدة التقريب المعرفي** من خلال إيراد الأمثلة عليها:

- **مثال على التقريب للمشبه كي تتم معرفته:** كقول الله تعالى في وصف الحور العين: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]، فالحور العين مشبه غير معروف، وتم استخدام التشبيه للتعريف بها في وصفها بأنها تشبه الياقوت

---

(١) العقاد، عباس محمود. **التفكير فريضة إسلامية**، القاهرة: دار نهضة مصر، (د. ت.)، ص٢٦.

(٢) ولربما يكون المخاطب عارفاً ولكنه غافل فتكون أساليب التمثيل للتنبيه والتذكير.

(٣) والكلام نفسه يُطبّق على المشبه.

والمرجان،[1] والياقوت والمرجان معروفان، ووجه الشبه[2] بياضهن وصفاؤهن وحمرة خدودهن، واجتماع الصفاء والبياض كمال في الحسن كما هو في الياقوت والمرجان، وبهذا تشكّلت المعرفة في العقل للأمر المجهول، فتولد معرفتها استشعاراً بجميل الجزاء من الله تعالى، وذلك إذا آمن الإنسان وعمل صالحاً، أو بمعنىً آخر يستشعر الإنسان قيمة التغيّر بمنهج القرآن الكريم، وهذا الشعور نتاج اقتناع العقل من محبة القلب للنعيم المذكور، وهذا التقريب أحد أهم أساليب الترغيب والترهيب في القرآن الكريم، فالرغبة بالشيء تستدعي السعي إليه والتغيير لأجله، والرهبة من الشيء تستدعي الكف عن كل ما يوصل إليه، وهذا الكفّ هو تغيير في حقيقة الأمر.

- **مثال على التقريب لوجه الشبه كي تتم معرفته:** كما في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]، فالمشبه به الماء النازل من السماء عند سيره في الأودية حاملاً في سيوله الزبد، والمعدن عندما ينصهر يحمل الزبد، والمشبه حال الحق والباطل في الحياة

---

(١) الْيَاقُوتُ هو حَجَرٌ لَوْ أَدْخَلْتَ فِيهِ سِلْكًا ثُمَّ اسْتَصْفَيْتَهُ لَأُرِيتَهُ مِنْ وَرَائِهِ، والْمَرْجَانُ صِغَارُ اللُّؤْلُؤِ، وقد ورد حديث شريف رواه الترمذي في سننه، مرجع سابق، في تفسير الآية: " إِنَّ الْمَرْأَةَ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُرَى بَيَاضُ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ سَبْعِينَ حُلَّةً حَتَّى يُرَى مُخُّهَا"، كتاب صفة الجنة، باب صفة نساء أهل الجنة.

(٢) وقد اختلفت الأقوال في التفاسير في وجه الشبه على عدة أقوال: صفاء الياقوت في بياض المرجان، صفاء الياقوت. وحمرة المرجان، وقال ابن عطية: الياقوت والمرجان من الأشياء التى يرتاح بحسنها، فشبه بهما فيما يحسن التشبيه به، فالياقوت في إملاسه وشفوفه، والمرجان في إملاسه وجمال منظره. انظر:

- الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، مرجع سابق، م١٣، ص١٧٣-١٧٤.
- الآلوسي، **روح المعاني**، مرجع سابق، ج٩، ص١١٩.
- ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مرجع سابق، ج١٤، ص٢١٤.

من إذ الديمومة والظهور، ووجه الشبه ديمومة الماء الصافي، وأصل المعدن الصافي، وبقاء الأصل كبقاء الحق في الحياة مهما طفا الباطل عند السطح الذي كان يشبه الزبد، وزوال الزبد الطافي على السطح؛ لأنه مستقذر كما هو الباطل في الحياة، فالمنطق العقليّ يقيس وجه الشبه غير المعروف بالمشبه والمشبه به المعروفان، فالماء والزبد والمعدن أيضاً المنصهر وزبده معروفان، والحق والباطل أمران أيضاً معروفان، ووجه الشبه بين الأمرين الحسي والعقلي غير معروف، فتم التقريب لتوليد المعرفة، وإيجاد الاقتناع، وإقامة الحجة بوجود وجه الشبه الذي هو البقاء للحق والدوام، والزوال للباطل نهاية المطاف.

وإن للتمثيل وظيفة أخرى غير التعريف والتقريب، فاقتران أسلوب التمثيل بالاستفهام للتقرير لهو تحكيم عقليّ بالموازنة الحاصلة والمقارنة القائمة؛ إذ إن القرآن يتخذ من أسلوب التمثيل تعريفاً لأمرين اشتركا في حكم، ثم يتبع هذا التعريف استفهاماً تقريريًّا بهدف إنطاق النفس بالحق البيّن أمامها، فتشهد على صاحبها بمنطق الحق البيّن.

وأمثلة هذه القضيّة كثيرة الورود، عميقة المعنى، منها قوله تعالى في مقارنة فريق المؤمنين بفريق الكافرين: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]، وعند عرض صورة رجل أعمى أصم؛ أي لا يبصر ولا يسمع، يقف بجانب رجل بصير سميع، بيان كافٍ للفرق بينهما.

إن الفرق بداهة معروف في أن كلًّا منهما نقيض الآخر، وأن قدرة البصير والسميع أكثر من قدرة الأعمى والأصم، وأن علم البصير والسميع أكثر من الآخر، وأن النفس تفضّل حال البصير والسميع على الآخر، وأن البصير والسميع أكمل من الآخر، وعندما تتلقى النفس هذه الصورة المقارِنة، ويأتي السؤال: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، ماذا يكون جوابها؟

إن الجواب بَدَهيّ هو: (لا، لا يستويان مثلاً)، بل شتان بينهما، وإن فرضنا أن هناك من قال إنهما يستويان، أو هناك من قال إن الأعمى والأصم أفضل من

البصير والسميع؛ ما هو الحكم عليه؟ أهو الغباء، أم الجنون، أم عدم التمييز، أم التخلف العقلي والوهم الظنّي، أو وهن التفكير والتمييز، أم أنه يعاني من أزمة نفسية تجعل الخلط واللبس فيما كان بيّناً حاله، أو أن هذا الجواب ردّة فعل منكرة لمنتصر بالإقناع؟ ... إلى آخره من افتراضات تُبنى على منكر الحق الظاهر من خلال هذا التشبيه.

وعليه تقوم الصورة المتزنة بين متبع الحق، ومتبع الباطل، فيكون قرار النفس بيدها، أتكون كالأعمى والأصم، أم كالبصير والسميع؟ وبهذا الأسلوب يعين الله تعالى النفس على اختيار الحق بعد إكرامها بالإرادة، فكرامة الاختيار القائم على حرية الإنسان، يُضَاف إليه كرامة الأسلوب في ضبط الاختيار ضبطاً منهجيًّا، وتوجيه الحرية ضمن إطار الحق الذي لاتنكره النفس، ويبين قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦]، كيف يكون الإنسان أعمى، وكيف يكون بصيراً؟ الجواب في قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، فيكون بصيراً إن اتبع الهدى فقد أبصر الحقيقة واتبع الحق، باعتقاده السليم بالله تعالى الذي جاء بمنهج القرآن الكريم الآمر بالتغيير، أما من عمي فعليها، وتقوم الحجة عليه بأن عرف الحق.

- التعريف بالمشبه والمشبه به من خلال وجه شبه معروف: كما جاء في قوله تعالى في وصف شجرة الزقوم: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[الصافات: ٦٢ - ٦٥]، فعندما شبهها الله تعالى بقوله: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، فمن رأى الشياطين ليعرف كيف يكون طلع شجرة الزقوم؟

يقول الطبري في أحد أوجه تفسيره لهذا التشبيه: "أن يكون مثل ذلك برؤوس الشياطين على نحو ما قد جرى به استعمال المخاطبين بالآية بينهم؛ وذلك أن استعمال الناس قد جرى بينهم في مبالغتهم إذا أراد أحدهم المبالغة في

تقبيح الشيء، قال: كأنه شيطان،"[1] فيكون المشبه شجرة الزقوم هي غير معروفة، والمشبه به رؤوس الشياطين وهذه الرؤوس أيضاً غير معروفة، ووجه الشبه المبالغة في التقبيح، وإدراك القبح معروف، فقرّب وجه الشبه الصورة، وعرّف من خلال هذا التقريب بطرفي التشبيه، وأوجد بينهما علاقة المبالغة في القبح.

يقول الزمخشري: "استعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها: إما استعارة لفظية، أو معنوية، وشبه برءوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر؛ لأنّ الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير، فيقولون في القبيح الصورة: كأنه وجه شيطان، كأنه رأس شيطان. وإذا صوّره المصورون: جاءوا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله، كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه، فشبهوا به الصورة الحسنة. قال اللّٰه تعالى ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ وهذا تشبيه تخييلى. وقيل: الشيطان حية عرفاء لها صورة قبيحة المنظر هائلة جدا. وقيل: إنّ شجرا يقال له الأستن خشنا منتنا مرا منكر الصورة، يسمى ثمره: رؤوس الشياطين. وما سمت العرب هذا الثمر برءوس الشياطين إلا قصدا إلى أحد التشبيهين، ولكنه بعد التسمية بذلك رجع أصلا ثالثا يشبه به مِنْها من الشجرة؛ أي من ظلعها فَمالِؤُنَ بطونهم، لما يغلبهم من الجوع الشديد، أو يقسرون على أكلها وإن كرهوها، ليكون بابا من العذاب، فإذا شبعوا غلبهم العطش فيسقون شرابا من غساق أو صديد، شوبه: أى مزاجه مِنْ حَمِيمٍ يشوى وجوههم ويقطع أمعاءهم."[2]

ويقول الجرجاني في كتاب دلائل الإعجاز: "وهكذا قياس التمثيل، ترى المزية أبداً في ذلك تقع في طريق إثبات المعنى دون المعنى نفسه، فإذا سمعتهم

---

(١) الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، مرجع سابق، م١٢، ص٦٨، وقد أورد أوجه عدّة لتفسير هذا التشبيه، منها: أن يكون مثل برأس حية معروفة عند العرب تسمى شيطانا، وهي حية لها عرف فيما ذكر قبيح الوجه والمنظر، أو أن يكون مثل نبت معروف برؤوس الشياطين ذُكِر أنه قبيح الرأس ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الصافات: ٦٦].

(٢) الزمخشري، **الكشاف**، مرجع سابق، ج٣، ص٦٨٠.

يقولون: إن من شأن هذه الأجناس أن تَكْسِبَ المعاني نُبْلاً وفضلاً، وتوجب لها شرفاً، وأن تفخّمها في نفوس السامعين، وترفع أقدارها عند المخاطبين، فإنهم لا يريدون الشجاعة والقِرى وأشباه ذلك كم معاني الكلم المفردة، إنما يعنون إثبات معاني هذه الكلم لمن تثبت له ويُخبَر عنه."[1]

ثانياً: أساليب القرآن الكريم في التغيير التنفيذي

١- أساليب التوجيه الإلزامي

تعلق الجانب التنفيذي من الأساليب بالسلوك الذي يسلكه الإنسان، وإنّ لاستثارة الحركة وتحفيزها عند الإنسان قبل إلزامه بأي أمر لهو كفيل بإيجاد تصميم على الاستمرار في التطبيق العملي لتفاصيل منهج القرآن الكريم، فلا بد من استخدام الأساليب التي تدفع النفس وتحثّها على الالتزام بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، من خلال تشكيل استعداد نفسي طوعيّ لاستقبالها أولاً، والتدرج الدقيق في زيادة نسبة هذا الالتزام، فمن حكمة الله أن قام ببناء العقيدة في النفس أولاً، ثم طالب هذه النفس بأحكام المنهج القرآني الواجبة للسيطرة على سلوكها، وهذه "السيطرة بتوجيه السلوك نحو هدف معيّن، ولا تكون إلا عندما يتم معرفة الحاجات والدوافع والميول التي تمتاز بالتغيّر والتعدد والدينامية؛ إذ إنها -الدوافع والحاجات- تتجمع وتتآلف وتتغير بنحو مستمر، فتؤثر على السلوك الإنساني."[2]

ظهرت خاصية التدرج القرآنيّ في هذا الجانب من الأساليب، فجاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: "إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ -القرآن- سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى

---

(١) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، مرجع سابق، ص٧١.

(٢) منصور، "السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس المعاصر"، مرجع سابق، ص١٢٥.

الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحلالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ لا تَزْنُوا لَقَالُوا لا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا..."[١] وعلى هذا كان البناء الأسلوبيّ في عدم إكراه النفس بل إلزامها طوعاً، كي لا يكون منها ردّة فعل سلبيّة، تؤدي بالنفس إلى النفور، أو إثارة اعتبارها لحاجاتها وغرائزها.

وعلى ما سبق فإن أساليب التغيير التنفيذية العملية لتفاصيل المنهج القرآنيّ كالآتي:

جاءت أساليب الخطاب القرآنيّ قبل فرض التزاماتها بترغيب للنفس في القبول من وجهين:

الأول: تحقيق العدل الإلهي برفع قيمة الإنسان الذي تاقت له النفس، والمساواة بين الناس التي هي نتيجة إقامة العدل، فلا يمتاز أحد عن الآخر في التنفيذ، بل إن الأفضل هو من كان أكثر التزاماً وتنفيذاً للأوامر الإلهية الواردة في المنهج، فكانت الصرامة في التوجيه لازمة لكي لا تكون الاستهانة في التنفيذ.

والثاني: أنه استثنى من بعض الإلزامات بعض الفئات تيسيراً على العباد؛ ليكون الجانب التنفيذي بحسب طاقاتهم، فيكون المراد التيسير والتخفيف على الناس لقوله تعالى: ﴿... يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ... ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء: ٢٨]، وتسمى بالسياسة الاستثنائية في الأسلوب القرآني.

ولا بد من الإشارة إلى أن الأساليب بشكل عام وهذه الزمرة بشكل خاص تسهم في تشكيل التوافق بين النفس والسلوك عند الإنسان، والتوافق بين البيئة و السلوك، ويسمى هذا التوافق بالتوافق السلوكي؛ الذي يعني تفعيل "السلوك الموجّه للتغلب على عقبات البيئة، أو صعوبات مواقفها، كما أن آليات توافقه التي يتعلمها هي استجاباته المعتادة التي يسير عليها لإشباع حاجاته، وإرضاء دوافعه، وتخفيف توتراته،"[٢] مع ضمان عدم خروج السلوك عن المنهج المنظِّم.

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، حديث رقم ١٤١٨، م٣، ج٦، ص٥٨٥.

(٢) منصور، "السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس المعاصر"، مرجع سابق، ص٣١٦.

وعلى ذلك الأصل شملت أساليب التوجيه الإلزامي لتحقيق التغيير السلوكي ما يأتي:

- الإلزام العام للتغيير التنفيذي:

وهو قاعدة تنفيذيّة عامّة يتساوى فيها الناس أجمعون في التشريع دون تخصيص أحد، فجاء الخطاب من خلال توجيه شروط الإلزام العام الذي لا يفترق فيه أحد عن أحد من خلال استخدام أسلوب الشرط؛ إذ إن هناك حِكَماً بالغة، وأسراراً دفينة في استخدام هذا الأسلوب، فمجيء هذا الأسلوب قوة تحرك التركيب النفسيّ، مع فرض القياس العقليّ للوزن بين الأعمال، فما كان معروف النتائج في البداية كان ألزم في النفس، وأدعى لقيام الحساب على التقصير.

إن قيام الإلزام العام له دور في التغيير التنفيذي في استخدام الإنسان لإرادته في التغيير، ففي قول الله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم: ٤٤]، إلزام غير مباشر. ويبيّن الله من خلال هذا الأسلوب ما يريد من عباده، وينظم الفكر على قواعد التناسب بين معاني الفعل والجزاء، فالمعنى الأول فعل الإنسان، والمعنى الثاني جزاء الفعل، فيكون الإنسان عند الالتزام عارفاً بسنة الله تعالى في تغيّر فعله أكان موافقاً لمنهج الله، أو كان التغيّر مخالفاً لمنهج الله تعالى، وهذا كله مما ينطوي في عموم الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ [الرعد: ١١]، فإذا غيّر الإنسان فعله في تنفيذ أوامر الله، غيّر الله من حاله بحسنها جزاء بما كان منه من عمل، ونقيض هذه المعادلة قائم المعنى، متضمّن في السنة الإنسانية في التغيير؛ إذ كان ذلك كله دون توجيه الأمر المباشر والفرض الملزم الصارم، لحث إرادة الإنسان على اختيار الأعمال، إنما بإيجاد قناعة نفسيّة عند قبول العمل واستشعار المساواة للناس جميعاً عند إصدار الأمر بهذا الأسلوب، يشكّل الرغبة الكاملة في الالتزام، وتقرّ

النفس بخطئها إن خالفت الالتزام، ويهيّء النفس لمواجهة أي أمر يظهر خلاف القاعدة، فلا نفور من استقبال القاعدة الثابتة التي تُوازِن بين فعل الإنسان وجزاء الله، والتي تساوي بين المكلّفين جميعاً دون أيّ تمييز أو تفريق.

- السياسة الاستثنائية:

والسياسة من "السُّوس وهو الطّبع. ويقال: هذا من سُوس فلان؛ أي طبعه. وأمَّا قولهم سُسْته أسُوسُه فهو محتملٌ أن يكون من هذا، كأنّه يدلُّه على الطبع الكريم ويَحمِله عليه،"[1] "والسِّياسةُ القيامُ على الشيء بما يُصْلِحه،"[2] والسياسة الاستثنائية في القرآن: هي ما جاء في القرآن الكريم من أساليب تنفيذية تستثني فئات من الناس من الإلزام إما استثناء كليّاً أو جزئياً، إيفاءً من الله بما وعد عباده من إلزامهم بحسب طاقاتهم، فإما أن يبدلهم أحكاماً وفق وسعهم وهذا في حال الاستثناء الكلي ككفارة إفطار رمضان لمن لا يقدر على الصيام بسبب المرض، وكما جاء في بيان فريضة الحج، واستخدام أسلوب الشرط متضمَّنا الاستثناء، فقال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[البقرة: ١٩٦]،[3] أو أن يبقى التكليف العام ولكن يكون لهذه الفئة طريقة مخصوصة في التطبيق بحسب وسعهم، كصلاة المريض وهو جالس بسبب المرض، أو أن يكون هناك عفوٌ كليّ عن هذا الإلزام وذلك؛ لأنه لا يوجد قدرة نهائياً على القيام به، كسقوط فرض الزكاة عمن لا يملك النصاب.

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، م١، ص ٥٧٩.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة (سوس).

(٣) والتفصيل يستدعي الإطالة، لذا لم أذكر تفصيل التحليل للآية بل استشهدت بها على الفكرة المطروحة.

إن استثناء ذوي الحاجة من التكليف هي من أدلّة العدل الإلهي؛ إذ لا يتم معرفة السلوك الإنساني والتنبؤ به إلا عندما يكون المتنبّئ عالماً "بالموقف الخارجي المحيط بالفرد وخصائصه، والتكوين الحيوي والعصبي للفرد، وجانب الخبرات التي تعرض لها الفرد في مراحل حياته، ومدى التشابه بين المواقف الحاضرة وسابق الخبرات، وما يحتاجه من دوافع لتحريك سلوكه."[1] ولقد أقرّت العقيدة عند الفرد بأن الله مطلق العلم، ومنها علمه بالسرّ والعلانية عند الإنسان، لذا فهو الأعلم بكل ما يحيط بالإنسان من مواقف، وتكوين الإنسان الحيويّ والعصبيّ، وجانب الخبرات عند كل إنسان، فتكون أوامره مناسبة لكل حال، ومنهجه منظم لكل مجال، وموافق لكل نفس، ومراعياً كل قدرة مهما قلّت أو زادت.

ومن صور إعجاز القرآن الكريم أنه جاء بالقول الذي يؤثر في السلوك على اختلاف الفروق الفردية بين الناس أجمعين في المعنى والأسلوب؛ إذ إنه انطلق من مركز الالتقاء بين الناس جميعاً، فجاء بالأسلوب الذي ينبئ الإنسان به عن نفسه فيكون دافعاً للارتقاء، ورابطاً عمله بعقيدته.

٢- أساليب تحفيز التنافس للارتقاء

هو أسلوب قرآنيٌّ يهدف إلى تحفيز النفس للانتقال الارتقائي في مراتب القرب والإحسان من خلال تفعيل دور الفروقات الفرديّة، من تحبيب للنفوس الملتزمة وترغيبها، وتوجيه الهمّة نحو أعلى درجات الالتزام الإرادي، فإذا تمسَّك بها صار مرتقياً للأفضل، ومتفاعلاً مع القرآن بعمق أساليبه ومعانيه، ومسارعاً في الخيرات، ومسابقاً للوصول إلى أعلى الدرجات، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠ - ٦٢].

كما أنه لا بد من الإشارة إلى أن هذه الأساليب متعلقة بالاطمئنان النفسيّ، وتُظهر تبايناً في سرعة الاستجابة عند تنفيذ تفاصيل المنهج، فمثلاً إبراهيم كان

(١) منصور، "السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس المعاصر"، مرجع سابق، ص١٢٥.

أمّة كما بيّنت آيات القرآن الكريم، واتخذه الله خليلاً، وهذه من أقصى درجات القرب من الله تعالى، ولما كانت نفسه مطمئنة نالت هذه المرتبة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي... ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فلم يكن طلبه من باب الشك، إنما كان استزادة وارتقاء للوصول إلى درجة الاطمئنان.

ويتنوّع الخطاب القرآنيّ في استخدام زمرة من الأساليب المتفرّعة:

فالترغيب للتشويق، وهو تحويل الإرادة وتركيز النظرة نحو شيء طلباً له، والشوق هو "تعلّق بالشيْء، ونزاعُ النَّفْس إلى الشيء."[1]

كما أن الترغيب يولد الرضا، لقوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة: ٨]، فإن الآية القرآنية تحمل معنى الترغيب فيما أعدّه الله تعالى في الجنة، وهذا الترغيب يبعث شعور الرضا بما عند الله من خير، فيكون هذا الرضا زيادة في الإيمان، وهذه الزيادة تغيير في طبيعة الحال.

واختيار صيغ التفضيل في توجيه معنى الارتقاء أحد السبل لتحفيز النفس، وشدّها رغبة نحو الالتزام بمنهج القرآن، والتزامها هو تغيّرها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠}، فقوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾، دعوة لأن يتوجهوا إلى ما هو أبقى من دار الزوال، ويستقيموا على طاعة المنّان، فيغفروا إذا غضبوا، فحب تقدير الذات من حاجات الإنسان، والتنازل عنه لا يكون إلا من أصحاب النفوس التي تستعلي عن متاع الدنيا إلى متاع الآخرة الأبقى، والتخلي عن حظ النفس من أجل الله تعالى يعني وجود تقدم في مراتب التوافق النفسيّ، والتكامل الشخصيّ في البناء، والترغيب هنا إنما هو لزيادة التنافس على منزلة القرب من الله كما جاء في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فجاءت الآية تعريفاً بالقاعدة التي قررها الله

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج١، ص٦٣٣.

تعالى في بداية دعوة العبد للالتزام بالميثاق، فعند الترغيب بالعفو جعل الجملة بصيغة الخبر: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ وهي تقرير لحق الإنسان في القصاص من المعتدي، وبعد اطمئنان النفس لثبات هذه القاعدة ودوامها، يأتي دور أسلوب التعقيب بلا مهلة لتفيد الترتيب المتصل[1] بتلطف الأسلوب في قوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾، وهنا تبدأ المفارقة بين المتلقين للأسلوب؛ إذ إن من ابتغى القرب أكثر فقوله: ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ تعني له كثيراً، فهو يعلم أن الله هو كريم، وله كل الملك، يصرّف ملكه كيف يشاء، ومبدأ العطاء منه ومنتهاه إليه، فتُلغى قيمة الذات أمام أجر الله، فالله هو الذي أعطى للذات قيمتها، وهو يجزي أجراً مقابل التنازل عن هذه القيمة تنازلاً يوافق منهجه، يكون جزاؤه زيادة في هذه القيمة أضعافاً مضاعفة، ليأتي أسلوب التوكيد بعدها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تأكيداً لمعاني العدل الإلهي، فتتباين النفوس في التسارع إلى العفو بعد الترغيب بقدر حظ الإيمان من كل نفس، قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ [الحديد: ١١].

كما أن للمدح دوراً في تحفيز التباين السلوكي، فإن ما تُمدح به أي فئة التزمت وأدّت ما عليها يُكسبها شعوراً بالغبطة والتنافس الناتجة عن حب التقدم نحو هدف الرضا، ومثال ذلك الاستفهام في قوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، جاء الاستفهام بغية "إيقاظ وإثارة حركة الفكر والحس؛ ليلتفت بهذا الحضور الواعي إلى السياق، فيستوعبه بخفاياه ودقائق همسه وكل حواشيه، فيلتقط المراد، ليهيئ الاستفهام النفس لتتلقى من السياق ما يجيش به من خواطر ومشاعر وصور،"[2] ويُحكم الخيال دوره في تصوير المتصف بهذه الأوصاف، فتكون دافعاً يوجّه سلوك الإنسان نحو بلوغ درجات الإحسان، "فالمهم أن يلتفت السامع إلى هذه الحقيقة، ثم يُترك ليتعامل معها بوعيه، ويتدبرها بفكره، وينتهي فيها إلى ما يراه"[3] مناسباً لتقدّمه وارتقائه.

---

(١) المرادي، **الجنى الداني في حروف المعاني**، مرجع سابق، ص٦١.

(٢) أبو موسى، **دلالات التراكيب دراسة بلاغية**، مرجع سابق، ص٢٥٩.

(٣) المرجع السابق، ص٢٥٩.

أما التحبيب فهو من "اللزوم، فالحُبّ والمَحبّة، اشتقاقه من أَحَبَّه إذا لزمه،"[(١)] وأصله نابع من "تقوية اليقين؛ فبمقدار قوة اليقين يزداد الإنسان ارتقاء في درجة مستوى البشر،"[(٢)] والتحاقاً بقمم الكمال التي يسعى المُجدّ لها، ومثالها قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٠ - ١٤]، فالتوكيد بتتابع كلمة (السابقون)، وبعدها الإشارة لمرتبتهم، وتحديد موقعهم، والاستفاضة في وصف النعيم الحاصل لهم كقوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٦]؛ كل ذلك ليتبادر للذهن من خلال المبالغة والمدح عظم النعيم، مع جلب التشويق لتلك النعم، وإيجاد الدافع؛ لإحراز هذه المرتبة، والحماسة في التسابق للقرب، فتتأصل جذور الرجاء في النفس، وتزداد همتها للتسابق، وترتفع معنوياتها؛ لتكون جاهزة لمقابلة صعوبات الحياة بالصبر، مع إشفاق من الله[(٣)]، وجعل إيمانهم إيماناً خالياً من مثقال ذرة إشراك، فالمتسابقون "خائفون على أنفسهم، مع ما لهم من الأعمال الفاضلة؛ استقصاراً لها، واستعظاماً لجنابه عز وجل،"[(٤)] فكلما زاد الاستعظام لجنابه جل وعلا زاد الدافع للعمل؛ ليصل الإنسان إلى مرتبة الرضا عن الله تعالى فقال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]، وهو السبيل لإيجاد النفس المطمئنة التي جاء التوجيه المحبب لها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج١، ص٢٧٥.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٥، ص٢١، بتصرف.

(٣) يقول ابن كثير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧]، أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا، انظر:
- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ص٢٣٤.

(٤) الآلوسي، **روح المعاني**، مرجع السابق، م١٠، ص٧١.

الفصل الرابع

خصائص المنهج القرآني في التغيير الفردي و آثاره

أولا: خصائص المنهج القرآني في التغيير الفردي

(الاستقلال، والوسطية، والجمال، والكمال)

إن المنهج الذي لا يوجِد "فُرْجَةً بينه وبين غيره"[1] ولا يتميّز عن غيره من المناهج، ولا يكون منفرداً بهذا التميّز، ويكون بينه وبين غيره اشتراك، هو منهج ناقص الطريقة، لوجود مثله أو أفضل، ولوجود مجال للمقارنة، والتفاوت في إقامة سموّ الإنسانية.

ومن هنا جاءت خصائص المنهج القرآنيّ عند مسيرة تفاصيله، لتغيير الإنسانية عن غيره من المناهج؛ إذ إنه مختصٌّ بالتميّز المطلق، ليس في تغيير الإنسان فحسب؛ بل تميّزاً تامّاً شاملاً مطلقاً في ذاته وعمله، لم يسبق له مثيل، ولن يلحقه مثيل، إلى يوم الدين لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

إن الكلام صفة المتكلم،[2] والقرآن كلام الله الذي له المثل الأعلى، وعليه يكون للقرآن من الإجلال ما تتصدع منه الجبال، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، "فلو صَفَتِ القلوب من الأكدار، وملئت بمعارف والأنوار، لفهمت أسرار الكتاب، وجواهر معانيه، ولأدركت معرفة الحق من كلامه."[3]

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج١، ص٣٤٤.

(٢) ابن عجيبة، **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، مرجع سابق، م٣، ص٣١٨، وانظر أيضا:
- السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، مرجع سابق، ص٨٧٦.

(٣) ابن عجيبة، **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، مرجع سابق، م٣، ص٣١٨.

إن الميّزات التي يختص بها منهج القرآن عن غيره من المناهج والكلام تعجز غيره عن وجود الأحسن منها أو المثيل لها، فكون القرآن الكريم متميّز التأثير، وكونه متميّز التنظيم والتشريع، وكونه متميًّزا دون حدٍّ، يعني اختصاصه بما لا يحصى من ميّزات.

ولا بد من الإشارة لعدّة خواص أساسية فُصّل فيها من كتّاب آخرين،[1] درسوا قضية خواص القرآن فكان لما كتبوا الحظ الوافر من التفصيل، ومنها ربانية المنهج، وثباته، وشموله، وتوازنه، وإيجابيّته، وواقعيته، وتوحيده.

وكل خصائص القرآن الكريم في الحقيقة تعود في أصلها لخاصيّة واحدة تشملهم جميعاً، هي الربانية، وبما أن كل الخصائص راجعة لها، فإن هناك ميزات تفصيلية اختص بها هذا المنهج الرباني، تتفرّع عن هذه الخاصية أيضاً. وعلى ما سبق فإن خصائص المنهج القرآني التي جاءت بها هذه الدراسة ما يأتي:

١- استقلال المنهج القرآني وانفراده بعملية التغيير

أي انفراد المنهج بنفسه، دون الحاجة إلى غيره في خصوصيته، وهو من باب الترفع والاستغناء، وصفة الله تعالى الغنيّ: الذي استغنى عن الشريك والزوجة والولد والأعوان، وانفرد بالألوهية والربوبية والعز والكبرياء، ومنها كان غنى المنهج القرآني واستقلاله عن غيره من المناهج، "فإن القوي من له استقلال باطن بما يحمله القائم في الأمر، ولو ضوعف عليه ما عسى أن يضاعف، وحمايته مما يتطرق إلى الإجلال بشدة وبطش منبعث عن ذلك الاستقلال الباطن، وما ظهر من أثر ذلك فهو قدرة."[2] إذن فمشرّع المنهج القرآني في التغيير رب مستقل بوجوده، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله؛ لأنه واحد، فمرجع خاصية الاستقلال صفة الوحدانية.

---

(١) وأقصد المفسر سيّد قطب رحمه الله تعالى، فقد فصّل في كتابه: "خصائص التصوّر الإسلامي ومقوماته" عن هذه الخصائص للمنهج، بجودة سبك، وحسن تفصيل.

(٢) البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآي والسور**، مرجع سابق، ج٧، ص٥٠٦، بتصرف.

فالمنهج القرآني مستقل عن المثل، فهو منهج فريد، فلا يوجد منهج يجمع مقومات الصلاح للإنسانية، والكون، والحياة، كالذي جاء في القرآن، فاختص بالانفراد فيما جاء به، فلا مثيل له في منهجه الذي جاء ليغير الفرد تغييراً مستمرًّا نحو بلوغه درجات عليا من الارتقاء، فيكون إذن مستقلاً بالإصلاح فهو منهج إصلاحيّ.

وهو منهج مستقلّ في عمله، فإما أن يكون الاستقلال العملي بالتكامل التام بين أهدافه وأسسه وأساليبه؛ إذ إن أسسه وأساليبه، جاءت لتحقيق أهدافه بدقة وتناسق وتوافق بينها جميعاً، وانفرد منهجه بهذه الخاصية واستقل به عن غيره، وإما استقلاله بتعامله مع الإنسان بكل جوانب استعداده؛ إذ إن له من الأثر ما لا يقدر الإنسان على إهماله، فهو منهج "يخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبه الخاص، وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع، واللمسة المباشرة والإيحاء، وهذا الإيحاء بالحقائق الكبيرة، التي لا تتمثل كلها في العبارة. ولكن توحي بها العبارة، كما يمتاز بمخاطبة الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وطاقاتها ومنافذ المعرفة فيها"[(١)] فهو المنهج الوحيد الذي يستقل بمخاطبة كل استعدادات النفس الإنسانية.[(٢)]

كما أنه مستقل بأنه الحق، وما دونه ما هو إلا الباطل، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، فأيّ منهج وجد على وجه الأرض اتصف بالحق المطلق؟ لذا فهو استقلّ باختصاصه بأنه فرقان، يقص الله فيه الحق وهو خير الفاصلين، ويعمل على تصفية الفرد من شوائب الشرك بالله تعالى، فهو يقوم على التمييز بين الأمور، لانتفاء اللبس والخلط؛ إذ تجد كل واقعة من وقائع الحياة حكماً لها، أو موقفاً منها، أو طريقة للتعامل معها، فالفرقان هو "الفرقُ بين الشيئين والفصل

---

(١) قطب، **خصائص التصوّر الإسلامي ومقوماته**، مرجع سابق، ص١٦.

(٢) وسيتم التفصيل في اتصاف المنهج بخاصية الوسطية في التعامل مع النفس.

بينهما، وقد يكون ذلك بقضاءٍ، واستنقاذٍ، وإظهار حُجَّة، ونَصْرٍ، وغير ذلك من المعاني المفرِّقة بين المحقّ والمبطِل، فقد تبين بذلك أنّ القرآن سُمّي "فرقانًا"، لفصله -بحججه، وأدلَّته، وحدود فرائضه، وسائر معاني حُكمه- بين المحق والمبطل. وفرقانُه بينهما: بنصره المحقّ، وتخذيله المبطل، حُكمًا وقضاءً،"[١] فأي منهج امتاز بأنه فرقان يميّز بين الأمور كلها، ويصنّفها ليعلم الإنسان موقعه فيه، وجزاء عمله الذي أقدم عليه؟

وهذا يسهم في إيجاد الشخصيّة المستقلة التي تميّز بين الحق والباطل مهما اختلطت بها الأحداث بدقة واتزان، كما كانت شخصيّة عمر بن الخطاب ﵁ الذي سمّي بالفاروق.

وأن يختص منهج القرآن بخاصية الفرقان يعنى أن تظهر مكانة كلمة الله تعالى أمام كلمة الباطل، فتظهر المسافة بينهما، ففي قمم العلو كلمة الله، وقمم الانحدار كلمة غيره، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فينجلي الفارق بينهما ليكون الفارق ظاهراً للعيان، "فباعتبار الفرق يكون منشأ الاستقامة."[٢]

وهو مستقل في تعامله مع الروح، فهو منهج روحيّ، فلا يوجد منهج يتوصّل لطريقة في التعامل مع الروح إلا منهج القرآن الكريم؛ لأن مشرّع المنهج هو المنفرد في معرفة حقيقة الروح، والروح من الاستعدادات للتغيير، إذن فمنهج القرآن في التغيير هو الذي سيستقلّ وينفرد في التعامل معها، والتأثير بها أكثر من أي منهج آخر.

يقول محمد عبد الله دراز: "فبينما النظرة المنطقية أو النفسية تنحصر في حظيرة العقل أو النفس، باحثة عما فيها من المعاني والاحوال، ولا يعنيها دراسة

(١) الطبري، مقدمة تفسير **جامع البيان**، مرجع سابق، م١، ص٦٤.

(٢) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، مرجع سابق، م٢، ص٨٩.

ما خلف هذه الحدود، والنظرة الطبيعية تبرز إلى الوجود الخارجي ولكنها لا تعالج إلا ما يقع عليه الحس والمشاهدة بالفعل، أو ما هو من نوع هذ المحسات المشاهدات، ولا تنفك عن هذه القيود، تنفذ النظر الدينية فترمي من وراء ذلك كله إلى حقيقة أخرى لا تُلمَس في داخل النفس ولا في خارجها المادي، وإنما هي ذات غيبية وراء الطبيعة، بل فوق الطبيعة، فشأن المتدين أنه يطلب وراء كل حس معنى، ويلتمس تحت كل ظاهر باطناً، ويضع في مبدأ كل فعل فاعلاً... نعم إن الفلسفة الروحية تشارك النظرة الدينية في هذا الإيمان بما وراء الطبيعة،"[1] فالفلسفات المادية في كل مجالاتها، وخاصة مجال التغيير ممارساتها منقوصة، لا تنتج فكراً ولا حضارة متناسقة متزنة وشاملة؛ لأنها تقوم على غرائز وشهوات وأوهام، بمعنى أنها لا تقوم على جانب روحي، وهذا يجعل التغيير فيها قائماً على اضطراب، وعدم تواصل الإنسان مع نفسه، وكذلك غيره، وأيضاً عدم تواصله مع الكون كله.

وهو مستقل في التعامل مع زمن الحدث الماضي والحاضر والمستقبل، "فللإنسان أيام ثلاثة: الأمس والبحث عنه يسمى بمعرفة المبدأ، واليوم الحاضر، والبحث عنه يسمى بعلم الوسط، والغد والبحث عنه يسمى بعلم المعاد، والقرآن مشتمل على رعاية هذه المراتب الثلاث،"[2] فيبيّن أحداث الماضي، ويهدي لقوام الحاضر، ويبيّن وقائع المستقبل، بتناسق بين الأحداث، وتوجيه دقيق يربطها جميعاً، من خلال سنن حياتية وكونية، تسير عليه السنن الإنسانية.

كما أنه مستقل في لغة خطابه التي كانت وسيلة التغيير؛ إذ احتوت على أساليب البيان، نظماً، وجودة سبك، وتصوير المعاني، والإيجاز مع وفاء المعنى، والتأثير بلا تأثُّر، وطريقة التأليف، ووفاؤه بحاجة البشر، وثبوته القطعي، "ولِما ترى من استقلالِ هذه الطريقة بضروبٍ من أسباب المبالغةِ والتأكيد، كثُر سلوكُها

---

(١) دراز، محمد عبد الله. **الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان**، بيروت: دار القلم، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٤٤-٤٥.

(٢) الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، م٣، ج٧، ص١١٢.

في التنزيل المجيد، كيف لا وكلُّ ما ورد في تضاعيفه على العباد من الأحكام والشرائع وغير ذلك خطوبٌ جليلةٌ حقيقةٌ بأن تقشعِرَّ منها الجلودُ، وتطمئنَّ بها القلوبُ الأبية، ويتلَقَّوْها بآذانٍ واعية،"[1] لذا "تستقل الأنفس الإنسانية في جنب قدرته سبحانه أيما استقلال،"[2] فمنهجه تعالى قائم على اليقين، "ومن أمارات اليقين استقلالُ القلوب بالله عن انقطاع المُنَى مِن الخَلْق في توهم الإنجاد والإعانة."[3] وهو المنهج المستقل بالحفظ من التحريف والتبديل رغم وجود من يمكر به، كما أنه مستقل بالدوام ما دامت السماوات والأرض، فتمام نوره باق إلى يوم الدين لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ الذي يخرج به الناس من الظلمات.

إن استقلال هذا المنهج وتفرّده بالتغيير الذي يضمن الارتقاء للفرد والجماعة والأمة، يبدأ من إفراد الله تعالى وحده، وهذا وإن كان بحق فهو يعني وضع منهج الحياة كلها وفق الواحد المنفرد الذي لا إله إلا هو، وعليه يكون التغيير المتحقق بمنهج القرآن منفرداً بـ:[4]

- يغير الواقع إلى حقيقة فطرية عند الإنسان وهي تحقيق كرامة الإنسان، ومنحه الحرية الحقيقية، والتحرر الشامل من كل ما سوى الله تعالى.
- متفرد في أنه المنهج الوحيد المبتعد عن نتائج الهوى الإنساني، والنفع الذاتي عند قيام التغيير به، قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].
- يرتقي بالإنسان فرداً وجماعة حتى تصل الإنسانية إلى تحقيق العدل الحقيقي على مستوى الإنسانية، فلا يملك منهج آخر تحقيق العدل لقصور واضعيه مقارنة بمنهج القرآن الربانيّ.

---

(١) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، مرجع سابق، ج١، ص٨٠.

(٢) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، مرجع سابق، م١٥، ص٢٦١.

(٣) القشيري، **تفسير لطائف الإشارات للقشيري**، مرجع سابق، ج١، ص١٨٤.

(٤) انظر: قطب، سيد. **هذا الدين**، القاهرة: دار الشروق، ط١٤، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص١٧-٢٨.

- متفرّد بغايات بعيدة المدى لتغيير الإنسان وإصلاح الإنسانية، تشمل الدنيا وتضمن الآخرة، أو هو بمعنى آخر منهج مصلح لحياة الدنيا ويسلم مطبقه في الآخرة.

٢- الوسطية والتأثير

إن من بالغ الحكمة التعامل مع مركز الوسط في كل الأمور؛ إذ إن الوسط في اللغة "بناءٌ صحيح يدلُّ على العَدل والنِّصف. وأعْدلُ الشَّيءِ: أوسَطُه ووَسَطُه،"[(١)] والوسط هو المحور الثابت الذي تحيطه الموجودات، "وسمي الوسط سواء، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب"[(٢)] وعليه يسمى الوسط مركزاً لعلاقته بين كل الجوانب والأطراف دون طغيان لأحدها على الآخر، "فالأطراف يتسارع إليها الخلل،"[(٣)] والقرآن هو القول الوسط الحق العدل[(٤)] الذي لا تشوبه شائبة، وهو المختص بمركز الهداية والرشاد، يقول الآلوسيّ: "الصراط المستقيم هو الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في كل الأخلاق وفي كل الأعمال وتأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ...﴾ [البقرة: ١٤٣]،"[(٥)] كما أن الوسط هو السبيل الذي لا بد من ابتغائه، وقد جاء في القرآن الكريم "التعبير عن الأمر الوسط بالسبيل باعتبار أنه أمر يتوجه إليه المتوجهون، ويؤمه المقتدون، ويوصلهم إلى المطلوب،"[(٦)] كما "أن الوسط من كل شيء خياره."[(٧)] ومن أمثلة الوسطية التي اختص بها القرآن الكريم في عملية التغيير عن غيره:

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج٢، ص ٦٣١

(٢) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، مرجع سابق، م٨، ص٨٩.

(٣) أبو حيان، **تفسير البحر المحيط**، مرجع سابق، م١، ص٥٩١.

(٤) انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، م٣، ص٣٥١.

(٥) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، مرجع سابق، م١، ص٩٥.

(٦) المرجع السابق، م٨، ص١٨٣.

(٧) الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، م٢، ج٤، ص٨٤.

أ- خصيص النفس بالتغيير بوصفها مركزاً وسطيًّا في الإنسان:

إن تخصيص النفس بالتغيير في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] دليل على أن النفس هي الرابط بين الجانب الماديّ للإنسان والجانب المعنويّ، فمن غيّر نفسه فقد غيّر توجيه حواسّه، وضبط عمليات عقله، وأصدر الأوامر السلوكية المناسبة، وضبط الانفعالات والشهوات والأهواء بميزان المنهج القرآنيّ، وما ينتج عن ذلك من الرقيّ الروحيّ في ارتقاء العلاقة بين الخالق والمخلوق، لذا فإن تخصيص الأمر بالتغيير في النفس كفيل بأن يكون أمراً بتغيير كل ما سبق ذكره، وهو جانب من جوانب الإعجاز القرآنيّ في اختيار اللفظ الجامع لكل أطراف عملية التغيير.

ب- تخصيص التغيير بالذكر عن الكلمات الأخرى:

كما أن انتقاء لفظ التغيير كلفظ متوسط بين التحوّل والاستبدال أيضاً دليل آخر على وسطية التعامل مع الألفاظ؛ إذ إن الإنسان عند إرادة التغيير يعمل على تحويل مساراته وفق منهج الله، واستبدال الأفكار السقيمة والسلوكات، وعند ذكر لفظ "التغيير": استغنى عن التفصيل في التوجيه والتبديل.

إن خاصيّة الوسطية المنهجية في التعامل تكفل إيجاد أسس البحث المنهجي لدى الإنسان، وإطلاق عنان التفكير، ليتقدم في البناء الفكريّ والسلوكيّ، وليعرف كيفية التعامل الحياتيّ من خلال منهجية سليمة يضبطها التفكير المنهجيّ، وتصطبغ بصبغة الله، وتتسم بالسمة القرآنية الحكيمة، ويكون من آثارها وجود الفرد المتوازن الباني للمجتمع المتوازن، المحقق للأمة الوسط.

ت- وسطية الخطاب للتأثير المحركة للمنطق الوجداني في النفس:

عمل القرآن على تحديد أقرب طريق للوصول إلى هدف التغيير، فاتخذ من الخطاب بالمنطق الوجدانيّ سبيلاً للحوار والجدال، والتهديد والتيسير، والترغيب والترهيب، والأمان والتخويف، باعتباره الموقع الوسط في إيصال

لغة القرآن لتفاصيل النفس الإنسانية؛ إذ إن الاتصال الوجداني هو "مجموعة من الأحاسيس المتمثلة في الاستئناس والنفور التي تظهر بين الفرد ومحدّثه، لتعبّر عن حقيقة المشاعر والعواطف،"[1] والمنطق هو "آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر،"[2] والوجدان من وجد إذا حصل على مبتغاه ولقي ضالته، وظفر بها،[3] وهو مشتق من الوجد الذي يعني "ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع،"[4] والوجدانيات "ما يكون مدركاً بالحواس الباطنة،"[5] فيكون المنطق الوجدانيّ نتاج عصمة الفكر عن الخطأ مع حالة في القلب ناتجة عن السماع، تُنتجُ وتحرُّك الأطراف، "فالأسماع محك القلب، ومعيار ناطق"[6] فيلقى الإنسان ضالته فيما شرع في التفكير فيه، "فأول درجة السماع؛ أي فهم المسموع وتنزيله على معنى يقع للمستمع، ثم يثمر الفهم الوجد، ويثمر الوجد الحركة بالجوارح،"[7] فعندما تتلقى الأسماع كلمات الله فإنها تحاول أن تتفهم معانيه، وعندها يكون للوجد النصيب من تلقي تلك المعاني؛ إذ يصبح للخطاب منطقاً وجدانيًّا يحرك النفس، لتتوجه الجوارح بالقبول لتدفق المعاني، وهذا التحرك الوجدانيّ هو الدافع لعملية التغيير الفرديّ ومحرّكها.

إن الوجدان ناتج عن التفكير، ومثير لمشاعر الشوق، التي تقود الإنسان نحو التقدم والرقيّ، "فالعبد إذا كان في الترقي حصل بسبب تعاقب الوجدان، والحرمان، والوصول، والصد آلاماً مخلوطة بلذات، واللذات إذا كانت محفوفة

---

(١) سالمي، **معجم مصطلحات علم النفس**، مرجع سابق، ص١٢.

(٢) الجرجاني، **التعريفات**، مرجع السابق، ٢٢٩.

(٣) ابن منظور، **لسان العرب، مرجع سابق**، مادة (وجد).

(٤) الجرجاني، **التعريفات**، المرجع السابق، ص٢٤٥.

(5) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٦) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، مرجع سابق، الباب الأول في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع وكشف الحق فيه بيان أقاويل العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه، ج٣، ص٣٣٦.

(٧) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٥٩.

بالحرمان والفقدان، كانت أقوى، فيشبه أن يكون هذا النوع من اللذات مما لا يحصل إلا للبشر،"[1] فيختص القرآن بخطاب منطقيّ يقيم التوازن النفسيّ، فلا يغلب العقل على الإحساس، ولا الإحساس على العقل.

إن اختصاص القرآن الكريم في خطابه بكل استعدادات النفس هو أقوى درجات التأثير في النفس، ليُحدث نهضة عملية في النفس الإنسانية يغيّر من خلالها ما حوته هذه النفس، وهذا التغيير ينعكس على سلوك الفرد بحسن التعامل ورقيّ الأخلاق، "فعمد القرآن دائماً إلى لمس البداهة، وإيقاظ الحس، لينفذ منهما مباشرة إلى البصيرة، ويتخطاها إلى الوجدان، وكانت مادته هي المشاهد المحسوسة، والحوادث المنظورة، أو المشاهد المشخّصة، والمصائر المصوّرة، كما كانت مادته هي الحقائق البديهية الخالدة، التي تتفتح لها البصيرة المستنيرة، وتدركها الفطرة المستقيمة."[2]

إن المنطق يقتضي البحث، والفطرة تقتضي شعور الإنسان بالنقص الذاتي، ووجود ذات كاملة غَرست في النفس ذاك الشعور، فعندما يجد الإنسان ضالته فيما يكمّل نقصه فقد نتج عن ذلك الوجدان ثمار الإيمان اليقينيّ بوجود الله وحده، منزل القرآن كلامه، المنظم لحياة الإنسان في منهجه، متخذاً من الوسطية منهجاً في التعامل مع النفس الإنسانية وخطابها.

٣- جمال المنهج القرآني في التغيير

إن هناك علاقة بين اختصاص منهج القرآن الكريم بالجمال والتغيير الفرديّ، فللجمال دور في الاستدلال على وجود الله تعالى من خلال الشعور بجمال الخلق وكمال الصنعة، وهذه العلاقة تكمن في تلك الصبغة الجماليّة التي تصطبغ بها عملية التغيير الفرديّ المتحققة من خلال التعامل مع القرآن الكريم.

---

(١) الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج ٤، ص١٧٧-١٨٨.

(٢) قطب، سيد. **التصوير الفني في القرآن**، بيروت: دار الشروق، ط٤، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص١٨٤-١٨٥.

فمعنى الجمال الحُسْنُ،[1] والحُسْنُ "كون الشيء ملائماً للطبع... وكون الشيء صفة كمال... وكون الشيء متعلق المدح..."[2] وبما أن الجمال كون الشيء صفة كمال، فإن كمال الانسجام بين منهج الله وطبيعة الإنسان هي من أسمى مظاهر الجمال؛ لأنه المنهج الموافق للفطرة والطبع، والمكمّل لزينة خلق الإنسان، بجمع منسجم بين جانبي الإنسان الماديّ والمعنويّ، بلفظ أقرب للنفس في وقعه، وأكثر إثارة للذة في تذوقه.

فالجانب الأول لجمال المنهج القرآني في التغيير الفرديّ أنه لفت الإنسان لما حوله، ليتأمّل نظام الكون، ودقة الصنعة للخلق، فحثه إلى النظر المتأمّل؛ لأنه منبع الاستمتاع بوقع الطبيعة حوله في إبداعها، والتوصّل من تأمّل جمال الصنعة إلى جمال الصانع، وبها يكون ربطٌ للشعور بالمعرفة، وتغيير النفس من خلال استشعار جمال الصنعة الإلهية في الخلق، فالله "جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ،"[3] فلا بد من "ذكر القلب بالتفكر في الملكوت ومطالعة صفات الجمال"[4] وعلى هذا يقوم إيمان الإنسان بخالقه على أسس التفكير في الجمال الذي يثيره الإبداع في الخلق واستشعاره[5].

أما الجانب الثاني: فهو في تلك اللذّة المنبعثة من خطاب الصانع الجميل، وأسلوب كلامه المؤثّر في النفس بكل تفصيله، فيأتي مرّة بإثارة شعور الجمال

---

(١) انظر: ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج١، ص٢٦٤.

(٢) الجرجاني، **التعريفات**، مرجع السابق، ص٩١.

(٣) وصيغة الحديث: "إن الله جميل يحب الجمال". انظر:

- النيسابوري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه، حديث برقم١٧٨، ص٦٦.

(٤) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، مرجع سابق، م٥، ص١٦٧.

(٥) ولقد استفاض محمد قطب في كتابه **منهج الفن الإسلامي** في قضية الجمال القرآنيّ في إشاراته للكون، انظر:

- قطب، **منهج الفن الإسلامي**، مرجع سابق، ص١٢٥-١٣٤.

بانتقاء الألفاظ الباعثة له، فتكون استعمالاً للخيال الذي استعدّت به النفس، فمثلاً عند وصف جمال العلاقة بين الخالق والمخلوق باختيار ألفاظ التقريب والتحبيب، ليستميل النفس كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، يستجلب بهذا الوصف النفس دون إجبار أو إكراه، وهذا الاستجلاب تغييرٌ مقيم لعلاقة المحبّة بين الله وعباده، فاختار لفظ ﴿عِبَادِى﴾ في وصفهم. كما أنه لم يجعل جواب سؤالهم: (فقل إني قريب) مثلما كانت سياسته فيما جاء جواباً لأسئلة أخرى، فجاء الإضمار،[١] لِيُلَوِّنَ الخطاب مع توجيهه، ليستشعر الإنسان قيمة وجوده، كاسراً سطوة القسوة القلبية، مخاطباً فطرة النفوس التي جُبلت على الإحسان، مستدعياً ما أودعه في ذاكرته من فيض إحسانه على خلقه لمّا شَمَلَهُمْ بكل خير.

والتغيير الحاصل من استشعار الإحسان أثبت في النفس، "فالخير إشارة إلى كشف الجمال،"[٢] والاستزادة في الخير تقرّب إلى الله، وهذا التقرّب هو تغيير في النفس يُحدث تقدّماً وارتقاء، يقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه جل وعلا: "... وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ،"[٣] فمن من الآلهة التي اتبعها التابعون كانت بهذه الرحمة، وهذا الكرم والجود؟ إذ هذه ميّزة جماليّة أولى لمنهج الله

(١) البغوي، **تفسير معالم التنزيل**، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٥.

(٢) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، مرجع سابق، م٤، ج٦، ص١٨٨.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الرقاق باب التواضع، حديث رقم ١٣٦٦، م٤، ج٨، ص٤٨٢، ٤٨٣.

تعالى على المناهج التي اتُّبِعت من دون الله نظرت إلى المتَّبِع بهذه النظرة التي تبيّن كرامة هذا الإنسان عند هذا الإله؟ هذه ميّزة جمالية أخرى، فتنشأ العلاقة بين المستشعر بالجمال والمتصف بالجمال، وهذه العلاقة قائمة على الحب بين الطرفين، وهذا الشعور هو الأساس في جعل رباط العبودية بين العبد وربه رباطاً وثيقاً لا يقدر قادر على بتره، وهو الداعي إلى السعي الحثيث، المحاط بالصبر الجميل على كل ما يعيق التوجه نحو الاستزادة من التطبيق لتفاصيل منهج الله تعالى، بتدقيق النظرة في التفاصيل، فأي منهج على وجه الأرض قام على هذا الأساس، واختصّ بهذه الخاصيّة؟

إن قيام العبودية على أساس المحبة المتبادلة بين العابد والمعبود هي من أدلّ الدلائل على اختصاص المنهج القرآنيّ بخاصيّة الجمال؛ إذ إن الإنسان بالتزامه يصل إلى درجات عليا من الإحسان العملي المتمثل بالإتقان للعمل، ويتصف الإنسان بالإحسان في الخُلُقِ، ومثالها الصبر الجميل الذي تمسك به يعقوب عليه السلام، فأخبر الله تعالى في كتابه عن قول يعقوب، فقال تعالى: ﴿... قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وأمر نبيّه عليه الصلاة والسلام به فقال: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، وجاء أمره كذلك بالصفح الجميل: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، فيتنافس العابدون في تحصيل القرب من الله، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، ويتلاقى الخطاب الجماليّ في القرآن مع القيمة الجمالية للالتزام بمنهج الله تعالى بقوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨] فيكون الجانب الثالث من المنظومة الجمالية جمال الميزان القرآنيّ في إعطاء القيمة الجمالية الخُلُقِيَّة في العلاقات الحياتية كافة، وهي الوصول إلى درجات عليا من التغيير الارتقائي.

كما أن المنهج الذي يمتاز باليسر في التقدم بالبشرية، "منهج سامق فعلاً، ولكنه في الوقت ذاته منهج فطري، يعتمد على رصيد الفطرة، وينفق من هذا الرصيد المذخور، وميزته أنه يعرف طريقه من اللحظة الأولى إلى هذا الرصيد...

يعرف مداخلها فيسلك إليها الاستقامة، ويعرف قواها ومقدراتها فلا يتجاوزها أبداً، ويعرف حاجاتها وأشواقها فيلبيها تماماً، ويعرف طاقاتها الأصلية البانية فيطلقها للعمل والبناء،"[١] فهو منهج تغيير نحو الأخلاق التي تعدّ أساس الرقيّ وقيام الحضارة، "وحين يستقيم الأمر على هذا النحو يصبح منهج الإسلام منهجاً ميسّراً شديد التيسير، بل تصبح الصعوبة الحقيقية هي مخالفة الأفراد لهذا المنهج، ومحاولتهم لاندفاع مع الشهوات الهابطة، ومقارفة الشر والرذيلة؛ لأن كل القوى المهيمنة على المجتمع حينئذ مضافاً إليها قوى الفطرة السليمة المستقيمة تقف في وجوههم، وتجعل طريقهم المنحرف شاقّاً عسيراً،"[٢] فأي حياة في الحقيقة أيسر وأجمل، أحياة الرذيلة والمعصية والمنكر؟ أم حياة الاستقامة والطهارة والطاعة والأخلاق؟

ومن جمال المنهج القرآني في التغيير أنه ينظم حياة الإنسان تنظيماً يصل به إلى أن يتناسق مع الكون، فالأصل نظم في اللغة يحمل معنى "الاتساق... ليس لأمرهم نظام أي ليس له هدى متعلق، ولا استقامة، وما زال على نظام واحد أي عادة، وتناظمت الصخور تلاصقة،"[٣] فمنهج القرآن يغير الفرد لينتظم في علاقة مع ربه، ومع نفسه، ومع الناس، ومع الكون، ليكون سائراً بنسق مع كل ما حوله، يقول سيد قطب في حديثه عن التنظيمات الاجتماعية في سورة النور، وكيف تحدثت في قضايا تشريعية جمالية ترتقي بالإنسان فرداً وجماعة: "إن الإسلام منهاج حياة كامل فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها، وفي كل علاقاتها وارتباطاتها، وفي كل حركاتها وسكناتها. ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة وينسق بينها جميعاً، ويتجه بها إلى الله في النهاية.

---

(١) قطب، **هذا الدين**، مرجع سابق، ص٣٠-٣١.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤.

(٣) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، الأصل نظم.

وهذه السورة نموذج من ذلك التنسيق. لقد تضمنت بعض الحدود إلى جانب الاستئذان على البيوت. وإلى جانبها جولة ضخمة في مجالي الوجود. ثم عاد السياق يتحدث عن حسن أدب المسلمين في التحاكم إلى اللّه ورسوله وسوء أدب المنافقين. إلى جانب وعد الله الحق للمؤمنين بالاستخلاف والأمن والتمكين."[1]

٤- خاصية كمال المنهج القرآنيّ[2]

الكمال "تمام الشيء،"[3] فإن أُطلق كمال المنهج من جهة واضعه فإنه تام بكل شيء جاء فيه، ولكل شيء جاء لأجله، وهذا جانب من جوانب الاعتقاد الذي ينبني عليه التصوّر السليم عن الله بذاته، وصفاته، وأفعاله، فهو المتصف بالكمال كله وحده، وبتمام أفعاله جعل هذا المنهج على أكمل وجه، فأتم النعم، وأكمل الدين على أتمّ بيان، وأحسن نهجه، وعليه فإن الظن بالله غير الحق ظن الجاهلية في ذاته وصفاته وأفعاله يكون خروجاً عن المنهج، وخروجاً من الملّة، حتى وإن كان العمل وفق مقتضيات منهج الله تعالى.

فمنهج القرآن الكريم كامل بمصدره، وهو كامل في الانسجام العملي المتوازن والمنظَّم بين أهدافه وأسسه وأساليبه وخصائصه، وهو كامل الشمول للناس وللزمان؛ إذ إنه المنهج الوحيد على وجه الأرض جاء للناس كافة لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]، وكامل الشمول لكل ما كان قبله، ومستقبلاً، فالكمال بالنسبة لمنهج القرآن الكريم مردّه إلى صفة الكمال الإلهيّ، وهي صفة ثابتة للذات الإلهية.

إن النظر لخاصية الكمال بالنسبة لمستقبِل المنهج (الإنسان) يجد أن لها جانبين.

---

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٤، ص ٢٥٣١.

(٢) انظر الفصل الثاني، المبحث الأول، قضية الضبط المنهجي لإرادة الإنسان.

(٣) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٢٤.

الجانب الأول من جهة كمال خلقته، وهي تندرج تحت بند نعم الله عليه بأنه خلقه في أحسن تقويم، وهي راجعة لكمال الخالق الذي يكون كمال خلقه دليلاً على كماله.

أما الجانب الثاني من جهة تطبيق الإنسان لمنهج القرآن الكريم، فإن ما امتازت به خاصيّة الكمال أنها متفاوتة ومتحركة؛ لأن التطبيق الإنسانيّ لتفاصيل المنهج مختلفة، فالتغيير يعني إقامة العلاقة الوثيقة والقريبة بين إرادة الله، وإرادة الإنسان، بوجود جامع بينهما هو المنهج، لتحقيق الانضباط والنظام في مسيرة الحركة الإنسانية، أما الحركة الكونية فهي منضبطة بسننها دون خلل في سيرها؛ لأن ما يسيّرها هو إرادة الله وحده، ولا وجود لإرادة أخرى تحكمها، لذا فإن التسمية المناسبة للكمال بالنسبة للمخلوق هي الكمال التطبيقيّ، الذي يعني مدى التوافق بين الإرادتين، ومدى إرادة الإنسان بأن يطبّق منهج الله الذي يريده للناس، فكلما كمّل الإنسان نقصه بزيادة التطبيق لتفاصيل منهج الله تعالى، ازدادت درجته في مرتبة الكمال التطبيقي.

فالكمال في تطبيق المنهج ذاته منضبط وفق سنة الله تعالى في التغيير، وأن يكون نصيب الإنسان ما أتى من الكمال، وإنك لتجد الأنبياء أصحاب كمالات إنسانية؛ لأن نفي المعاصي عن أفعالهم، ومقدار تقرّبهم جعلهم الأقرب إلى الله تعالى في المنزلة، وهم الأسوة الحسنة في توجيه عملية التغيير نحو الكمال الإنسانيّ في كل الجوانب، لترتقي الحياة الفردية والجماعية، بل والإنسانية كلها نحو ما يرفعها بين الأمم، وما يجعلها تعلو في كل مراتب الدنيا والآخرة، فالتغيير عملية ذات كمال، لتحقيق التقدم في تفاصيل الإنسانية على مستوياتها كافة.

ثانيا: آثار التغيير الفردي بمنهج القرآن الكريم

١- آثار التغيير على المستوى الفردي

إن آثار التغيير الذي يكون بمنهج القرآن لا تُعد ولا تحصى، وتتعدى الفرد لتصل إلى الارتقاء بالمجتمع والحضارة، فمن أبرز الآثار التي حققها منهج القرآن في التغيير على مستوى الفرد:

أ- الفرد المتوازن:

وهذا التوازن يشمل الفرد في نفسه، فيكون متوازناً في تفكيره، فلا يتأثّر بالباطل مهما جاء بصور الإقناع العقلي، ويكون الفرد متوازناً في سلوكه وتعامله في علاقته مع نفسه، فيعلم أن لها حقًّا، ولكن لا يطغى حقها على واجباته تجاه ربّه والناس.

ويكون الفرد متوازناً في اختيار الخيارات الأنسب في حالة تعرّضه لمشكلات في حياته؛ إذ إنه يكون متوازناً " بين الاندفاع والتروي، والحماسة والتدبر، والحمية والطاعة..."(١)

كما أن اتصاف المؤمن بالتوكل هو أحد مظاهر هذا التوازن، يقول سيّد قطب في وصف هذا الأثر بأنه: "التوازن العجيب الذي لا يعرفه القلب البشري إلا في الإسلام."(٢)

كما أن هذا التوازن يشمل التوازن الاقتصادي في حياة الفرد، فلا يسرف ولا يقتر كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، ولا يغلل يده عن الإنفاق ولا يبسطها، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

---

(١) قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، م١، ج١، ص١٨٩.

(٢) المرجع السابق، م١، ج٢، ص١٢١.

ب- اتصاف شخصية الفرد بالقيادة:

وتكون القيادة السليمة إما لنفسه التي هي بين جنبيه، فيقودها إلى كل ما ينجّيها ويرتقي بها، أو قيادته لغيره ممن هو مسؤول عنهم حسن قيادة، من أسرة أو عشيرة،... إلخ؛ إذ إن الفرد المتغيّر بمنهج القرآن الكريم تتصف شخصيّته -غالباً- بالقيادة؛ لأنه يُحسن قيادة نفسه وتغييرها المستمر نحو الارتقاء بالقرآن الكريم، ويحسن قيادة ما كان مسؤولاً عنه من أسرة أو أفراد آخرين في توجيههم وقيادتهم نحو ما يحقق لهم الارتقاء والرفعة والخير.

والشخصية القيادية هي الشخصيّة القادرة على القيام بالمسؤوليات بطريق منظمة، وقادرة على إصدار أفضل القرارات المناسبة للأحداث التي يواجهها الفرد والجماعة، ويدل على ذلك ما كان من النبيّ ﷺ من اختيار قيادات الجيوش للصحابة رضي الله عنهم مثلاً.

والقصّة القرآنية لها دور بارز في الإشارة للشخصيّة القيادية في القرآن الكريم، فجاءت بنماذج قيادية، ومن أمثلتها قصّة طالوت وقيادته لجنوده في سورة البقرة، وقصة الخضر وقيادته التعليميّة لموسى عليه السلام في سورة الكهف، وسليمان عليه السلام وقيادته لما وهبه الله إياه من ملك. وعلى ذلك فإن القرآن الكريم يغيّر الشخصيّة في الإنسان إلى حدّ إعطائه قدرة القيادة السليمة لنفسه ولغيره، فيكون ذا شخصية مستقّلة غير منقادة إلا لله تعالى وحده، ويكون إنساناً قائماً بمسؤولياته على أكمل وجه.

٢- آثار التغيير على المستوى الاجتماعي

إن مدى ارتباط التغيير الفردي بالتغيير الاجتماعي يجعل الأثر الناتج على الفرد ينعكس في مجتمعه، لذا فإن الآثار الناتجة نجاح التغيير الفردي كما يأتي:

أ- العدالة الاجتماعية:

إن العدالة الاجتماعية المتحققة كأثر من آثار التغيير الفردي هي من أهم الأهداف القرآنية قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ...﴾ [الحديد: ٢٥]، يقول الآلوسي في معنى إنزال القرآن لعلة قيام الناس بالقسط؛ "أي بالعدل، يشتمل التسوية في أمور التعامل باستعمال الميزان، وفي أمور المعاد باحتذاء الكتاب."[١]

ومن أسس العدالة الاجتماعية المساواة الإنسانية، والتكافل الاجتماعيّ،[٢] فالمساواة نتاج الكرامة الإنسانية التي حققها القرآن الكريم في منهجه الذي غيّر الناس حتى ارتقى بهم في سلم الرفعة الدينية والرضا، يوم جعل ميزان التفاضل بين الناس هو التقوى لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]، فلا فضل في هذه الحالة لعربيّ على عجميّ إلا بها، وقيمة استشعار الكرامة "هو إشعار كل فرد بأن له حرمة لا يجوز أن ينتهكها عليه الآخرون، ولا تقِلّ حرمة أحد عن حرمة أحد، فهم فيها سواء، وهم جميعاً مؤمنون."[٣]

لقد حقق المنهج القرآنيّ التكافل الاجتماعيّ بوصفه أثراً من آثار التغيير الفرديّ في المجتمع المسلم، فما جاء به من نظام يحكم كل فرد نفسه به، وهذا النظام بصوره المتعددة، كفيل لأن يجعل علاقة الإنسان بغيره منظمة بما ورد في كتاب الله تعالى، فمثلاً نظام التكافل الاجتماعيّ في الإسلام يضمن تحقيق العدل بين أفراد الأسرة في التعامل والنفقة والميراث، وفي القرآن أحكام تنظم الحقوق الواجبات بين الزوجين ليقوم ما بينهما بالقسط، وتوزّع الحقوق والواجبات بينهما.

---

(١) الآلوسي، **روح المعاني**، مرجع سابق، م٩، ج١٤، ص١٨٨.

(٢) قطب، سيد. **العدالة الاجتماعية في الإسلام**، القاهرة: مطبعة دار الكتاب العربي، ١٩٥٢م، ص٢١-٣٥.

(٣) المرجع السابق، ص٥٩.

كما أن التغيير الفردي كان له الدور في تحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، فلما تغيرت أحكام البيع، جاء القرآن بالحكم فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ... ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وأباح الدَّيْن، وضبط كيفية التعامل فيه بكتابة الدّيْن وشهادة الشهود، ليحفظ حق كل فرد، فيتكافل كل فرد من أفراد المجتمع في عون الآخرين عند حاجتهم، وتواصل الجميع في التعامل بوصفهم جسداً واحداً، لينتقل التكامل العمليّ لعملية التغيير من أعضاء النفس الواحدة إلى أفراد المجتمع الواحد كجسد واحد، وكل فرد فيه بوصفه عضواً من أعضاء هذا الجسد.

ولقد جاءت النصوص تبيّن طبيعة مجتمع المتبعين للقرآن الكريم منهجاً، فقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ [الفتح: ٢٩]، وجاء في الحديث الشريف عن النبيّ ﷺ قال: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى،"[1] وبهذا يكون التغيير الحاصل من التزام منهج القرآن الكريم سبيلاً للتكافل الاجتماعيّ، وتحقيقاً للعدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع الإسلاميّ.

ب- قيام المجتمع الأخلاقي:

إن انتشار الأخلاق القرآنية بين أفراد المجتمع الواحد تصبح مقياساً لقيمة الشخص لهي من أهم الآثار التي تنتج عن التغيير الفردي الذي انتهجه القرآن الكريم.

(١) النيسابوري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب البر والصلة والآداب، باب بَاب تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ، حديث رقم ٢٥٨٥، ص١٢٤٧.

فالأخلاق الاجتماعية على قسمين:

- القسم الأول منها ما كان أمراً ربانيًّا واجب التنفيذ أو الترك:

فالأخلاق واجبة التنفيذ كالنفقة على الأسرة، والإحسان للوالدين، والأمانة في التعاملات بين الناس، وحفظ الحقوق، أما ما كان واجب الترك فهي الأخلاق التي يترتب على فعلها إثم أو حد؛ لأنها تتعدى حق الفرد إلى انتهاك حق غيره من اعتداء وبغي بغير حق، مثل الزنا، شهادة الزور، حد القذف، والسرقة، أو ما كان غير موجب لحد من هدر الحقوق، وأكل مال الناس بالباطل، والكذب، والسخرية،... إلخ، وانتشارها في المجتمع يكون مفسدة له بشكل كلي، وانتشار للفحشاء والظلم فيه، وسبيل لتغيير سلبيّ، ليكون مجتمع آفات اجتماعية.

لذا كان دور القرآن الكريم لتحقيق التغيير الفردي تحريم ما يناقض هذا القسم من أقسام الأخلاق، لضمان قيام مجتمع يخلو من البغضاء والسوء والفحشاء والمنكر والاعتداء، فمثلا جاءت الآيات الآمرة باجتناب الزور، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ [الحج: ٣٠]، وجاء من الآيات ما يأمر بالصدق فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، وغيرها من الأمثلة الكثير التي تجعل الجانب الأخلاقيّ الواجب منظومة متكاملة تجعل من المجتمع مجتمعاً أخلاقيًّا منضبطاً بالقرآن الكريم، نظيفاً من آفات الفحشاء والمنكر والبغي.

- أما القسم الثاني من الأخلاق فهو ما كان مستحبًّا:

فيأخذ المتمسك فيه من الأجر دون أن يؤدي تركه للعمل بهذا الخلق إلى العقاب، فمثلاً العفو والمغفرة من أجمل الأخلاق التي تجعل المجتمع الإسلاميّ مجتمعاً متماسكاً ومتواصلاً، لا تشوبه الانقسامات، ولا يحيا بالبغضاء، بل ويقطع وساوس الشيطان من أن تتخلل قلوب الناس وتعمل على تفريقها،

ليكون المجتمع وكأنه على قلب وجل واحد، فمثلاً موقف أبي بكر بعد حادثة الإفك، يوم كاد يقطع نفقته عن مِسْطَح بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِه مِنْهُ وَفَقْرِه، عندما علم أنه كان يقول في ابنته ما قال، فنزل قول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]، فقال أبو بكر: "بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا."[(١)]

إن الآثار المترتبة على التمسك بهذا القسم من الأخلاق سبيل لرقي المجتمع المتمسك بالقرآن الكريم؛ إذ إن تغيير النفوس الضيّقة بالنفوس التي تأخذ من سعة الصدر مبدأ لها، تعدّ سبيلاً للتجاوز عن الأخطاء والزلات، وتتصف بالإيثار الذي يغني المجتمع بكمال الأخلاق، فيتقي الإنسان شحَّ نفسه مثلما يتقي السوء، وسعة الصدر تمثل المكان الأنسب لقيام أخلاق عليا يحققها منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي لقيام مجتمع أخلاقيّ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]. وعلى هذا يكون من أهم الآثار المترتبة على تحقيق منهج القرآن الكريم في نفس الفرد، ونفوس الجماعة قيام مجتمع أخلاقيّ متصف بجميل القول والعمل، فرداً وجماعة وأمة، فيكون الفرد متوازناً، والمجتمع متوازناً، والأمة الوسط التي وصفها القرآن الكريم بخير أمة، وهو التغيير الذي يبدأ من الإنسان بوصفه نواة، وينتهي بالأمة الإسلامية.

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ ﴾ [النور: ١٢]، حديث رقم ١١٧٥، مجلد٣، ج٦، ص٤٦٦.

موانع التغيير الفردي في القرآن الكريم

إن الخير سابق للشر، وضلال الإنسان أمر عارض، وحالة خارجة عن الأصل الذي قامت عليه الحياة، وعدم استجابته لا تكون إلا بوجود حائل يحول بينه وبين الرجوع إلى أصله الخيّر، وعليه فإن الضلال والإصرار عليه استمرار لوجود الحائل بين الإنسان والاستجابة، فيكون الابتلاء لهذه الفئة بالشرّ والخير، لإثبات الحجة على الإنسان بأنه اختار ما لا يناسب أصله، واستدراجاً له؛ لأنه بضلاله اختار الشر الذي ليس من أصله وترك الخير الذي جبل فيه، فتنقّل في دركات الضلال حتى يعتاد على الفعل السيء، فيُقبض على ما تم الاعتياد عليه.[1]

جاء في آيات القرآن ما يؤصّل موانع التغيير ببيان إجماليّ وتفصيليّ لأسبابها؛ ولتعريف جنس البشرية بالعدو الحقيقي الذي يتوعّدها بسلخها عن أصلها الخيّر الذي جُبِلَ عليه آدم، وكي لا يكون للناس على الله حجة عرّفهم السبب الرئيس المؤدي إلى إضلالهم وسوء حسابهم، فبيّن أن هدف الشيطان هو أن يشاركه آدم وذريّته فيما استحقه من لعنة، فقال تعالى مبيّناً هدف إبليس وتوعّده لآدم وذريّته: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقد بيّنت هذه الآية أمراً هامّاً، وهو في قوله: ﴿كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾، دليل على أن السبب الرئيس المؤدي إلى المعصية تكريم الله تعالى لجنس البشرية، لذا فإن أول ما يسعى إليه في منهج إضلاله هو طمس التكريم الإنساني بإبعاده عن مصدره، والتكريم هو من أهم الأسس القرآنية لإحداث التغيير الذي جاء القرآن الكريم، كي يؤصّلها في النفوس، ويبني قواعده الارتقائية عليها،

---

(١) ولا يعني ذلك أن من كان في دائرة الاستجابة لمنهج الله لا يكون الابتلاء بالشر والخير قياماً للحجة عليه، بل هناك للمؤمن قضية أخرى لا بد من حسابها، وهي الابتلاء بوصفها عاملاً من عوامل تكفير السيئات والخطايا عنه.

ويزيل كل عائق أمام وجودها، ويبني عزّ المسلم بها، وبها ميزان التفاضل؛ إذ إن الإنسان مكرَّمٌ ما دام في إطار منهج الله، مهان ما دام مكرِّماً للشيطان باتباع سبيله، فاستثنت الآية ﴿قَلِيلًا﴾، وهذا دليل على أن قليلاً من عباد الله من يفهم هذه القاعدة، ويؤطّر حياته عليها، ويعمل بها، إذن فمن اتخذ الشيطان له قريناً فقد قدم مهانته على كرامته، ورضي بذلّه على عزّته، فبئس ما اتخذ بدلاً، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

إن الابتلاء "من الامتحان، وهو الاختبار... ويكونُ البَلاءُ في الخير والشرّ. والله تعالى يُبْلِي العَبْدَ بلاءً حسناً وبلاءً سيئاً، وهو يرجع إلى هذا؛ لأن بذلكَ يُختبَر في صَبْرِه وشُكْرِه،"[1] وتوجّه إرادته وسلامة اختياره، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، يقول الزمخشري: "أي نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر، وإنما سمى ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم؛ لأنه في صورة الاختبار. وفِتْنَةً مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه."[2]

إن الابتلاء لكل الخلق إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم اختبار لمدى الالتزام بمنهج الله تعالى، والثبات على هذا المنهج، ويكون مقروناً بمدى المعرفة لمنهج القرآن، والمقارنة بينه وبين أي منهج آخر، واليقين الناتج عن تلك المعرفة المضبوطة بميزان حكم يختار فيه المؤمن أو الكافر أي السبيلين يسلك بكامل إرادته، وإزالة أثر أي مانع يمنع الإنسان من التقدم في التزام منهج الله تعالى، وكل ما سبق هو علاقة الابتلاء بالتغيير الفردي، وعليه يكون

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج١، ص١٥٢.

(٢) الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد. **الكشاف**، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ، ج٣، ص١١٦.

الابتلاء والاختبار جارياً حتى يقوم الناس لرب العالمين في يوم فصلٍ، يعرف فيه كلّ امرئ ما كسب من خير أو شر، فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦].

والابتلاء متفاوت بين الناس بحسب موقعهم من منهج الله تعالى، فلو سأل سائل: لماذا يستجيب الإنسان للشيطان مع أن القرآن مختصٌّ بأسس منيعة لا يختلف على سلامتها اثنان؟ وله من أساليب التأثير ما لا يقدر الإنسان غضَّ الطرف عنها؟ وله من خصائص التغيير ليس كمثلها خصائص في الوجود؟ إن المانع من التغيير الفردي بمنهج القرآن يكون لعدة عوامل، وهي كالآتي:

أولاً: المانع النفسي الذاتي

إن الفساد العملي لاستعدادات النفس كفيل بإيجاد إنسان مضطرب، وغير متوازن، وغير متوافق مع نفسه ومع من حوله، فالتوافق من مقومات الصحة النفسية؛ إذ إنه يضمن القدرة على الانسجام الوظيفي لجوانب النفس المادية والمعنوية، والمنتجة للقدرة على الانسجام الحياتي مع عناصر الحياة الأخرى والتكيّف معها، والتغلب على عقبات البيئة المحيطة، مع اقتران هذا الأمر بشعور من الارتياح والسعادة النفسية، والرضا المؤدي بالإنسان للتقدم الحياتيّ، والتكامل في الشخصية، وإصدار القرارات السلوكية المنتظمة والدقيقة، التي تحقق أفضل النتائج؛ إذ إن نتاج التوافق تحقيق التوازن، والتوازن يعني القابلية الطبيعية لتهيئة قدرات الإنسان وخبراته لتحقيق أكبر قدر ممكن من التكيف، والتقدم، والارتقاء الحياتي.

إن اضطراب الاستعدادات التي منحها الله للإنسان كي يكون قادراً على التغيّر له أثره المانع لتحقيق التغيير في النفس، ولهذا الاضطراب عوامل هي:

١- الفساد العملي للحواس

والمقصود منها هو صرف الاستعدادات الحسيّة (السمع والبصر) عن الانتباه للبيان القرآنيّ، وتوجيه الجهد العقلي إلى كيفية صرف الحواس عن التقاط المعلومات الموجهة. وتوجيه الحواس إلى ما يغترّ به من ماديات، أو بمعنى آخر بناء الاعتقاد على ما يُلمس بالحواس من مظاهر الحياة الدنيا، وأما أسباب هذا الفساد فتتلخص في:

- غلق مداخل الاستجابة بداية، وعدم السماح للخطاب القرآني بمخالطة النفس، وبيّن الله تعالى ذلك في الآية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقد وأخبر الله تعالى عن أن هذا مسلك الأمم الغابرة التي هلكت بأنهم جعلوا أصابعهم في آذانهم كي لا يخالط الحق أسماعهم، وجاء هذا الإخبار عن أحوال قوم نوح وشكوى هذا النبيّ الكريم لله حال قومه فقال: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧﴾ [نوح: ٧].

- الحكم السريع المسبق، كما بينته الآية الكريمة في حكم الكافرين برفض الإيمان ابتداءً، ومنها ما بيّنته الآية الكريمة لمسلك الكفار: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ...﴾ [سبأ: ٣١]، فهو قرار مسبق بعدم الاقتناع بالخطاب القرآنيّ مهما كان مقنِعاً، فهدف الكفار تحقيق الغلبة لهم، والانتصار لدينهم، فأصدروا حكماً مسبقاً على أنفسهم وأتباعهم أن لا يسمحوا بالتأثّر، كي يكون مانعاً من إيجاد الاقتناع العقلي، وكي يكون داعياً لوجود الصد النفسيّ؛ لأنهم خافوا على أنفسهم أن يتأثّروا فيعودوا عن دينهم الضال إلى الحق البيّن في القرآن، وهذا يدل على معرفتهم بضلالهم، وعلى معرفتهم أيضاً بأن القرآن كتابُ حقّ لا مفرّ لسامعه من أن يتغيّر به.

ولتجنب هذا الأمر كان من حكمة مصعب بن عمير عندما بعثه النبيّ ﷺ سفيراً إلى المدينة المنوّرة ليعلِّم أهلها الإسلام أن يتعامل بسياسة "أوَتقعد فتسمع فإن رضيت أمرنا قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره،"[1] والنتيجة للسماع أمر هامّ لا بد من أن يُنظر فيه، وهو وصفٌ للتوافق النفسي الذاتي لحال المستمع للقرآن، فمن يرتقّب هذا المستمع كان يقول: "فعرفنا الإسلام في وجهه قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهّله،"[2] وهذا دليل على التكامل بين مادية الإنسان وروحه، وهذا التكامل منتج للانسجام النفسي مع آيات الله تعالى عندما تتوجه الأسماع إليها، فإن "الوجه يظهر فيه الترح والفرح اللذان محلهما القلب،"[3] فهو مرآة يظهر بها ما يعتقده الإنسان، وما يبطنه، كما أنّ "نور الخشوع يشرق من الباطن على الظاهر"[4] للارتباط الوثيق بين الجانبين المادي الذي يمثله ظواهر السمات، والمعنوي الذي يتمثل بالحال الباطنة، وما بينهما من توافق وانسجام.

وإذا قيل: لماذا كان الصد من غيره ممن سمعوا القرآن وكذبوا به؟ فالجواب: لأن هناك قضايا داخلية أخرى تحكم النفس وهو الهوى، وتتسبب في تعطيل للعقل عن التفكّر في آيات الله تعالى، وأموراً خارجيّة أخرى تتحكم في النفس من منصب أو جاه... أما كل من كان أمره كسعد بن معاذ رضي الله عنه فإن نفسه حرّة لا تحكمها الأهواء ولا الشهوات، وحرية النفس وقيادتها وكبح جماحها أمر هامّ في سرعة الاستجابة أو بطئها.

---

(١) ومثال عليها قصة إسلام سعد بن معاذ رضي الله عنه وأرضاه، انظر:

- المعافري، أبو محمد عبد الملك ابن هشام. **السيرة النبويّة المعروفة (بسيرة ابن هشام)**، تحقيق: عادل أحمد، علي معوّض، الرياض: مكتبة العبيكان، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج٢، ص٤٣-٤٤.

(٢) المرجع السابق، الصفحات نفسها.

(٣) أبو حيان، **تفسير البحر المحيط**، مرجع سابق، ج٦، ص٣٥٨.

(٤) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، مرجع سابق، ج١، ص١٩٥.

وقد تبيّن من قبْل أن هناك علاقة بين القرآن الكريم والإنسان،[1] فجاء في الآيات القرآنية ما يثبت هذه الصلة من جهة، ومن جهة أخرى كانت الآيات ذاتها تشبيهاً بليغاً تُبيّن حال المُبتعد عن القرآن، وهذا البُعد يشبّه بالسلخ، ويظهر هذا جليًّا في التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، والسلخ دليل على النزع الكليّ للجلد بإخراج الجسد عنه[2]، والجلد جزء من الجسد، ولنزعه من الصعوبة والألم للحيّ ما لا يخفى، "فحقيقة السلخ كشط الجلد وإزالته بالكلية عن المسلوخ عنه، ويقال لكل شيء فارق شيئاً على أتم وجه انسلخ منه،"[3] وعند التصوير بأن الإنسان ينسلخ عن آيات ربه، يعني أنها تمثل جزءاً منه يخرج عنها لأي سبب من الأسباب.

أما الكافرون فإن استفحال الخلل في استعداداتهم يُنتج على وجوههم نظرات المنكر عند سماع آيات القرآن الكريم، لمخالفة ما سمعوه لَمّا قيّد نفوسهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢]، "لفرط نكيرهم للحق وغيظهم لأباطيل أخذوها تقليداً، وهذا منتهى الجهالة،"[4] وانظر في سورة محمد ذاك التفصيل الموجز لحال الكفار وما في آياتها من وصف حقيقة اعتبارهم للقرآن الكريم، وموقفهم النفسيّ منه، فهم كرهوا ما نزّل الله، وكرهوا رضوان الله، لذلك كان هذا الكره كفيلاً لصممهم عن الحق، وكونهم عمياناً مقفلي القلوب، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ

---

(١) انظر: الفصل الأول تحت عنوان الاستعدادات الروحية.

(٢) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، م١، ص٥٦٧.

(٣) الآلوسي، **تفسير روح المعاني**، مرجع سابق، م٤، ج٥، ص١٠٤.

(٤) البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، مرجع سابق، م١٣، ص١١٧.

مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٢٣ - ٣٠]، والملاحظ من الآيات ما يأتي:

- وجود العمى والصمم في الممتنع عن الاستجابة للقرآن الكريم، وهو سد حواس الاستقبال عن نقل الحقيقة إلى داخل الإنسان.
- عدم السماح للعقول بتدبّر القرآن، وهذا دليل على بقاء الخلل فيه.
- وجود الكره لما نزل من الحق، وهذا الكره مستقرّه القلب الذي تعلّق بمظاهر الدنيا التي تعكسها الحواس، واستقرّ ذلك في سرّهم.
- اتباع سخط الله وهو منهج الشيطان، والكره لرضوان الله الناتج عن الكره للحق.
- وجود المرض في القلب، وذلك لانتشار الفساد من الحواس إلى أن وصل إلى القلب.
- وأخيراً دور سمات الوجه بمعرفة داخل الإنسان، ونقل هذا الكره إلى سمات الإنسان بوصفها مرآة للباطن.

إن عدم توجيه الحواس نحو القرآن بوصفه بداية لتغيير للنفس هو من القضايا المعطّلةِ لعمل كل الاستعدادات؛ لأنها منافذ المعرفة والعلم، ومبدأ الاستقبال والتأثُّر بالعالم الخارجي، كما أنها سبيل نقل اللغة ومحاكاتها للنفس، وهي مفتاح الخطاب للوجدان والقلب، فإذا أوصدت الأبواب عُرف الجواب، وكذلك إذا أوصدت الحواس مُنِعَتْ الاستجابة الناتجة عن عدم وصول المعرفة، ومن هنا يأتي دور التفصيل في العامل الثاني من عوامل فساد استعدادات الإنسان وهو الفساد العملي للعقل والقلب، ووجود خلل ما في العلاقة التي تجمع عمليهما.

٢- الفساد العملي للعقل والقلب

إن الفساد العملي بين قائدي النفس وما وجد بينهما من اضطراب وعدم اتفاق له دور كبير في منع التغيير الفردي المتمثّل بتغيير النفس؛ إذ إن استخدام جوانب العقل بطريقة لا تناسب طبيعته، إما لعدم معرفة طبيعة عمله، أو إهماله، أو تقييد عمله بما يحد حريّته، ويصرف عنه سلامة الحكم، وهذه كلها تؤدي إلى نتيجة واحدة وهي الصدّ الناتج عن انحراف الميزان الحكمي للعقل البشريّ؛ أي أن يصدر العقل قرارات خاطئة غير متزنة، وهذه القرارات ناتجة عن قناعات منبعها خلل في التفكير غير الممنهج، وهذا له دور في تشكيل توجهات القلب في الشعور واللاشعور بما يصدره العقل من قناعات.

فالتفكير هو من أهم المؤديات إلى إدراك الشيء، ومعرفة التصور عنه، فهو يمثل أحد قدرات الاستدلال النابع من ذكاء الجنس البشري، ومن خلال تنظيمه المتفاوت بين الأشخاص يكون انعكاس السمة الخاصة[١] لشخصية الإنسان.

ولقد مرّ سابقاً ضرورة تشكيل التفكير المنهجيّ الذي يعين الإنسان على سلامة اتخاذ القرار، لذا فإن عدم سير عملية التفكير بالطريقة المنهجية المنظمة يكون استهلاكاً للقدرات العقلية بطريقة مرهقة للنفس، كما قال تعالى في وصف فئة من المستمعين للقرآن، وكيف يُهلكون أنفسهم فيقول عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٥ - ٢٦]، فقولهم هذا أساطير الأولين هو القرار غير المتزن الذي أصدره العقل، فعدم فقه القلب عند سماع آيات الله يكون بسبب توجهه إلى مصلحة أخرى، فكأن الأذن لم تسمع أصلاً؛ لأن

(١) أي الفروق الفردية، إن الشخص الذي يمتاز بزيادة في معيارية تنظيمه للأفكار ينعكس عليه ذلك من خلال سرعة استجابته للمؤثرات الخارجية الإيجابية، وقلة تأثره بالمؤثرات السلبية، ودقة تحليله للمدخلات، وقدرته على التمييز بين الأحداث والأشخاص والتصورات، وكلما قلّ تنظيم التفكير، زاد التفكير شتاتاً وقلت الاستجابة وتم الخلط واللبس، وتعرض الشخص لصعوبات حياتية.

ما لم يظهر له نتاج فهو هباء، ولم يظهر لهذا السماع نتاج فكان هباء كأنه لم يكن أصلاً، فالتعامل مع كلام الله تعالى في النفس بطريقة غير منظمة، وغير ممنهجة، يعني مرورها دون التأثُّر بها، قال تعالى عند وصفه لحال الممتنعين عن الإيمان عند سماعهم للقرآن الكريم: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٢ - ١٥]، وسلك "أصلٌ يدلُّ على نفوذ شيءٍ في شيء،"[1] إذن فنفوذ القرآن في النفس يكون بهذه الطريقة غير المنظمة التي تؤدي بالنفس إلى الحيرة بين صحة ما يُسمع، وسوء النفس بما تُضمر، فيولد الشتات وعدم الاستقرار المؤدي إلى حجب التوافق، وصراع النفس بين استعدادين هامّين يؤثران في اتخاذ القرار وهما العقل والقلب، وعندها يتكوّن المانع بسبب الجهد الحاصل من التفكير العشوائيّ، فجاءت الآيات في وصف صورة جديرة بالذكْر، جليّة الخطر، تصف حال من مُنعَ الاستجابة لمنهج الله، فنكص على عقبيه، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]، فقوله: ﴿حَيْرَانَ﴾ يعني "التردد في الأمر بإذ لا يهتدي إلى مخرجه،"[2] والحيرة سبب الاضطراب النفسيّ والجهد الفكريّ بلا طائل.

وهنا لا بد من النظر فيما يمنع العقل من التفكير المنهجيّ، والقلب من الفقه القرآنيّ، فالمانع من التفكير العقلي المنظم أمران: (الشك، والظن)، أما ما يمنع القلب من الاستجابة فهو (الهوى)، وبيّن أن هذه الأمور كلها تتأثّر وتؤثّر ببعضها بعضاً، وفيما يأتي تفصيل لذلك:

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، م١، ص ٥٦٨.

(٢) الفخر الرازي، **تفسير مفاتيح الغيب**، مرجع سابق، م٥، ج١٣، ص٢٦.

أ- الشك ودوره في المنع من الاستجابة:

إن الشك في لغة العرب دال على التداخل،[1] والتداخل يعني قيام المعلومات الدالة على عدّة قضايا دون تمييز، بطريقة عشوائية تؤدي إلى اللبس والخلط، فهي تدهور الاحتفاظ بالحقيقة في الذاكرة، نتيجة لتراكم حقائق سابقة يتعامل معها الشخص[2] وتناقضها مع حقائق لاحقة مستجدّة على النفس، وهذان الأمران -اللبس والخلط- من أكثر الأمور تشكيلاً للتفكير المنحرف، وبما أن العقيدة تقوم على البرهنة بالأدلة العقلية، فإن وجود اللبس والخلط يعني وجود قِصَرٍ في التمييز بين صحة الأدلة وخطئها، من خلال تساوي الاحتمالات العقلية والأدلة الواردة، فلا يتكون العلم اليقيني المبنيّ على تمييز الدلائل والبراهين بطريقة منهجية سليمة بسبب هذا التداخل؛ لأن العلم لا يتحصّل إلا بالدليل اليقيني، والدليل لا يكون يقيناً إذا خالطه الشك والاحتمال.

ولا تخفى خطورة هذا الأمر؛ إذ إن وجود الشك في وجود الله يعنى أن أدلة وجوده وعدمها في عقل الإنسان متساوية، وهذا يعني الإنكار الفوري للأدلة الواردة، ويتبعه "التعطيل وهو إنكار وجود الله"[3] ووجود اقتناع عقلي مسبق بأن كل أمر يُراد منه التصحيح والتغيير على الاعتقاد المستقرّ في النفس مرفوض مسبقاً، وهذا يعني الإعراض المباشر دون محاولة إعمال العقل بصورة سليمة؛ لأن محاولة التفكير المشوبة بالتداخل والخلط قد تثير البلبلة في العقل، وتؤدي إلى إرهاق الفكر، فيتجنب الإنسان هذه البلبلة وهذا الإرهاق بالتسليم الانهزاميّ على أن أي محاولة للإقناع مرفوضة.

وقد عرض القرآن الكريم هذه القضية، وبيّن خطورتها، وما تؤدي إليه عند لزومها تفكير الإنسان من خلال عرض طريقة تفكير الشاكّين المنكرين، ففي

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج١، ص٦٠٦.

(٢) بتروفسكي وياروشفسكي، **معجم علم النفس المعاصر**، مرجع سابق، ص١٥١.

(٣) الرازي، **مفاتيح الغيب**، مرجع سابق، م٩، ج٢٥، ص٦١.

سورة إبراهيم عليه السلام جاء عرض لحوار الشاكّين مع رسلهم، وكانت ردودهم سريعة ومتضاربة، يتخبّطون في خلط ولبس للأمور، إنكاراً وكفراً بسبب شكّهم، ولقد تعجّب الرسل من ذلك الإنكار الجاحد، مع وضوح الدلالة على الوجود والوحدانية لله تعالى، إلا أن الشك في وجود الله -مع إقرار الفطرة بوجوده- يقتضي إنكار ما بقي من تفاصيل الإيمان، فقال جل ذكره: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم: ٩ - ١٠].

إن العقيدة الإسلامية لا بد أن تقوم على اليقين فيما جاءت به الرسالات الإلهية، والتسليم للأمور الواردة فيها على أنها حقائق مؤكَّدة، ومؤصَّلة من خلال الاقتناع العقلي والتفكير البنّاء في آيات القرآن الكريم، وعند وجود الشك في الإنسان؛ يكون الضلال حاله "حين تفسد فطرته، وتُستغلق بصيرته، وتتعطل في كيانه أجهزة الاستقبال والتلقي، وينقطع عن الوجود الحي من حوله، وعن إيقاعاته وإيحاءاته،"[(١)] ولقد بيّن القرآن الكريم أن الله قد أرى الناس آياته، وجعلها متاحة أمامهم مهما تفاوتت قدراتهم فقال: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ [غافر: ٨١]، والانحراف الفكري هو العدول عن فكرة سويّة أو شبه يقينية إلى فكرة أخرى، بهذا الانحراف يكون امتناع النفس من التغيير.

إن هذا النوع من أنواع التفكير العشوائي المنحرف يؤدي إلى إنكار أيّة فكرة صحيحة، ومخالفة البراهين البدهية والدلائل المنطقية في وجود أصول العقيدة عند الإنسان، وإرجاع الأمور المدركة بالحواس إلى غير حقيقتها، أو إلى المصادفة، أو وجود الوجود كله دون موجد، وعليه يكون قيام الإنسان في الحياة على انحراف معرفته بالله تعالى، مع أن "أبلغ دليل على أن هذه القوة -الفهم-

---

(١) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، بيروت: دار الشروق، ط٩، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، م٤، ص٢١٣٠.

إنما هي من تدبير فاطر حكيم؛ أنه أوقفها عن الإنتاج في رأس هذا المنكر، جزاء لاستكباره، وتحقيقاً لسبب عقابه الخالد."[1]

ب- الظن ودوره في منع الاستجابة:

لقد أشارت معاجم اللغة[2] إلى أن الظن قد يكون إيجابيّاً نابعاً عن أقرب درجات اليقين، حتى لا يكون بينه وبين اليقين إلا استشعار الأمر بظهوره للعيان كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥ - ٤٦]، وقد يكون سلبياً وهو أقرب ما يكون إلى مرحلة الوهم التي لا يقوم دليل عليها أو قام على نفيها.

إن الظن من المؤثرات الفعّالة في انحراف الاعتقاد، وهذا الانحراف هو أحد العوامل المانعة من التغيير بمنهج القرآن الكريم؛ لأن أصل الظن عدم العلم بالشيء فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٧ - ٢٨]، أما التغيير الفرديّ الذي جاء به القرآن الكريم فهو عمليّة معرفية، فيها يتم تقرير الحقائق، وترتيبها، توظيفها لكل استعدادات النفس في الإضافة عليها، إذن فالقرآن الكريم عند تغييره للفرد تعامل معه من خلال عملية معرفيّة، بإقامة العلم بوجود الله تعالى متصفاً بما أخبر به القرآن الكريم.

والإيمان بكل ما جاء في القرآن الكريم، يؤدي إلى اعتقاد سليم مبنيّ على الحق، "والحق بمعنى العلم، فلا يقوم الظن مقام العلم،"[3] فمنبع الظن الوهم؛ إذ يكون إدراك المعاني بتصرف من الخيال، فينقلها من صورتها الحقيقية إلى صور وهمية غير مطابقة للواقع، ويسمى الخيال وهماً عندما يصادم الحقائق، ويولد انحرافاً في الفكر والتصورات.

---

(١) البوطي، **كبرى اليقينيات الكونية**، مرجع سابق، ص٩٥ بتصرف.

(٢) انظر ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج٢، ص٩٧.

(٣) البغوي، **معالم التنزيل**، مرجع سابق، ج٤، ص٣٠١.

والظن السلبيّ مرحلة متقدمة تقوم على الشكوك الموجبة للخلط في الأفكار، بل إن قيام البراهين ومدى موافقتها للفطرة وإقناعها للعقل في نظر مضطرب التفكير يوجب مزيداً من الإنكار، وهذا ما بيّنته الآية الكريمة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، و أيضاً قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩]؛ لأن تصوّراته عن الله وعن الإنسان والحياة تكون ناشئة عن تصورات مجتزأة عن الحقيقة، فربما يكون هناك اقتناع بوجود إله، ولكنه ليس الذي يدعو إليه الرسول، أو أن يكون الله هو الإله، ولكن ليس وحده، بل هناك واسطة إليه، وقد يكون مقتنعاً بوجود الله إلهاً واحداً، ولكنه ينكر اليوم الآخر، أو يكون مقتنعاً بوجود الله تعالى إلهاً واحداً، ولكن ينسب إليه ما لا يليق به من اعتبار الملائكة بناته، أو اعتبار عيسى عليه السلام هو الله، تعالى الله عن ذلك، وقد يظن أن لن يقدر عليه أحد كما ظن فرعون سابقاً، أو لا يراه أحد فينسى الله تعالى ويحيد عن تقواه كما في قوله تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ**﴾ [البلد: ٥ – ٧].

لقد بيّنت آيات القرآن الكريم حقيقة اتخاذ الظن سبيل التفكير –وساء سبيلاً–، فقد وضّح حقيقة الظن بأنه لا يقوم على حقائق علمية، بل هو ضرب من العبث الفكريّ الذي يقود إلى خلل عقليّ في استخدام قدرات الإنسان، فيقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وذكر اسم الإشارة (ذلك) "إشارة إلى القضية المنفية لا إلى نفيها؛ أي خَلْق المذكورات باطلاً هو ظن الذين كفروا؛ أي اعتقادهم. وأُطلق الظن على العلم؛ لأن ظنهم علم مخالف للواقع، فهو باسم الظن أجدر؛ لأن إطلاق الظن يقع عليه أنواع من العلم المُشْبِه[1] والباطل."[2]

---

(١) ومعنى كلمة المُشْبِه؛ أي: العلم الذي فيه لبس أو خلط بين الحقائق.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، م٩، ص٢٤٨.

ت- الهوى القلبيّ ودوره في منع الاستجابة:

إن أصل الهوى في اللغة دال على "خُلُوٍّ وسقوط؛ لأن أصله الهواء بين الأرض والسماء، وسُمِّي لخلوِّه،"[1] وبما أن الهوى من الفراغ؛ فإن من أهم المحركات للهوى فراغين: فراغ العقل، وفراغ الوقت، فوجودهما سبيل الحركة له. ويقول ابن منظور: "وهَوى النفسِ إِرادتها والجمع الأَهْواء..."[2] وقال ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به،"[3] يعني إرادته، وبهذا الأمر كمال القناعة والاعتقاد بتفاصيل المنهج الرباني، ووصول الإنسان إلى دائرة التنقل في درجات توجيه إرادته كما يريد الله، ليسمو ويرتقي بقدر توفيقه بين الإرادتين، "فالهَوى العِشْق يكون في مداخل الخير والشر،"[4] فإذا توجه إلى ما يريد الله تعالى كان من مداخل الخير.

والهوى عامل أساسيّ في توجيه الاقتناع العقلي والقناعة النفسية التي هي "السكون عند عدم المألوفات؛"[5] لأنه "محبةُ الإِنسان الشيء وغَلَبَتُه على قلبه..."[6] فإذا توجه القلب إلى حب الذات يورث الاستكبار وهو من أهم الموانع التي تمنع من التغيير نحو المنهج، وطفق الإنسان في تحصيل كل حاصل وتوجه بما يناسب هواه، وكذلك إذا توجه إلى حب الشهوات كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ

---

(١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٩١.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة (هوا).

(٣) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر. **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، تحقيق: محمود بن الجميل، القاهرة: مكتبة الصفا، ط١، ٢٠٠٣م، ج١٣، ص٣٤٧، وخلاصة الحكم على الحديث رجاله ثقات، وقد وصفه الحكمي بأنه حديث صحيح، انظر:

- الحكمي، الشيخ حافظ بن أحمد. **كتاب معارج القبول**، ضبطه: عمر محمود أبو عمر، الدمام: دار ابن القيم، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، م٢، ص٤٢٢.

(٤) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة (هوا).

(٥) الجرجاني، **التعريفات**، مرجع سابق، ص١٧٩.

(٦) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة (هوا).

ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤]، كان الإنسان صارفاً كل جهده واستعداداته في جمع ما يوافق شهواته التي مال إليها هواه، فهوى الإنسان متوجّه إلى ما يحب، ومستقرّ الحب في القلب.

وبما أن التغيير جاء بإيجاد معارف، وأن بداية المعارف إدراك عقليّ؛ فإن النفس التي تحبّ زخرف الحياة الدنيا وما في زخرفها من متاع قليل تأبى أن يكون من الحقائق ما يخالفها، أو ما يعكّر صوفها، فيقف الهوى مانعاً من موانع الاستجابة لمنهج القرآن الكريم، ويسعى جاهداً لردّ كل ما يخالف هذا الهوى من قناعة، وبهذا يكون الهوى مانعاً من موانع التغيير الذي ينتج عن كل الموانع الأخرى.

ثانياً: تأثير المانع الحياتيّ البيئي

وهذا الجانب بتوجيه المدخلات الحسيّة الصالحة والفاسدة على السواء، مختصّ بكل ما يحيط بالإنسان، من سلوك مؤثر نابع من الحياة الأسرية والمجتمعية، ولا يكون لهذا المانع ذاك الأثر إلا إذا وجد شيء من فساد الاستعدادات؛ إذ إن القرآن عندما بنى النفس الداخلية، والشخصية الإنسانية، جعل الإنسان مستعدًّا للثبات على الأصل الثابت دون تأثير المؤثرات الخارجية والبيئيّة حوله، بل كانت عملية الارتقاء كفيلة بإيجاد الأفراد المؤثرين بالبيئة، فيعبَّرُ عن هذه الشخصيّة بمسمّى (الشخصية القيادية)، وجعل التأثّر والتأثير في البيئة متحققاً بمدى قوة الإيمان وضعفه، مهما كانت قوة التأثير الواردة، فجاء قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، دليلاً على تحقيق الثبات على الأصل السليم، الذي هو سبيل تحقيق الاستقامة على المنهج القرآنيّ، مهما واجهته الهجمات والأزمات. والبيئة المحيطة بالإنسان إما أسرته أو المجتمع الذي يعيش فيه، وتفصيل ذلك كما يأتي:

١- المانع المتعلق بالجانب الأسريّ

جاء الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة عن النبيّ ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه،"[1] مدللاً على أن للأسرة الدور الأول في تغيير الفرد بالالتزام بمنهج الله، أو البُعد عنه.

فالأسرة هي البانية للسلوك الأوّليّ للفرد، ومنها تشكيل معارفه فيما ينبغي فعله عند مواجهة أمر ما، واستمرار استقباله للأصول السلوكية الخاطئة منذ بداية إدراكه سبيل لتوليد قناعته بأن هذا هو المفروض فعله في المواقف، ومن هنا ينشأ الإصرار على اتباع سنة الأولين المتمثلة بحجة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ بوصفه عاملاً من عوامل المنع من التغيير؛ إذ إن استمرارية الاكتساب الأوليّ ثبات للفعل، وثباته على مرّ الزمن يعني رسوخه في الذهن، وأن مخالفته جرم؛ لخروج هذا الخارج عن العادة لدرجة أنهم ألفوه، مما يؤكد أن هناك قناعة بأن هذا السلوك المتوارث هو السلوك المهتدى به بيّن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢١ - ٢٢]، وهذه القناعة فاسدة بورودها في سياق الذم عندما بيّنها القرآن الكريم.

لقد كانت حجة الممتنعين عن اتباع الرسل وجود آبائهم على سنّة، فتربية الآباء وتوجيههم لأبنائهم منذ نعومة أظفارهم لها دور في تشكيل المعارف التي ترسخ في نفس الفرد، فإذا غرسوا في نفسه الخير كان قيام حياته على هذا الخير، وإذا غرسوا في نفسه الشر كان قيام حياته على بذرة الشرّ قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]، فيكون الشر الكامن في النفس إذن هو أحد موانع التغيير الفردي الناتج عن العامل الأسريّ.

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الجنائز بَاب: "إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ"، حديث رقم ١٢٦٦، م١، ج٢، ص٥٧٦.

كما أن الأسرة لها دور هامّ في تشكيل عادات الفرد في الحياة، والعادات تمثل "جانباً هامّاً في السلوك؛ لارتباطها بالعواطف والاتجاهات والقيم،"[1] وتختص فيما كان فيه تكرار عمليّ، كما أنها -العادة-"الاستعداد المكتسب بالتعلم، المتمثلة بمجموعة من الأفعال التي يتم تكوينها بالتكرار والاقتران والترابط،"[2] ويمكن أن تكون ثابتة إلى حدٍّ ما، ويمكن حدوثها بالطريقة نفسها عند وجود ما يثيرها، أو اقترانها بحدث يُذكّر بها، أو ارتباطها بأمر يحييها، "وتكون باتفاق أسرة أو مجتمع بشكل عام على الإتيان بها؛ إذ تمتاز بمجهودها البسيط على النفس؛ لأنها ناتجة عن تصرف دون جهد في الفكر أو حصر الانتباه،"[3] وقد يكون الاكتساب البيئيّ للعادة فرديًّا؛ أي يكتسب الفرد العادات من الخارج دون اتفاق جماعة، ويعتاد عليه عند نظره لمن حوله، ومن هنا يكون غالباً لكل أسرة عاداتها الخاصّة، وهذه العادات تجعل لها تصرفات خاصة يجتمع كل أفراد هذه الأسرة على العمل بها.

٢- المانع المتعلق بالجانب الاجتماعي

وهذا العامل مرحلة تنتج عن العامل الأول، فللمجتمع دور هام في التأثير على تصرفات الفرد إيجاباً أو سلباً، كما أن لقضية التأثّر والتأثير دوراً هاماً في تغيير الفرد من الظلمات إلى النور أو العكس؛ لأن الفرد متأثر ببيئته، والأمران عملية متبادلة بين الناس لقيام العادات الاجتماعية يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]، فالإنسان إما أن يتأثر بعادات موروثة في الأسرة، أو يتأثر بقيم واتجاهات تُفرض عليه من المجتمع بحيث تصبح عقيدة سائدة تولّد مخالفتها العقاب النفسي أو الزجر الفعليّ، فلا يستطيع الانفكاك عنها.

---

(١) منصور، "السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس المعاصر"، مرجع سابق، ص١٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٩- ١٧٠، بتصرف.

(٣) المرجع السابق، ص١٦٩- ١٧٠، بتصرف.

ثم إن انتشار آفة معيّنة في مجتمع ما مهما كانت شاذّة يكسر الحاجز النفسيّ المانع من اقترافها وهو الشعور بالحياء؛ لأنها لم تَعُدْ أمراً شاذّاً في نظر الجماعة، لذا تصبح أمراً معهوداً على النفس، مما يسوّغ للنفس تفلتها نحو الانحراف السلوكيّ، حتى وإن خالف الاعتقاد، فيوجه الفرد كل استعداداته للبحث عن الشهوة، ويعتبر انتشار آفة سلوكية شاذّة في مجتمع ما دافع ذاتي، فكلما أردات النفس الكفّ عن هذا الشذوذ كانت حجّتها ذلك الانتشار لهذا الفعل، فيستمر في المعصيته حتى تعتاد النفس عليها فلا تقدر أن تتلفت منها، فتحقق المانع النفسيّ -الحياء- من القيام بأيّ فعل منحرف أو مسلك شاذّ أمر هامٌّ يكفل الردع للنفس عن تفلّتاتها، ولهذا ترى اقتران الحياء بالإيمان في قوله : "دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ."[1]

لقد كُسر حاجز الشعور بالشذوذ عند قوم لوط، فكانت المعصية قد تفشّت في المجتمع كما بيّنتها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨٠ - ٨١]، وكان الشذوذ هو العادة المستحكمة فيه، وكان للمجتمع أثره في تواصل التأثّر بالمعصية، وكانت مانعاً من موانع استجابتهم لنبيّهم لوط عليه السلام، وأصرّوا على ما هم عليه حتى جاءت سنّة الله تعالى في عقابهم لامتناعهم، فقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

لقد كان لأعداء دين الله دور في تغيير العادات الأصيلة، والمراوغة للدس فيها ما ليس منها، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥]، ويجدون من داخل المجتمع الإسلاميّ أتباعاً يروّجون

---

(١) حديث متفق عليه، ونصّ الحديث عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: "دعه فإن الحياء من الإيمان". انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان.

- النيسابوري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها.

الفساد العقديّ، والانحراف الأخلاقيّ في المجتمع، ويدسّون في وسائل الإعلام ما يُظهر الفاحشة بأبهى صورها، ويزيّنوها بزينة الحرية والكرامة، وهم أبعد ما يكونون عن ذلك؛ لأنهم عبيد الشهوة والاختلال العقليّ، فيشكّكون بمدى صلاح منهج الله تعالى لقيام السعادة والاستقامة في مجالات الحياة كافة، كما فعلت طائفة من أهل الكتاب يوم أحكموا كيدهم، وجاؤوا بمكرهم فقال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]، ويخلطون اليقين بالظن، والحق بالباطل حتى التبس على العقول تحديد الصواب من الخطأ في الفكر وفي السلوك، واتبعهم خفاف العقول، بل من عطّلوا كل استعداداتهم، واتخذوا من قيود الكفر سبيلاً للحريّة، واختلّت الموازين الحكميّة؛ لأن أول أمر ركّزوا عليه في حربهم الفكريّة والمعنويّة هو بث الخلل في ميزان الحكم العقليّ، فصارت العقول تصدر أحكاماً باطلة بُطلان الواقع الذي يعيشه الناس، وسلّموا أمرهم لهوى القلب، كي يميل بالنفس من شهوة إلى أخرى، ومن ضنك الحياة إلى ضنك الممات، فانسلخ الناس عن دينهم، وهم يبحثون عن دينهم، وصار الناس يعتقدون أن التحضّر هو الإتيان بما يتصف به الغرب، وليست عقيدة القرآن العربيّ، ودسّوا لغة غير لغة القرآن، لتنشغل العقول عن فهم القرآن وإدراك معانيه إلى إدراك لغات أخرى، كما عملوا على إيجاد كل ما يضمن تفاعل الفرد والجماعات في سلسلة المنع من الاستجابة للحق، فعلا الزبد، وما ينفع الناس موجود غير ظاهر، وظهوره وعدٌ ربّانيّ لا يُخْلَف، وإن قامت الإنس والجن على أن يخفوه، فسيظهره الله يوم يقول كن فيكون، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨ – ٩].[1]

---

(١) إن الواقع الحاليّ يترجم للمتأمّل التفاصيل والأسباب التي منعت الناس من الاستجابة لمنهج الله تعالى، وإن للغزو الفكريّ والثقافيّ الغربيّ –حزب الشيطان– الدور المحرّك لقيادة كل الموانع التي تمنع التغيير، فأثاروا الشكوك، وخلطوا اليقين بالظن، ووجهوا الأسماع والأبصار إلى حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة... إلخ حتى يأخذ الهوى دوره في الصد عن سبيل الله تعالى، انظر: تمهيد هذا الكتاب.

الخاتمة

لقد خلصت هذه الدراسة إلى نتائج عدّة منها:

- إن للقرآن الكريم منظومة متكاملة وشاملة لإحداث التغيير في النفس الإنسانية، تبدأ من تغيير المعارف والأفكار، وتتدرج لتغيّر الاعتقادات والتصورات، ثم تعمل على توجيه السلوكات والتصرفات، حتى يكون الفرد المتغيّر في أعلى درجات الكمال الإنسانيّ النسبيّ، لتنتقل عملية التغيير إلى تفاعل بين أفراد المجتمع الواحد لبنائه والارتقاء به.

- إن من أهم المعارف التي تعدّ مدخلاً هامًّا للتغيير هو معرفة الإنسان نفسه؛ كي يملك زمام الأمور في التعامل معها، وتغييرها، وتوجيهها نحو منهج الله تعالى.

- لقد جاءت أساليب القرآن الكريم بإحاطة عملية تامة وشاملة لكل استعدادات النفس البشريّة أفراداً وجماعات، فهي تعاملت مع جانبين:

  • الجانب الذي يشترك فيه الناس جميعاً، وهو جانب التعريف بالخالق، والكون، والإنسان، والحياة، لإحداث التغيير الجوهريّ.

  • والجانب الذي يختلف فيه الأفراد فيما بينهم (الفروقات الفردية)؛ لإحداث التغيير الارتقائي بتحفيز التنافس بين أفراد المجتمع.

- إن إحياء مبدأ الكرامة الإنسانية والحق الإنساني كما ورد في القرآن الكريم هو أساس من أسس انعكاس الاعتقاد على السلوك، وليس كما هو في أيّة هيئة أو منهج أو مسلك؛ فالفارق كبير بين كرامة يضعها خالق كامل، وكرامة ينتقص منها مخلوق ناقص.

- إن من مداخل الغزو التغييري ضد منهج الله تعالى سلب النظرة للقيمة المعنويّة التي هي إعطاء كل أمر في الحياة معنى، وبقدر معناه تكون قيمته؛ إذ عمل هذا الغزو على تغيير هذه القيمة إلى توجيه الأنظار إلى القيمة المادية؛ أي أن يكون لكل شيء قيمته بقدر جودة مظهره، وعلى هذا الأمر أصبحت الحياة بلا معنى بكل ما فيها، بل هي مجرد ماديات يسعى الإنسان للحصول عليها، حتى نسي دينه الذي يعطي للحياة معناها، والمادة في الدين خادمة، لإبراز المعنى دون أن تطغى عليه.

- لقد اختلف الفلاسفة فيما إذا كان الإنسان مفطوراً على الخير أو الشر أو اجتماعهما في نفسه، وخلصت الدراسة بالأدلة والبراهين إلى أنه مفطور على الخير، فخلقه كان قبل وجود الشر المتمثل بعصيان إبليس، وهناك من الأدلة الأخرى ما يثبت الخير في فطرته، وعليه فإن عملية التغيير هي عملية إرجاع الإنسان إلى أصله الخيّر، فكلما زاد رجوعه إليه زاد كماله.

توصي هذه الدراسة بما يلي:

- أن يُنظر في المقاييس العلمية التي على أسسها تقوم القيمة العلمية للمتعلمين في الجامعات والكليات، خصوصاً في جانب العلم الشرعيّ.

- إحياء مبدأ الكرامة الإنسانية، وحقوق الإنسان، والحرية الإنسانية كما جاء بها القرآن الكريم ونظّمها، لا كما هي في أيّة سبيل أو مسلك أو منظمة أو هيئة؛ فالفارق كبير بين كرامة يضعها خالق كامل عليم بأحوال خلقه، وكرامة يخطط لها مخلوق ناقص تحكمه الأهواء والشهوات والمصالح.

- إحياء الأسر الإسلامية بالحظ الوافر من العلم والمعرفة بكتاب الله تعالى، والحض على قيامها على أسس دعا إليها النبيّ الكريم ﷺ، فبالأساس الطيب تكون الثمرة الطيّبة، ولا أطيب من أساس دعا إليه منهج القرآن الكريم، ومنهج الرسول الأمين؛ لتغيير الفرد والمجتمع، والارتقاء بالحضارة الإنسانية جمعاء.

المراجع

- الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،** ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- الأصفهاني، الراغب. **مفردات ألفاظ القرآن الكريم،** تحقيق: صفوان عدنان، دمشق: دار القلم، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- باشميل، محمد أحمد. **كيف نفهم التوحيد؟،** المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٤٠٨هـ.
- بتروفسكي، أ. ف.. وياروشفسكي، م. ح.. **معجم علم النفس المعاصر،** محرر الطبعة: سعد الفيشاوي، ترجمة: حمدي عبد الجواد وعبد السلام رضوان، القاهرة: دار العالم الجديد، ط١، ١٩٩٦م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة. **صحيح البخاري،** شرح وتحقيق: قاسم الشماعي الرفاعي، دار القلم: بيروت، (د. ت.).
- البخاري، عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة. **صحيح البخاري،** تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله، رقَّم أبوابه: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- بدري، مالك. **التفكر من المشاهدة إلى الشهود،** هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١م.
- بدوي، عبد الرحمن. **مناهج البحث العلمي،** الكويت: وكالة المطبوعات، ط٣، ١٩٧٧م.
- بدوي، عبد الرحمن. **موسوعة المستشرقين،** بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٣م.

- برغوث، الطيب. **منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية**، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- برنهارت. **علم النفس في حياتنا اليومية**، ترجمة: إبراهيم عبد الله محيي، بغداد: مكتبة أسعد، ط٤، ١٩٨٤م.
- البروسوي، إسماعيل حقي. **تفسير روح البيان**، تعليق وتصحيح: أحمد عبيد، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- البغدادي، أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي. **الأصول في النحو**، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود. **معالم التنزيل**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- بني يونس، محمد. **مبادئ علم النفس**، ط١، عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، ص١٣٣-١٥٠.
- البوطي، محمد سعيد رمضان. **كبرى اليقينيات الكونية**، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٦٩م.
- البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- بينيش، هلموت. **أطلس علم النفس**، ترجمة: أنطوان إ. الهاشم، بيروت: المكتبة الشرقية، ط١، ٢٠٠٣م.
- البيهقي، أبي بكر أحمد بن الحسين. **دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، وثّق أصوله: عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- الترمذيّ، أبو عيسى محمد بن عيسى. **جامع الترمذي**، إشراف ومراجعة: صالح عبد العزيز، الرياض: دار السلام، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- تمبل، كرستين. **المخ البشري مدخل إلى دراسة السيكولوجيا والسلوك**، ترجمة: عاطف أحمد، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٢م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. **الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح**، القاهرة: مطبعة المدني، (د. ت.).
- الجارم، محمد نعمان. **أديان العرب في الجاهلية**، القاهرة: مطبعة السعادة، ط١، ١٩٢٣/١٣٤١م.
- الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحنفي. **التعريفات**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.
- الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحنفي. **التعريفات**، تحقيق: محمد باسل السود، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- الجرجاني، عبد القاهر. **دلائل الإعجاز**، تعليق: محمود شاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٥، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- جلبي، خالص. **الطب محراب الإيمان**، بيروت: دار النفائس، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
- أبو حطب، فؤاد عبد اللطيف. وعثمان، سيد أحمد. **التفكير؛ دراسات نفسيّة**، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٢م.
- الحفني، عبد المنعم. **المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة**، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط٣، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- الحفني، عبد المنعم. **المعجم الموسوعي للتحليل النفسي**، القاهرة: مكتبة مدبولي، (د. ت.).
- الحفني، عبد المنعم. **الموسوعة النفسية؛ علم النفس في حياتنا اليومية**، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٥م.

- الحكمي، الشيخ حافظ بن أحمد. **كتاب معارج القبول**، ضبطه: عمر محمود أبو عمر، الدمام: دار ابن القيم، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- الحملاوي، أحمد. **شذا العرف في فن الصرف**، بيروت: المكتبة العلمية، ط١٢، ١٩٥٧م.
- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف الغرناطي. **البحر المحيط في التفسير**، عناية: عرفات حسونة، بيروت: دار الفكر، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف الغرناطي. **البحر المحيط**، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي عوض، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي. **لباب التأويل في معاني التنزيل**، ضبطه وصححه: عبد السلام محمد شاهين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- الخطيب، عبد الكريم. **التفسير القرآني للقرآن**، القاهرة: دار الفكر العربي، (د. ت.).
- خليل، عماد الدين. **حول إعادة تشكيل العقل المسلم**، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميه، سلسلة كتاب الأمة، ط١، ١٤٠٣هـ.
- الدارمي، أبو حمد عبد الله بن عبد الرحمن ابن الفضل بن بهرام. **سنن الدارمي**، حققه: محمود أحمد عبد المحسن، بيروت: دار المعرفة، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن ابن بهرام. **سنن الدارمي**، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- دراز، محمد عبد الله. **الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان**، بيروت: دار القلم، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

- دراز، محمد عبد الله. **النبأ العظيم**، اعتنى به وخرّج أحاديثه: عبد الحميد الدخاخني، الرياض: دار طيبة، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- دراز، محمد عبد الله. **دستور الأخلاق دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن**، تقريب وتحقيق وتعليق: عبد الصبور شاهين، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٤، سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ديكارت، رينه. **تأمّلات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى**، ترجمة: كمال الحاج، بيروت: منشورات عويدات، ط١، ١٩٦١م.
- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي. **التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٤، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. **كتاب النفس والروح وشرح قواهما**، تحقيق: محمد صغير حسن المعصومي، إسلام آباد: معهد الأبحاث الإسلامية، ١٩٦٨م.
- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل. **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داودى، دمشق وبيروت: دار القلم والدار الشامية، ١٤١٢هـ.
- الرافعي، مصطفى صادق. **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٩، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
- الرافعي، مصطفي صادق، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، تحقيق: عبد الله المنشاوي، القاهرة: مكتبة الإيمان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- رضا، محمد رشيد بن علي. **تفسير القرآن الحكيم المشهور بالمنار**، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م.
- رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

- رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، بيروت: دار المعرفة، ط٢، ١٩٧٣/١٣٩٣م.
- زريق، معروف. **الأذكياء**، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد. **الكشاف**، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.
- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد. **تفسير الكشاف**، شرحه وراجعه: يوسف الحمادي، القاهرة: مكتبة مصر، (د. ت.).
- زناتي، أنور محمود. **معجم افتراءات الغرب على الإسلام والرد عليها**، القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠٩م.
- زيدان، محمد مصطفى. **معجم المصطلحات النفسية والتربوية**، جدة: دار الشروق، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- سالمي، عبد المجيد وآخرون. **معجم مصطلحات علم النفس**، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- السامرائي، فاروق. والدغشي، أحمد. "الأساس الفطري في التربية الإسلامية"، **مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون**، المجلّد ٢٤، سنة ١٩٩٧م.
- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث. **سنن أبو داوود**، تحقيق: محمد عوامة، بيروت: مؤسسة الريان، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- السجستاني، سليمان بن الأشعث. **سنن أبو داود**، تحقيق: رائد بري، دار طويق للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: محمد عبد الرحمن مرعشي، قدم لها: القاضي عبد الله بن عبد العزيز

بن عقيل، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

- السنوسي، أبو عبد الله. **شرح السنوسية الكبرى**، تحقيق: د. عبد الفتاح بركة، الكويت: دار القلم، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- السيد، عبد الحميد مصطفى. **الأفعال في القرآن الكريم؛ دراسة استقرائية للفعل في القرآن الكريم في جميع قراءاته**، عمان: دار الحامد للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٤م.

- سيد، فتح الباب عبد الحليم. **التربية في القرآن والسنة الغايات والأهداف**، القاهرة: دار عالم الكتب، ط١، ١٩٩٦م.

- ابن سيده، أبو الحسن على بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي. **كتاب المخصص**، قدّم له: خليل إبراهيم جفال، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

- ابن سينا، أبو علي الحسين بن علي. **أحوال النفس رسالة في النفس وبقائها ومعادها**، حققها: أحمد فؤاد الأهواني، ط١، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. **تاريخ الخلفاء**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: مطبعة السعادة، ط١، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

- شارلوت، سيمور سميث. **موسوعة علم الإنسان؛ المفاهيم والمصطلحات الأنثربولوجية**، ترجمة: علياء شكري وآخرين، مراجعة وإشراف: محمد الجوهري، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط٢، ٢٠٠٩م.

- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، ضبطه وصححه وخرج أحاديثه: محمد عبد العزيز الخالدي، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت.).

- شوشار، يول. **دماغ الإنسان**، ترجمة: خليل سابق، بيروت: المنشورات العربية، (د. ت.).

- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن حنبل. **مسند الإمام أحمد**، إشراف: عبد الله عبد المحسن، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- صابر، محيي الدين. **التغيير الحضاري وتنمية المجتمع**، القاهرة: مركز تنمية المجتمع، ١٩٦٢م.
- صليبا، جميل. **المعجم الفلسفي**، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٧٣م.
- صلييبا، جميل. **علم النفس**، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٢م.
- الطالقاني، ابن عباد. **المحيط في اللغة**، تحقيق: محمد عثمان، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠١٠م.
- الطبراني، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد. **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، قدّم له: الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق: صدقي العطار، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد. **جامع البيان في تأويل القرآن**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- طنطاوي، محمد سيد. **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، مراجعة: عبد الرحمن العدوي، القاهرة: دار المعارف، (د. ت.).
- ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي. **تفسير اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: عادل عبد الموجود ومحمد عوض، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

- ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: دار سحنون للنشر، (د. ت.).
- عبد الوهاب، محمد. **كتاب التوحيد الذي هو حق الله تعالى على العبيد**، الرياض: دار المغني للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي. **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت: المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- ابن عربي، محيي الدين أبو بكر محمد بن عبد الله. **الإنسان الكامل والقطب الغوث**، جمع وتأليف: محمود محمود غراب، دمشق: مطبعة زيد بن ثابت، ١٩٨١م.
- العسقلاني، أحمد ابن حجر. **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله، رقَّم أبوابها: فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر. **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، تحقيق: محمود بن الجميل، القاهرة: مكتبة الصفا، ط١، ٢٠٠٣م.
- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن تمام الأندلسي. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق وتعليق: عبد الله الأنصاري وعبد العال إبراهيم، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
- العقاد، عباس محمود. **"الله" كتاب في نشأة العقيدة الإلهية**، القاهرة: دار المعارف، ط٧، ١٩٧٦.
- العقاد، عباس محمود. **التفكير فريضة إسلامية**، القاهرة: دار نهضة مصر، (د. ت.).
- العقاد، عباس محمود. **الفلسفة القرآنية**، القاهرة: دار الهلال، العدد٢٢٩، ذو الحجة ١٣٨٩/مارس ١٩٧٠م.
- العمادي، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى. **إرشاد العقل السليم إلى**

مزايا الكتاب الكريم، وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمن، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **إحياء علوم الدين**، القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٩٩٨م.
- الغزالي، محمد. **كيف نفهم الإسلام**، دمشق: دار القلم، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا. **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ.
- فايفر، جون. **العقل البشري**، ترجمة: م. عيسى، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥م.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد. **كتاب العين**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. **الجامع لأحكام القرآن**، بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. **الجامع لأحكام القرآن الكريم**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. **الجامع لأحكام القرآن**، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد. **سنن ابن ماجه**، تحقيق: بشار معروف، بيروت: دار الجيل، ط١، ١٤١٨هـ.
- قطب، سيد. **التصوير الفني في القرآن**، بيروت: دار الشروق، ط٤، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- قطب، سيد. **العدالة الاجتماعية في الإسلام**، القاهرة: مطبعة دار الكتاب العربي، ١٩٥٢م.

- قطب، سيّد. **خصائص التصوّر الإسلاميّ ومقوماته**، (د. م.): (د. ن.)، ط٢، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، بيروت: دار الشروق، ط٩، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، بيروت: دار الشروق، ط١٠، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- قطب، سيد. **هذا الدين**، القاهرة: دار الشروق، ط١٤، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- قطب، محمد. **دراسات قرآنية**، بيروت: دار الشروق، ط٢، ١٩٨٠م.
- قطب، محمد. **معركة التقاليد**، (د. م.): مكتبة الأقصى، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
- قطب، محمد. **منهج الفن الإسلامي**، بيروت: دار الشروق، ط٦، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- كاربر، جين. **المخ المعجزة**، الرياض: مكتبة جرير، ط١، ٢٠٠٢م.
- كاريل، أليكس. **الإنسان ذلك المجهول**، تعريب: أسعد فريد، بيروت: مكتبة المعارف، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي. **تفسير القرآن العظيم**، راجعه ونقّحه: خالد محمد محرم، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- كحالة، عمر رضا. **معجم المؤلفين**، بيروت: مؤسسة الرسالة، (د. ت.).
- الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب. **كتاب الأصنام**، تحقيق: أحمد زكي، القاهرة: الدار القومية، ١٤٤٣هـ/١٩٢٤م.
- الكيلاني، ماجد عرسان. **أهداف التربية الإسلامية**، بيروت: مؤسسة الريان، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- لانغ، جفري. **الصراع من أجل الدين؛ انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام**، ترجمة: منذر العبسي، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٣٤.
- ماكوي، تشارلزدبليو. **لماذا لم أفكر في هذا من قبل؟**، الرياض: مكتبة جرير، ط١، ٢٠٠٥م.
- مجمع اللغة العربي. **المعجم الفلسفي**، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع

الأميرية، ١٩٨٣م.

- المحاسبي، الحارث بن أسد. **العقل وفهم القرآن**، تحقيق: حسين القوتلي، بيروت: دار الكندي ودار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- المحاسبي، الحارث بن أسد. **شرف العقل وماهيته**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٦٨م.
- مدكور، علي أحمد. **منهج التربية في التصور الإسلامي**، بيروت: دار الفكر العربي، ط١، ١٢٤٤هـ/٢٠٠٢م.
- مرسي، محمد منير. **التربية** الإسلامية أصولها وتطوّرها في البلاد العربية، القاهرة: عالم الكتاب، ١٩٩٨.
- مصطفى، إبراهيم وآخرون. **المعجم الوسيط**، أخرجه: إبراهيم أنيس وآخرون، إشراف: حسن عطية ومحمد شوقي، بيروت: دار الأمواج، ط٢، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- أبو مصلح، عدنان. **معجم علم الاجتماع**، عمان: دار أسامة، ط١، سنة ٢٠٠٦م.
- المعافري، أبو محمد عبد الملك ابن هشام. **السيرة النبويّة المعروفة (بسيرة ابن هشام)**، تحقيق: عادل أحمد، علي معوّض، الرياض: مكتبة العبيكان، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- المنصور، غسان. "المنهج العلمي في السلوك الإنساني من منظور علم النفس"، رسالة ماجستير في علم النفس، ٢٠٠٢م، إشراف: على منصور، جامعة دمشق.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ط٣، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- الميداني، عبد الرحمن حبنكة. **العقيدة الإسلامية وأسسها**، دمشق: دار القلم، ط٧، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة. **ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال**

والمناظرة، دمشق: دار القلم، ط٤، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

- النحوي، عدنان على رضا. **التربية في الإسلام النظرية والمنهج**، الرياض: دار النحوي للنشر، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب. **سنن النسائي الكبرى**، تحقيق: عبد الغفار سليمان، وسيد كسروي، دار الكتب العلمية، ط١، ١١٤١هـ/١٩٩١م.

- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود. **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، تحقيق: يوسف بدوي، راجعه: محيي الدين ديب، بيروت: دار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

- النيسابوي، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، صنع فهارسه: محمد بن نزار وهيثم بن نزار، بيروت: دار الأرقم، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

- الهروي، أبو عبد الله القاسم بن سلام. **غريب الحديث**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

الكشاف

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ك

ل

م

ن

هـ

و

